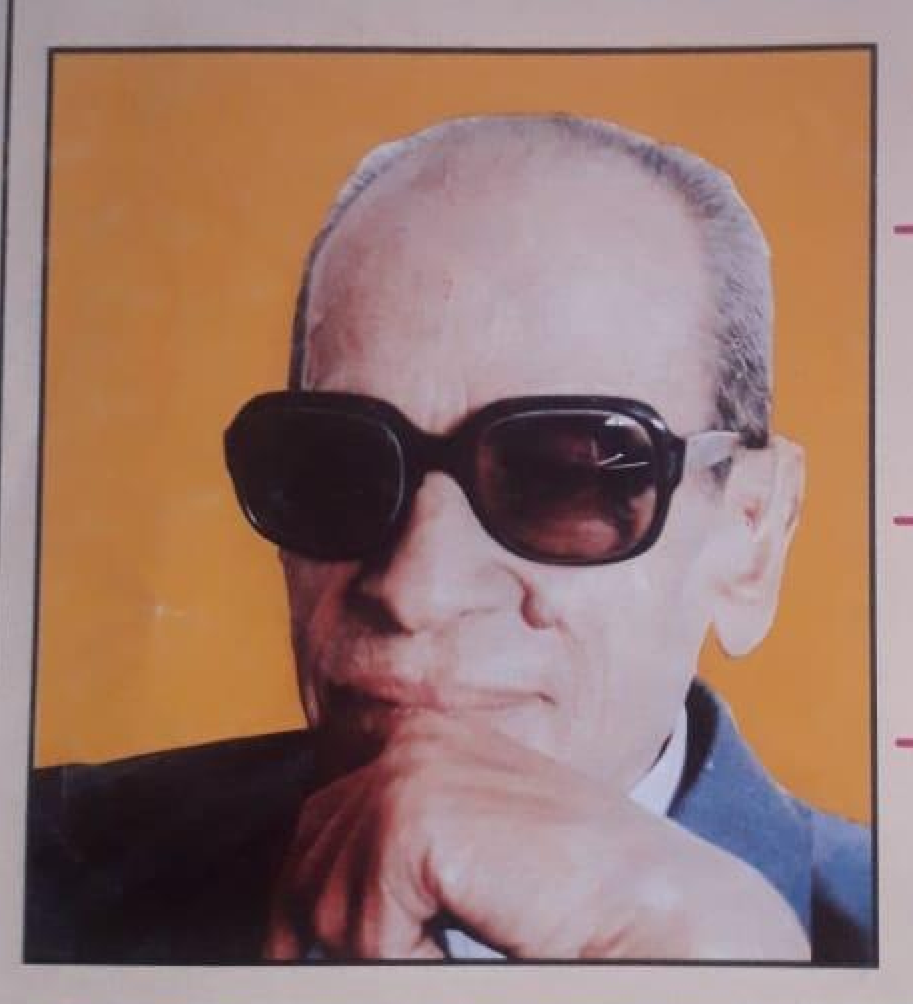
المهاجر يوسف شاهين



العدد السابع و الخمسون / نوفمبر ١٩٩٤ م /جماد الاول ١٤١٥ هـ / الثمن ١٥٠ قرشا مصريا



أخطر عشرين يوماً فى تاريخ الرأسمالية المصرية

فلسطين بعد الاختطاف و انفجار تل أبيب

فرنسا فى مواجهة الحجاب

هجوم على حرية الصحافة

نجيب محفوظ . . و مدرسة التكفير . . وجذور العنف

كفر الدوار . . مدينة تواصل الغضب

فى هذا العدد



فرضت أحداث «كفر الدوار» نفسها على كل المهتمين بقضايا الوطن ومشاكله، وعلى هذا العدد من اليسار. صحيح أن كل الصحف الحزبية اليومية والاسبوعية، وبعض المجلات الاسبوعية حاولت أن تتابع كل كبيرة وصغيرة وتنقل للقارئ الصورة التى جهدت الصحافة الرسمية (الحكومية) والاذاعة والتليفزيون فى إخفائها عن المواطن.. لكن ظلت هناك مساحة لابد أن تنهض «اليسار» بها. وهكذا ! وضع مدحت الزاهد ومصباح قطب أيديهما على جوهر ماجرى فى كفر الدوار ومغزاه، سواء بالنسبة لهذا الموقع المجدد بذاته، أو بالنسبة لقضية أكبر تتعلق بالطبقة العاملة كلها فى كافة المواقع وبسياسات الخصخصة، والموقف الاقتصادى والاجتماعى والسياسى للسلطة الحاكمة.

ولم يمنع انشغال مصباح قطب بهموم الطبقة العاملة، أن يطل بقوة على مؤتمر الرأسماليين المصريين والآثار المتوقعة بعد، لتستكمل صورة طرفى الصراع، حتى وإن لم يتواجها مباشرة.

بينما حرصت أمينة النقاش على متابعة هجوم أكتوبر على الصحافة المصرية، ووضع النقط فوق الحروف.

كل ذلك والاحداث العربية والعالمية تلح علينا لمتابعتها.. حادثة اختطاف الجندى الاسرائيلى.. انفجار تل أبيب.. هاييتي.. الانتخابات الالمانية.. قضية الحجاب فى فرنسا.. مؤتمر حزب العمال البريطانى.. الخ

ويعمق محمود أمين العالم فى هذه العدد الحوار الدائم حول الثقافة و«المد الاصولى».. كما يناقش أحمد يوسف فيلم يوسف شاهين «المهاجر»، وهو فيلم- كعادة شاهين- لابد أن يثير جدلا واسعا واصطفافا بين المؤيدين والمعارضين، بل والذين يرجهون الاتهام للفيلم وصاحبه.. وأن اتفق الجميع على الكثيرمن فنيته..

على كل هذا عدد نعتقد أنه عدد خاص بما يحتويه من تنوع وتعميق لكثير من القضايا، وأن كنا نشعر بعدم الراحة لغياب «رسالة موسكو» بعد أن تاه «أحمد الخميسى» فى شوارع القاهرة فلم نعرف طريقة حتى الآن، كما نعتذر عن تأجيل الدراسة الهامة للزميل مجدى نصيف حول الاحزاب الاشتراكية فى أوربا.. وموعدها-بإذن الله- العدد القادم.

موقفنا

نجيب محفوظ.. ومدرسة التكفير.. وجذور العنف

حسين عبد الرازق

الزلزال الذى أصاب الوجدان المصرى وهزه بعنف مع محاولة الاعتداء على حياة «نجيب محفوظ» ودفع الجميع الى الإدانة والاستنكار، سيفقد مع مرور الوقت أى معنى مالم نضع أيدينا على جذور هذا العنف المجنون الذى يمسك بتلابيب المجتمع ويوشك أن يصبح أسلوب حياة. فهذه الجريمة ليست الأولى ولن تكون الأخيرة. ولكنها تسلط الضوء على ظاهرتين- ضمن ظواهر أخرى عديدة - لابد من التوقف أمامها طويلا.

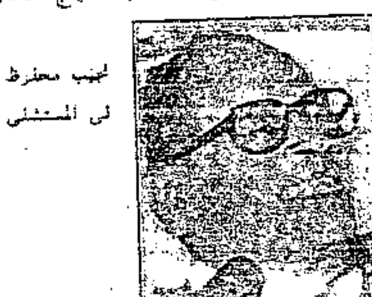
فكما هو واضح مما أذيع ونشر حول الجريمة والقائمين بتنفيذها والتخطيط لها، فهناك خلفية أساسية لها، **وهو تكفير «نجيب محفوظ» بسبب كتاباته الروائية، وبصفة خاصة روايته الخالدة «أولاد حارتنا»**. وإذا كان صحيحا أن صاحب اليد الآثمة التى نفذت بل والمخططين للجريمة لم يقرأوا **«أولاد حارتنا» أو غيرها من أعمال** نجيب محفوظ، الا أنهم جميعا يستندون فى تبرير جريمتهم الى «الفتاوى» والآراء والكتابات التى اتهمت **«نجيب محفوظ»** بالكفر والالحاد.. بدءا من فتوى أو تقرير الشيخ «محمد **الغزالى**» ضد الرواية فى نهاية الستينات والتى أدت الى منع طبعها فى مصر بعد نشرها مسلسلة فى الاهرام، مرورا «بفتوى» **الشيخ عمر عبد الرحمن** بعد حصول **«نجيب محفوظ»** على جائزة نوبل للأداب عام ١٩٨٨، الى الكتابات التحريضية فى عديد من المطبوعات التى تصدر عن جماعات وتيارات الاسلام السياسى والتى واصلت اتهام **نجيب محفوظ** بالكفر والالحاد، والشهادات التى تعطى الحق- أو العذر- لمن يقتل كافرا أو ملحدا، الى منع رواياته من مقررات وزارة التربية والتعليم.

ورغم أن جماعات الاسلام السياسى- أغلبها على الأقل- سرا، التى تمارس الارهاب أو التى تقول بالديمقراطية، هى صاحبة الصوت الاعلى فى اتباع منهج التكفير بالمخالفة للدين والشريعة، فلايمكن أن ننسى أن هذه الظاهرة لها أباء أخرون سياسيون فى الأساس، وبعضهم ينتمى الى رجال الفكر والقلم..

فالسادات - الأب الروحى للحكم القائم- هو أول من استخدم منهج التكفير ضد معارضيه وخصومه السياسيين. وكلنا نذكر تحريضه المجنون ضد أعضاء وقيادات التجمع والناصريين والشيوعيين عقب أحداث ١٨ و١٩ يناير ١٩٧٧ واتهامهم بالكفر والخيانة الوطنية، واستخدامه لعبارات قرآنية فى إحدى خطبه بالقوات المسلحة قائلا للمواطنين «اقتلوهم **حيث ثقفتموهم**»

ومازالت مدرسة السادات فى التكفير والاتهام بالخيانة والعمالة لها نفوذها والناطقون باسمها حتى فى أكبر وأعرق صحفنا اليومية (راجع مقالات د. عبد العظيم رمضان)، وفى بعض الصحف الحزبية، بل إن بعض المتقولين بليبراليتهم لايتورعون عن تكفير خصومهم ومعارضيهم، خاصة اليسار!.

ولاينفصل عن ذلك غلبة منهج انكار



نجيب محفوظ فى المستشفى

رئيس التحرير:
حسين عبد الرازق
المشرف الفني:
محمود الهندى
المستشارون:
إبراهيم بدراوى
د. رفعت السعيد
صلاح عيسى
د. عبد العظيم أنيس
عبد الغفار شكر
عبد الغني أبو العينين
محمود أمين العالم
شارك في التأسيس:
د. فؤاد مرسي

اليسار: منبر ديمقراطي يصدر عن التجمع الوطني التقدمي الوحدوي في اليوم الأول من كل شهر

AL YASSAR 1 KARIM El DAWLA St. TALAAT HARB SQ. CAIRO EGYPT

الاشتراكات (لمدة سنة واحدة)
مصر:
١٨ جنيها للأفراد و٤٥ جنيها للهيئات
الوطن العربي: ٥٠ دولاراً أمريكيا او مايعادلها
ترسل القيمة بشيك مصرفي او حوالة بريدية إلى إدارة المجلة.

الإدارة والتحرير: ١ شارع كريم الدولة ميدان طلعت حرب- القاهرة
ت: ٥٧٥٩١٥٢ - ٥٧٥٩٠١١ - ٥٧٥٩٢٨١
فاكس: ٥٧٨٦٢٩٨ - FAX:5786298

الآخرين ونفى وجودهم والحكم عليهم بالإعدام الأدبى من هذا التيار او ذاك.

إن هذا المناخ الردئ هو الاصل والاساس فى انتشار ووقوع مثل هذه الجرائم البشعة وبدون مواجهة بحسم وقوة، فلن تكون هذه الجريمة هى الأخيرة.

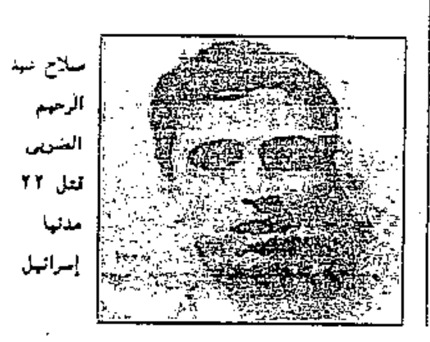
الظاهرة الثانية التى تستحق التوقف، هى وقوع هذه الجريمة .فى ظل ضربات أمنية موجعة أصابت الجماعات الارهابية فى مقتل، وشلت قدرتها على الفعل. وتبدو هذه الجريمة واختيار نجيب محفوظ كهدف لها محاولة من هذه الجماعات للفت نظر الرأى العام المصرى والعربى والدولى بأنها مازالت موجودة وقادرة على الوصول والفعل، بصرف النظر عن أن نجيب محفوظ بأسلوب حياته البسيط والمرتب هدف سهل لأى «هاو» فما بالنا بمحترفى الاجرام والقتل. وخطورة هذه الجماعات وهى مصابة بجراح دامية، لاتقل - إن لم تزد- عن خطورتها فى الأحوال العادية. خاصة وأن الضربات الأمنية القوية والناجحة ، لايمكن أن تقضى على هذه الظاهرة التى يتفق الجميع على أن لها جذورا اقتصادية واجتماعية وسياسية وثقافية تخلق المناخ والأرضية لنمو هذه التيارات السرطانية. وللاسف فمازالت هذه الجذور على حالها ، مولدة لاشكال مختلفة من العنف، قد يكون عنف الجماعات الارهابية المتسترة بالدين أبرزها وأخطرها الآن، ولكن هناك مظاهر أخرى لهذا العنف قد تصبح فى مرحلة قادمة أشد خطرا مما نعيشه هذه الايام مالم يتم مواجهة الجذور الحقيقية لانتشار هذه الموجات الارهابية. وأظن أن متابعة الاغتيالات اليومية لضباط وجنود الشرطة، وسقوط القتلى من المتهمين بالانتماء لهذه الجماعات فى مواجهات شبه يومية ، واغتيال الشرطة للأبرياء ، بما فيهم طلاب المدارس خلال إضراب عمال كفر الدوار، يؤكد هذا الخطر.

ارهاب .. ارهاب

فى صباح الاربعاء ١٩أكتوبر ١٩٩٤ قام أحد عناصر «كتائب عز الدين القسام- مجموعة مرج الزهور» بعملية انتحارية فى قلب مدينة تل أبيب الاسرائيلية فقد حمل «صلاح عبد الرحيم صوبى» وهو شاب من مواليد قلقيلية بالضفة الغربية ، مايقدر بعشرة كيلوجرامات من مادة ت- إن- ت شديدة الانفجار، وركب سيارة أتوبيس، ثم فجر نفسه داخل السيارة ليقتل ٢٢ إسرائيليا ويصيب ٤١ آخرين. وقد أصاب الحادث الاسرائيليين بالذهول. وقطع رابين زيارته للمملكة المتحدة. وعاد مسرعا الى اسرائيل ليعلن قفل قطاع غزة والضفة الغربية الى أجل غير مسمى، مؤكدا الحاجة الى قرار كبير حاسم ينفصل مابين العرب واليهود فى شكل دائم ، ويواجه «إرهاب حماس الوحشى المروع» وأدان «ياسر عرفات» رئيس السلطة الفلسطينية الحادث وقال أن منفذى عملية تل أبيب يتلقون أوامرهم من الخارج.. «وانني ضد الهجمات على المدنيين الأبرياء . وهذه الهجمات هى جزء من مؤامرات أعد لها فى الخارج»ووصف كلينتون انفجار تل أبيب بأنه «فظاعة موجهة ضد ضمير العالم». ولم يشذ زعيم أو مسئول غربى أو عربى عن هذا الاتجاه بإدانة هذه العملية بوصفها عملا إرهابيا موجها ضد مدنيين أبرياء.

قليلون هم الذين رأوا أن هذاالارهاب الموجه للإسرائيليين، والذى وصفه اسحاق رابين بأنه مختلف عن الارهاب الذى مارسته منظمة التحرير الفلسطينية سابقا لأن دافعه دينى».. هو الوجه الآخر للارهاب الاسرائيلى المتواصل لمدة عقود ضد الفلسطينيين فى الضفة والقطاع ، وضد العرب فى جنوب لبنان والجولان (وسيناء قبل ذلك) ، بل أن الجيش الاسرائيلى (النظامى) قتل فى نفس يوم الحادث واليوم التالى ٧ لبنانيين فى الجنوب اللبنانى المحتل نتيجة قصف مدفعى على عدد من القرى.

وقد يرى البعض فى عمليات حماس نوعا من الكفاح المسلح ضد المحتل، وقد يرفض الغالبية ذلك باعتبار ماجرى عملا ارهابيا ضد مدنيين عزل.. ولكن المؤكد أن هذه العمليات ستستمر بل وربما تتصاعد- كما قالت «حنان عشراوى» لراديو مونت كارلو- طالما استمر الاحتلال الاسرائيلى للضفة الغربية (وقطاع غزة) والجولان والجنوب اللبنانى.. وطالما ظلت اسرائيل تعتقل الآلاف من الفلسطينيين واللبنانيين.. ولجأت الى التباطؤ فى تنفيذ بنود الاتفاق الاسرائيلى الفلسطينى. (المرفوض أصلا فى قطاعات من الشعب الفلسطينى) والتلاعب فى تفسير النصوص، ومحاولة اذلال المفاوض الفلسطينى فى كل مرحلة والحصول منه على تنازلات جديدة والاصرار على تأجيل القضايا الرئيسية التى تعطى الفلسطينيين أملا حقيقيا فى حل معقول لقضيتهم، وكلها ممارسات تضعف فى النهاية من نفوذ ياسر عرفات وشعبيته ، وتزيد من حجم وقوة معارضيه ومعارضى مدريد واتفاقية أوسلو، المعروفة باسم «اتفاق غزة -أريحا: أولا».



صلاح عبد الرحيم الصوبى قتل ٢٢ مدنيا إسرائيل

ارض الوطن .. للايجار

فى زمن قياسى أنجزت الاردن واسرائيل اتفاقية سلام بينهما . فالمفروض أن يكون الاتفاق قد وقع يوم الاربعاء الماضى (٢٦ أكتوبر ١٩٩٤) بحضور الرئيس الأمريكى «بل كلينتون» فى عمان. وهكذا تقطع الاردن رحلة التطبيع وانهاء حالة الحرب وتوقيع اتفاقية السلام فى فترة لاتتجاوز ثلاثة أشهر منذلقاء «الحسين- رابين- كلينتون» فى ٢٥ يوليو الماضى والتوقيع على «إعلان واشنطون» الذى أنهى حالة الحرب بين الاردن واسرائيل، وقد وصف وارن كريستوفر -بحق- صدور هذا الاعلان قائلا.. «إن التحرك الأردنى الأخير يغير الخريطة السياسية للشرق الأوسط».

ولايمكن فهم مغزى هذا التطور السريع ، دون فهم الظروف والعوامل التى وقعت بالاردن للسير وحيدا على طريق الاتفاق مع اسرائيل، دون التفات الى مواقف الدول العربية الاخرى (سوريا- ولبنان) والفلسطينيين

الآخرين ونفى وجودهم والحكم عليهم بالإعدام الأدبي من هذا التيار او ذاك.

إن هذا المناخ الردئ هو الاصل والاســاس فى انتشار ووقوع مثل هذه الجرائم البشعة وبدون مواجهة بحسم وقوة، فلن تكون هذه الجريمة هى الأخيرة.

الظاهرة الثانية التى تستحق التوقف، هى وقوع هذه الجريمة ،فى ظل ضربات أمنية موجعة أصابت الجماعات الارهابية فى مقتل، وشلت قدرتها على الفعل. وتبدو هذه الجريمة واختيار لجيب محفوظ كهدف لها محاولة من هذه الجماعات للفت نظر الرأى العام المصرى والعربى والدولى بأنها مازالت موجودة وقادرة على الوصول والفعل، بصرف النظر عن أن نجيب محفوظ بأسلوب حياته البسيط والمرتب هدف سهل لأى «هاو» فما بالنا بمحترفى الاجرام والقتل. وخطورة هذه الجماعات وهى مصابة بجراح دامية، لاتقل - إن لم تزد- عن خطورتها فى الأحوال العادية. خاصة وأن الضربات الأمنية القوية والناجحة ، لايمكن أن تقضى على هذه الظاهرة التى يتفق الجميع على أن لها جذورا اقتصادية واجتماعية وسياسية وثقافية تخلق المناخ والأرضية لنمو هذه التيارات السرطانية. وللاسف فمازالت هذه الجذور على حالها، مولدة لاشكال مختلفة من العنف، قد يكون عنف الجماعات الارهابية المتسترة بالدين أبرزها وأخطرها الآن، ولكن هناك مظاهر أخرى لهذا العنف قد تصبح فى مرحلة قادمة أشد خطرا مما نعيشه هذه الايام مالم يتم مواجهة الجذور الحقيقية لانتشار هذه الموجات الارهابية. وأظن أن متابعة الاغتيالات اليومية لضباط وجنود الشرطة، وسقوط القتلى من المتهمين بالانتماء لهذه الجماعات فى مواجهات شبه يومية ، واغتيال الشرطة للأبرياء، بجانبهم طلاب المدارس خلال إضراب عمال كفر الدوار، يؤكد هذا الخطر.

ارهاب .. ارهاب

فى صباح الاربعاء ١٩أكتوبر ١٩٩٤ قام أحد عناصر **«كتائب عز الدين القسام- مجموعة مرج الزهور»** بعملية انتحارية فى قلب مدينة تل أبيب الاسرائيلية فقد حمل **«صلاح عبد الرحيم صوى»** وهو شاب من مواليد قلقيلية بالضفة الغربية ، مايقدر بعشرة كيلوجرامات من مادة ت- إن- ت شديدة الانفجار، وركب سيارة أتوبيس، ثم فجر نفسه داخل السيارة ليقتل ٢٢ إسرائيليا ويصيب ٤١ آخرين. وقد أصاب الحادث الاسرائيليين بالذهول. وقطع رابين زيارته للمملكة المتحدة. وعاد مسرعا الى اسرائيل ليعلن قفل قطاع غزة والضفة الغربية الى أجل غير مسمى، مؤكدا الحاجة الى قرار كبير حاسم يفصل مابين العرب واليهود فى شكل دائم ، ويواجه **«إرهاب حماس الوحشى المروع»** وأدان **«ياسر عرفات»** رئيس السلطة الفلسطينية الحادث وقال أن منفذى عملية تل أبيب يتلقون أوامرهم من الخارج...«وانني ضد الهجمات على المدنيين الأبرياء. . وهذه الهجمات هى جزء من مؤامرات أعد لها فى الخارج»ووصف **كلينتون** أنفجار تل أبيب بأنه **«فظاعة موجهة ضد ضمير العالم»**. ولم يشذ زعيم أو مسئول عربى أو عربى عن هذا الاتجاه بإدانة هذه العملية بوصفها عملا إرهابيا موجها ضد مدنيين أبرياء.

قليلون هم الذين رأوا أن هذاالارهاب الموجه للإسرائيليين، والذى وصفه **اسحاق رابين** بأنه مختلف عن الارهاب الذى مارسته منظمة التحرير الفلسطينية سابقا لأن دافعه دينى».. **هو الوجه الآخر للارهاب الاسرائيلى المتواصل لمدة عقود ضد الفلسطينيين فى الضفة والقطاع ، وضد العرب فى جنوب لبنان والجولان (وسيناء قبل ذلك)** ، بل أن الجيش الاسرائيلى (النظامى) **قتل فى نفس يوم الحادث واليوم التالى ٧ لبنانيين فى الجنوب اللبنانى المحتل نتيجة قصف** مدفعى على عدد من القرى.

وقد يرى البعض فى عمليات حماس نوعا من الكفاح المسلح ضد المحتل، وقد يرفض الغالبية ذلك باعتبار ماجرى عملا ارهابيا ضد مدنيين عزل.. ولكن المؤكد أن هذه العمليات ستستمر بل وربما تتصاعد- كما قالت «حنان عشراوى» لراديو مونت كارلو- **طالما استمر الاحتلال الاسرائيلى للضفة الغربية (وقطاع غزة) والجولان والجنوب اللبنانى.. وطالما ظلت اسرائيل تعتقل الآلاف من الفلسطينيين واللبنانيين.. ولجأت الى التباطؤ فى تنفيذ بنود الاتفاق الاسرائيلى الفلسطينى.** (المرفوض أصلا فى قطاعات من الشعب الفلسطينى) والتلاعب فى تفسير النصوص، ومحاولة اذلال المفاوض الفلسطينى فى كل مرحلة والحصول منه على تنازلات جديدة. والاصرار على تأجيل القضايا الرئيسية التى تعطى الفلسطينيين أملا حقيقيا فى حل معقول لقضيتهم، وكلها ممارسات تضعف فى النهاية من نفوذ ياسر عرفات وشعبيته ، وتزيد من حجم وقوة معارضيه ومعارضى مدريد واتفاقية أوسلو، المعروفة باسم «اتفاق غزة -أريحا: أولا».

صلاح عبد الرحيم الصوى قتل ٢٢ مدنيا إسرائيل

أرض الوطن .. للايجار

فى زمن قياسى أنجزت الاردن واسرائيل اتفاقية سلام بينهما . فالمفروض أن يكون الاتفاق قد وقع يوم الاربعاء الماضى (٢٦ أكتوبر ١٩٩٤) بحضور الرئيس الأمريكى **«بل كلينتون»** فى عمان. وهكذا تقطع الاردن رحلة التطبيع وانهاء حالة الحرب وتوقيع اتفاقية السلام فى فترة لاتتجاوز ثلاثة أشهر منذلقاء **«الحسين- رابين- كلينتون»** فى ٢٥ يوليو الماضى والتوقيع على **«إعلان واشنطون»** الذى أنهى حالة الحرب بين الاردن واسرائيل، وقد وصف وارن **كريستوفر** -بحق- صدور هذا الاعلان قائلا.. «إن التحرك الأردنى الأخير يغير الخريطة السياسية للشرق الأوسط».

ولايمكن فهم مغزى هذا التطور السريع ، دون فهم الظروف والعوامل التى وقعت بالاردن للسير وحيدا على طريق الاتفاق مع اسرائيل، دون التفات الى مواقف الدول العربية الاخرى (سوريا- ولبنان) والفلسطينيين



الملك حسين يستعرض حرس الشرف قبل خطاب العرش

*أول هذه العوامل هو الأزمة الاقتصادية الطاحنة التي يعيشها الاردن منذ حرب الخليج والدور الذي لعبه ، واعتبر مساندا لنظام صدام حسين. وقد بلغت ديون الاردن ٥ر٦ مليار دولار (منها ٥ر٥ مليار لنادي باريس) و٩٥١ مليون دولار للولايات المتحدة الأمريكية. وقد وصلت للاردن رسالة واضحة تؤكد استعداد الولايات المتحدة لرفع القيود على تسليح الاردن، وتقديم المساعدات لها، وإسقاط جزء من ديونها ، بمجرد عقد لقاء «علني» بين الملك حسين ورئيس الوزراء الاسرائيلي، كخطوة في طريق انهاء حالة الحرب والتسوية. وأشار الملك حسين الى ذلك بوضوح في خطاب له في ١٠ يوليو الماضي قائلا «واذا كان اللقاء مع رئيس وزراء اسرائيل هو الثمن لتأمين مصالح الأردن، فلن أتردد إزاء ذلك خدمة تجاه الوطن الذي يواجه ضغوطا متواصلة على مختلف المستويات». وكان هذا الخطاب ثم لقاء رئيس وزراء الاردن «عبد السلام المجالي» وشيمون بيريز ووارن كريستوفر يوم ٢٠ يوليو في الاردن، هو التمهيد الضروري للقاء واشنطن واعلان انهاء حالة الحرب.

* ثاني هذه العوامل وأخطرها، هو الاتفاق الفلسطيني- الاسرائيلي، وفقدان الاردن الامل في جدوى أي تنسيق عربي. فالاردن والذي انجز في فترة مبكرة اتفاقا مع اسرائيل حول جدول أعمال مشترك للمباحثات ووقعه في ٢٤ سبتمبر ١٩٩٣ ، لم يكن **قادرا على التوجه لتوقيع اتفاق منفصل وألم يقدم ياسر عرفات على خطوة التوصل سرا مع اسرائيل ، وخارج نطاق مباحثات واشنطن واتفاقات مدريد**. الى اتفاق اعلان المبادئ في أوسلو والتوقيع عليه في واشنطن ومصافحة رابين. عرفات نكما قال **أبا إيبان** ..«من السخف تصور أن العاهل الاردني كان بإمكانه أن يتوصل الى إتفاق معنا قبل أن يتوصل الفلسطينيون الى مثل هذا الاتفاق. ومن دون إتفاق أوسلو والتوقيع عليه في واشنطن في أيلول (سبتمبر) الماضي ،سا كان الحسين حلم بأن يصافح الاسرائيليين علنا». لقد مكن الاتفاق الفلسطيني الاسرائيلي «**عبد السلام المجالي**» من القول في جلسة مغلقة لمجلس النواب «أن مايجري الآن هو عملية جر للاردن. بحيث يتفق الاسرائيليون والفلسطينيون، ثم يقومون بجرنا . وهذا شئ نرفضه رفضا قاطعا. لقد قلنا للفلسطينيين أنه لاعذر لهم بعد اليوم، واننا معنيون بشأننا مثلما هم يعنون بشأنهم ، واذا قررنا العمل وحدنا فإن ذلك يضرهم أكثر مما يضرنا». وقد استفادت الاردن من اصرار ياسر عرفات على التحرك بحرية مطلقة وعدم التشاور المسبق مع الاردن أو التنسيق معها حتى فيما هو مشترك بين الاردنيين والفلسطينيين . ورفض توقيع الاتفاقية الاقتصادية التي سبق الاتفاق مع الاردن عليها. ومن ثم استطاعت الاردن أن تقول بقوة أن اندفاعها لتوقيع اتفاقية سلام مع اسرائيل،أتي بعد ٣٢ شهرا من انطلاق عملية مدريد، وبعدفقدان أي أمل في تحقيق الحد الادنى من التنسيق مع الفلسطينيين والاطراف العربية المشاركة. وكما قال **الملك حسين**..«فقد كان علينا الاختيار بين السئ والأسوأ».

وقد جاءت معاهدة السلام الاسرائيلية الاردنية، واعلان واشنطن- قبلها- **تطبيقا نموذجيا لتعريب اتفاقيات كامب ديفيد** التي تقدم النموذج الاسرائيلي المعتمد لاتفاقيات السلام الجزئية والمنفردة. وزاد عليها بالطبع الاختلال الهائل في التوازن الناتج عن خروج مصر المبكر من ساحة المواجهة بعد اتفاقيات كامب ديفيد ومعاهدة الصلح المصرية الاسرائيلية(١٩٧٩) وانهيار الاتحاد السوفيتي، ونتائج حرب الخليج.. الخ.

وأخطر ما في هذه الاتفاقية (المعاهدة) التي تفرض التطبيع وتروج للسوق الاقليمية (الشرق أوسطية) وكل ما هو معروف وشائع حول منهج كامب ديفيد، ثلاثة أشياء

* تربط الاتفاقية الاردن باسرائيل اقتصاديا بصورة غير مسبوقة وبما يدعم عمليا تحقيق فكرة اسرائيل في السوق الشرق أوسطية عمليا.

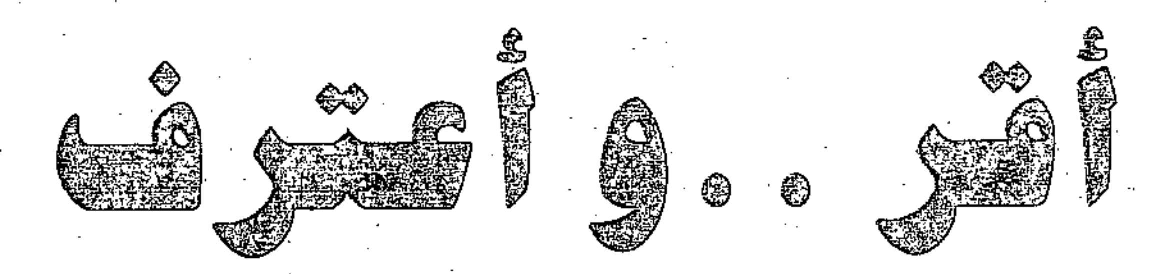
***لأول مرة توافق دولة عربية على «تأجير» جزء من أرضها المحتلة بعد استعادتها.** فطبقا لملاحق المعاهدة سيتم تأجير ثلاث كيلومترات من الاراضي للمزارعين الاسرائيليين قرب خط الهدنة، ونحو ٣٠ كيلومترا مربعا في وادي عربة، ومساحة من الارض تضم مستوطنين اسرائيليين. وذلك لمدة ٢٥ عاما قابلة للتجديد.

وهي سابقة بالغة الخطورة ودفعت الرئيس السوري حافظ الأسد لوصفها «**بالكفر**» وأعطت الفرصة لمتحدث مصري أن يقول إنها: «سابقة ضارة بالأمة العربية وبالمسارين السوري واللبناني» وأن يذكر أن مصر «خاضت معركة تفاوضية من أجل كيلومتر مربع واحد في طابا ورفضت قطعيا بقاء أي مستوطنة اسرائيلية في سينا، تحت أي زعم».. «إن مصر ترفض مبدأ تأجير الارض العربية».

* التأكيد على ولاية الاردن على الاماكن الاسلامية المقدسة، والفصل بين الولاية الدينية والولاية السياسية ،مما يزيد من الخلاف والأزمة بين الاردنيين والاسرائيليين، و«يؤدي في النهاية» الى تحقيق المخطط الاسرائيلي الهادف للاحتفاظ بالقدس (الموحدة) عاصمة أبدية لإسرائيل، واعتبار سكان القدس الشرقية المحتلة عربا مقيمين على أراضي العاصمة الاسرائيلية يتبعون سلطة الحكم الذاتي الفلسطيني.

وكم كان رابين لاذعا وصائبا عندما سئل حول الخلاف بين الاردن والسلطة الفلسطينية حول موضوع القدس،فقال..«**ليس من مهمتنا التنسيق بين العرب المختلفين**».

هوامش على دفتر الحياة



د. عبد العظيم أنيس

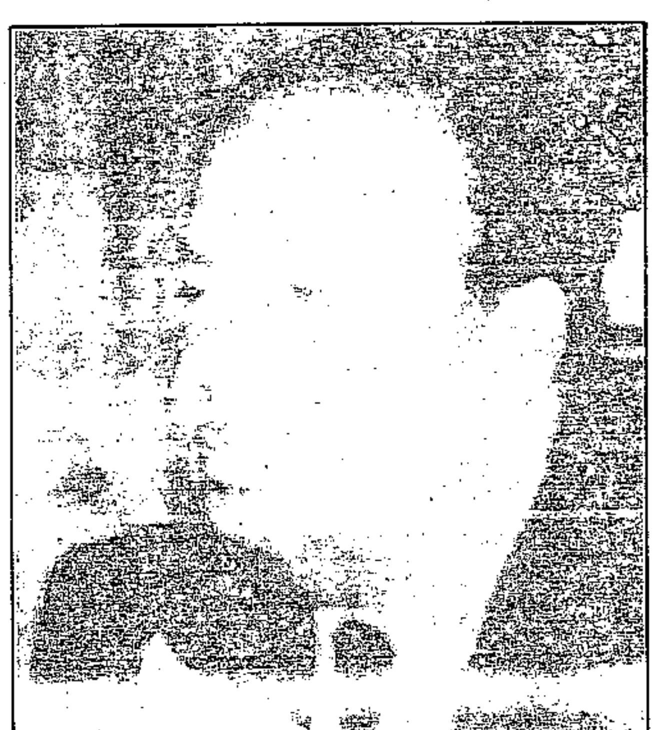
أقر واعترف- أنا الموقع أعلاه- أنني لم أشعر بسعادة غامرة عندما علمت نبأ انتخاب **د. فتحي سرور**- رئيسا لاتحاد البرلمانيين الدولي.. ولايعود هذا إلى نقص في حميتي الوطنية وانحيازي لأبناء وطني، إذ أن كل حياتي ومواقفي السياسية تشير الى غير ذلك. ومع أني لا أحب هذه «الاسطوانات» المشروخة التي تذاع علينا في التلفزيون كل يوم عن عظمة مصر وعن حب مصر، لأنها تتناقض مع حقيقة المواقف الرسمية المتجهة الى بيع كل شئ لصالح الاجانب والصهاينة..

إلا أنني حتى اليوم لا أملك كتمان دموع التأثر عندما أسمع أغنية «ياريس الفليون عدى القنال عدى» لعبد الحليم حافظ والتي نظمها الفنان الكبير صلاح جاهين عندما أممنا القنال عام ١٩٥٦، أو أغنية عبد الحليم «قلنا هانبني وادحنا بنينا السد العالي» كلمات أحمد شفيق كامل عندما أنجزت مصر أعظم عمل لها في التاريخ الحديث.. السد العالي.

قلت إذن أبحث عن سبب آخر لهذا الفتور الذي قابلت به نبأ انتخاب **د. فتحي سرور**. وبداية أحب أن أذكر أنه ليس بيني وبين **الدكتور سرور** معرفة شخصية لأننا لم نلتق أبدا، وبالتالي فنحن لم نتنافس على منصب في الجامعة - أو الدولة- وليس بين عائلتي وعائلته ثأر «بايت» في تنافس على أرض أو عقار أو أي أملاك أخرى.

إذن ماذا.. ماالذي جعلني أقابل هذا النبأ بهذا الفتور؟ لقد سألت نفسي هذا السؤال، وبدا لي أن **السبب الاول يرجع الى ماقرأت من معلومات عن مرشح شيلي** الذي كان ينافس د. سرور. فذلك الرجل الذي يرأس مجلس الشيوخ في شيلي اليوم له تاريخ مناضل، دخل السجن دفاعا عن مبادئه وأفكاره، وقد تعودت أن أحترم هذا اللون من الناس، ولابد أني قارنت في عقلي الباطن بين تاريخ هذا المرشح وتاريخ د. سرور الذي لم يعرف عنه أي دفاع عن فكر في وجه السلطة، ولم يدخل السجن في حياته ولو لمدة يوم واحد، ولاحتى الحجز في أقسام البوليس لمدة ساعة أو ساعتين. ومبلغ علمي أنه كان عضوا في التنظيم الطليعي السري في عهد عبدالناصر، ثم استدار مائة وثمانين درجة في عهد مبارك المناقض لخط عبد الناصر تماما.

ولابد أني أيضا قد فكرت آنذاك في أن **د. سرور، رئيس للبرلمان المصري الذي يمد قوانين الطوارئ كل ثلاث سنوات**



د. فتحي سرور.. فوز لايثير الحماس

بسرعة تفرق سرعة الحكومة فى رفع الاسعار، ومنذ تولى الرئيس مبارك عام ١٩٨١ أعلنت قوانين الطوارئ ومازالت حتى اليوم، ولايبدو فى الأفق أى احتمال فى إلغائها، بالطبع يتحمل المرحوم د. **رفعت المحجوب** مسئولية كبيرة فى هذا الوضع باعتباره رئيس المجلس آنذاك ومن بعده د. فتحى سرور الرئيس الحالى.

ولا أخفى أيضا أننى لم أكن من المتحمسين للدكتور فتحى سرور عندما كان وزيرا للتعليم . لقد بدأ بداية جيدة عندما أعد تقريره الشهير عن استراتيجية التعليم موضحا الحالة السيئة التى كان عليها التعليم آنذاك- ومازالت حتى اليوم- من ناحية المبانى والمناهج والمدرسين.. الخ لكنه بعد ذلك **ارتكب أكبر خطيئة فى تاريخ وزراء التعليم المصرى عندما ألغى سنة من التعليم الابتدائى بجرة قلم**، ومازلنا نعانى حتى اليوم من آثار هذه الخطيئة. والأغرب من هذا أنه ادعى أن المكتب الاقليمى لليونسكو فى عمان يبارك هذه الخطوة. وأتذكر أننى سألت المرحوم د. **ابراهيم كاظم**- مدير المكتب الأقليمى - عن حقيقة الموضوع فأوضح لى آنذاك أن هذه الموافقة قد انتزعت من مكتبه انتزاعا ولكنها كانت مشروطة بتوفر شروط من ناحية المناهج والكتب والمدرسية.. الخ ليست متوفرة أبدا فى التعليم المصرى. وأتذكر أيضا أن د. **حامد عمار** سأل د. كاظم عن نفس الموضوع وكانت إجابته مماثلة لما قاله لى. وعندما جاء د. **حسين كامل بهاء الدين** وزيرا للتعليم بدأ عمله بانتقاد هذه الخطيئة التى ارتكبها د. سرور، مما جعلنا نفهم أنه ينوى إصلاح الوضع وإعادة السنة الى التعليم الابتدائى ، لكن شيئا من هذا لم يحدث مع الاسف الشديد، ولعل هذه التصريحات الأولى هى السبب فى العداء المكتوم بين د. سرور والدكتور بهاء الدين، وهو عداء اتضح فى أجلى صوره عندما جرت مناقشة تعديلات نظام الثانوية العامة فى العام الماضى.

هذه إذن الاسباب «التاريخية» لمشاعر الفتور التى أصابتنى عندما علمت بانتخاب د. سرور رئيسا لاتحاد البرلمانيين الدولى.

هل هناك أسباب أخرى تتعلق بالحاضر؟

نعم مع الاسف الشديد، رغم أن ماذكرته من أسباب قديمة كانت تكفى لفهم مشاعرى هذه. وأول الاسباب الجديدة خطاب أرسله **سفير شيلى فى القاهرة** باللغة الانجليزية ونشر فى باب رسائل القراء بعدد «الاهرام ويكلى» الصادر فى ٢٩ سبتمبر الماضى. وهو تعليق مهذب من جانب السفير على نتائج انتخاب الرئيس للاتحاد البرلمانى الدولى والذى فاز فيه د. سرور. وفى هذا الخطاب يقول السفير بالنص الكلمة المحيرة التالية:

«على الرغم من نقص الموارد لدعم مستر فالديز (المرشح الشيلى) فى حملته فإن نتائج الانتخاب جاءت متقاربة... ١١٦ للدكتور سرور و١٠٣ للمرشح الشيلى.

وأخذت أنكر ماذا يقصد السفير بكلمة الموارد resources التى جاءت فى خطابه؟ ومن أيام قابلت صحفيا مصريا يعمل فى إحدى صحفنا القومية الكبيرة، وسألته فى ذلك فإذ به يقول إن د. سرور كان مصحوبا فى رحلته بعدد من رجال الاعمال المصريين الذين أنفقوا الكثير من الدولارات على حملة د. سرور الانتخابية. وأشار مثلا إلى أن بعض الحكومات الافريقية الفقيرة لم تكن قد دفعت رسوم اشتراكها فى الاتحاد البرلمانى الدولى، وهو شرط للاشتراك فى الانتخاب، فتولى رجال الاعمال المصريين حل هذه المشكلة. ومع أنى لم أعرف عن محدثى هذا أنه يبالغ فى الكلام أو يخترع شيئا من لاشئ، إلا أنى وجدت صعوبة فى تصور رجال أعمال مصريين يحملون حقائب مليئة بالدولارات وينفقونها على حملة د. سرور.

حتى فتح الله علينا بما ورد فى أهرام ١٩٩٤/١٠/٨ صفحة ١٨ فيما يسمى صفحات مصر الخضراء! وهى صفحات مدفوعة الاجر ومخصصة فيما يبدو للدفاع عن واحد من أعمدة اللوبى الصهيونى فى مصر.. د. **يوسف والى**!

وتختلط فى هذه الصفحات مقالات الدفاع عن سياسة **يوسف والى** الزراعية بالدفاع عن مواقفه كأمين عام للحزب الوطنى الحاكم. المهم أن الاهرام طلع علينا بصورة للدكتور **يوسف والى** مع رجل ضخم الجثة يدعى المهندس **عبد الفتاح دياب**، رئيس مجلس إدارة شركة ديابكو!

وتحت هذه الصورة عنوان بالخط العريض نصه التالى:

«المهندس دياب يحظى بتقدير القيادة السياسية لدوره الوطنى المشرف فى مساندة انتخاب د. سرور رئيسا للبرلمان الدولى»

ثم أضيف بعد ذلك بخط أصغر للترضيح النص التالى:

«جدير بالذكر أن المهندس دياب قام بدور وطنى مشرف فى دعم انتخاب الدكتور فتحى سرور رئيسا للاتحاد الدولى فى الدانمرك، حيث لمست جميع الوفود نشاطه المكثف بين الوفود الافريقية والاسيوية ولم يبخل بجهد أو مال . **ويقدر المقربون منه أنه أنفق مايزيد على ٧٥ ألف دولار**»

هل فهمتم إذن ماجرى بالضبط؟

لكن مالا أفهمه هو، كيف يوصف هذا العمل بأنه دور وطنى مشرف. وإذا كان رجال أعمال من أمثال المدعو **عبد الفتاح دياب** قد نثروا دولاراتهم على هذا المجمع الدولى فى الدانمرك، فإن السؤال المشروع هو:

ماذا يأخذ رجال الأعمال هؤلاء من الدولة فى مقابل هذا العمل؟

وهل يشرف مصر أو د. سرور أن يأتى انتخابه عن هذا الطريق؟

هذا هو السؤال...

د. حسين كامل بهاء الدين..
انتقاد خطيئة سلفه

عبد الفتاح دياب..
٧٥ ألف دولار ..لماذا؟!



كوبا المحاصرة

عبر الشعب المصرى مؤخرا عن تعاطفه العميق مع الشعب الكوبى فى الظروف الصعبة التى يواجهها اليوم نتيجة الحصار الاقتصادى الأمريكى لكوبا، والذى ليس له مبرر واحد مقبول لدى الكثيرين من السياسيين والصحفيين الامريكيين أنفسهم. أقول عبر الشعب المصرى عن هذا التعاطف بالاستقبال الحار الخاص الذى لقيته المسرحية الكوبية فى مهرجان المسرح التجريبى الذى أنعقد بالقاهرة مؤخرا. ولاشك أن الكثيرين قد تذكروا الحصار الاقتصادى المضروب على الشعب العراقى وإصرار أمريكا على استمرار فرضه رغم الحالة التعيسة التى وصلت إليها أقسام واسعة من الشعب العراقى الشقيق. وبصرف النظر عن صدام حسين- وقد أدنت علنا غزوه للكويت منذ أول يوم- فإن التعاطف مع الشعب العراقى قد أصبح عاطفة واضحة ملحة لدى الشعب المصرى.

إن قصة السياسة الاستعمارية الامريكية إزاء كوبا منذ استطاعت الثورة الكوبية أن تسقط العميل الامريكى باتستا منذ خمس وعشرين سنة مسجلة فى العديد من الكتب بقلم كتاب أمريكيين منصفين. وقد لانستطيع الدخول فى تفاصيل هذا التاريخ فى هذه العجالة، ولكن يكفى أن نقول إن الحجة الامريكية للحصار الاقتصادى لكوبا كانت هى تحالفها مع الاتحاد السوفيتى، وعدم توفر الحرية الاقتصادية والسياسية فى هافانا.

لكن الحرب الباردة قد انتهت ولم يعد هناك دولة اسمها الاتحاد السوفيتى، أما من ناحية الحرية الاقتصادية والسياسية فواشنطن تعلم حقيقة أن هناك ١١٧ قسما من الاقتصاد الكوبى مسموح فيها بنشاط القطاع الخاص، بل يجد تشجيعا من الدولة. ولقد صوت الكوبيون فى الانتخابات المحلية منذ سنة ١٩٧٦، كما صوتوا من أجل انتخاب مباشر لحكومات المقاطعات منذ سنة ١٩٩٢، ودستورهم الحالى قد جرى التصويت عليه سرا ووافقت عليه الأكثرية، ولم يطعن المراقبون المحايدون فى نزاهة عملية التوصيت التى شارك فيها نحو ٩٥٪ من الناخبين. وإذا أرادت واشنطن أن تفرض على الكوبيين بالقوة نظامها الديمقراطى وتصوراتها عن السوق الحرة، فإن العزلة والحصار الاقتصادى لن يساعدا على ذلك. إن هذا هو منطق أعضاء الكونجرس الامريكيين من الديمقراطيين- أى من حزب كلينتون- الذين يعارضون السياسة الامريكية الحالية التى هى فى الحقيقة وفى الاصل سياسة الحزب الجمهورى، وقد عبر أعضاء الكونجرس هؤلاء عن وجهات نظرهم المعارضة علنا بمناسبة الازمة التى ثارت فى أغسطس الماضى حول موضوع النازحين الكوبيين الى ولاية فلوريدا، وكانوا بالمئات كل يوم.

وتعترف منظمة العفو الدولية فى لندن أن مخالفات كوبا فى مسائل حقوق الانسان هى مخالفات بسيطة إذا قورنت بالمخالفات التى تقع فى بعض دول أمريكا اللاتينية أو دول الخليج العربى المتحالفة مع واشنطن، وعن تلك الدول ومايجرى فيها لايبدو من رجال البيت الابيض أى اهتمام بقضية الديمقراطية.

إن الكوبيين يتضررون جوعا بسبب الحصار الاقتصادى، وهناك نقص خطير فى الدواء وأدوات العمليات الجراحية، كما أن هناك نقصا واضحا فى الوقود وقطع الغيار مما أثر على المصانع وأدى إلى اتساع البطالة.

فهل من الغريب أن نجد المئات من الشباب، الذين ولدوا بعد الثورة، يريدون الهرب من كوبا؟ لقد وقع هؤلاء فريسة الظروف القاسية داخل كوبا نفسها، و فريسة الدعاية الواسعة، عبر موجات الإثير الصادرة من فلوريدا التى لاتبعد عن كوبا أكثر من ٩٠ ميلا.

ولقد أعلن كاسترو مؤخرا ترحيبه باستعداد **جيمى كارتر** للوساطة بين كوبا والولايات المتحدة، جاء ذلك فى حديث للصحيفة الفنزويلية el nacional، وقال عن «كارتر» إنه رجل مهذب فى بلد يصعب أن يكون فيه الانسان مهذبا وسياسيا فى نفس الوقت». بل لقد أعلن استعداده لاكثر من هذا عندما قال فى هذا الحديث «أننى أقدم لهم رأسى مقابل استقلال كوبا، مقابل الثورة والاشتراكية».

فهل هناك مرونة أكثر من هذا؟



كاسترو

سعد عبد اللطيف الساعى

إذا لم تخنى ذاكرتى فإن أول لقاء لى معه كان فى أواخر عام ١٩٤٥، كان طالبا بكلية الآداب جامعة الاسكندرية، زميلا لمصطفى مندور الذى بدأ حياته الجامعية بدخول كلية العلوم ثم سرعان مااقتنع أنه غير مؤهل لدراسة الرياضيات فذهب الى قسم اللغة العربية بكلية الآداب. وسرعان ما تآلف الاثنان: **سعد الساعى ومصطفى مندور** الطالبان بقسم اللغة العربية بكلية الآداب. وكنت أنا **ومصطفى مندور** واثنان آخران نقيم فى شقة مفروشة فى حى كليوباترا بالاسكندرية، وكان سعد الساعى يتردد علينا وكثيرا ماوجدنا منهمكين فى مناقشات

سياسية جادة حول ... الملكية وحكومات السراي و... وأوضاع الفقراء ... الكولي ... الملكية، الاقطاعيين وحرامية شركات ... والنسيج بالاسكندرية وصراع العمال ... الفصل ومن أجل تحسين الاجور، تمرد الفلاحين فى بهوت، اللجنة الوطنية للطلبة والعمال عام ١٩٤٦.. الخ واندمج ... فى كل هذه المناقشات فى حماس بالغ وانحاز ... الى صف الفقراء والكادحين وضد السراى والانجليز وعملائهم من الباشوات الاقطاعيين وكبار الرأسماليين.

وهكذا استطعت دون عناء ضمه إلى منظمة «إسكرا» وأصبح واحدا من طليعة مناضليها. وعندما تحققت الوحدة بين إسكرا والحركة المصرية فى «حدتو» كان **سعد الساعى** واحدا من كوادر الاسكندرية المرموقين، يقوم بتوزيع جريدة **«الجماهير»** فى الاحياء الشعبية وينشط فى كل عمل جماهيرى فى الجامعة. وعندما وقع إضراب البوليس بالاسكندرية فى ٥. ٦ ابريل سنة ١٩٤٨ (وليس ١٩٤٧ كما قال د. **رفعت السعيد**) وقررنا توزيع منشور ثورى باسم **«حدتو»** بالاسكندرية، وفى ظل غياب السلطة قمت بطبع المنشور فى إحدى مطابع محرم بك العادية، كان **سعد الساعى** خير عون لى فى تلك المهمة إذ تولى حمل كميات كبيرة من هذا المنشور وحملها الى مراكز التوزيع المختلفة التى كانت معدة آنذاك. وكان هذا أول منشور يصدر فى مصر الحديثة باسم «حدتو» وشعار **«تسقط الملكية وتحيا الجمهورية»**.

منذ هذه السنوات وبفضلها جمعتنى صداقة خاصة بسعد الساعى، وربما تمضى السنون ولا نلتقى، ثم عندما يسمع أننى ذاهب الى الاسكندرية لإلقاء محاضرة فى مقر التجمع بالاسكندرية أو فى جمعية حقوق الانسان يتحامل على نفسه لمقابلتى وتجديد ذكريات سنين طويلة معا بالاسكندرية وفى معتقل أبوقير أيام الملكية، ثم فى معتقل الواحات أيام المرحلة الناصرية. وهناك العشرات من القصص التى تتعلق بالنضال والتى جمعتنا معا والتى ليس هناك من مجال لسردها الآن، وهناك العديد من الذكريات والطرائف الانسانية التى كنا نتذكرها عندما نلتقى فنضحك فى براءة.

لكنى أتذكر أننى ذهبت الى المنصورة فى صيف عام ١٩٤٧ لأنى كنت فى حاجة اليه لأمر هام لا أذكره اليوم، ولم يكن لدى عنوان مسكنه بالمنصورة، لكنى كنت أعرف أنه من أبطال الملاكمة (وزن الريشة) فى مصر فذهبت الى أحد الأندية الرياضية بالمنصورة.

وسألتهم عنه، فسرعان ما تطوع أكثر من واحد لأخذى إلى منزله، وكانت مفاجأة له ولوالده الاستاذ **عبد اللطيف الساعى** الذى كان يسمع عنى من ابنه، ولشقيقه محمد الذى كان يدرس الرياضيات عندى فى كلية العلوم. وأتذكر أننى قضيت يوما ممتعا مع شباب المنصورة الذين كانوا يلتفون حول سعد ثم عدت إلى الاسكندرية.

أما الذكرى الاخرى فحديثة وتعود الى عامين فقط أرثلات. لقد فوجئت بالصديق العزيز الدكتور **مصطفى مندور** يتصل بى تلفونيا ويقول لى إن سعد الساعى فى منزله ويريد أن يرانى. وسارعت الى المنزل فى حى مدينة نصر، فإذا به يخبرنى إن نجله شهدى الطالب بالسنة النهائية فى هندسة الاسكندرية مصاب باللوكيميا وأنه أحضره الى القاهرة لإجراء عملية «زرع نخاع» له وأن الطبيب الذى سيجرى له العملية هو ابن شقيقتى!

وبالطبع عملت كل مافى وسعى للوقوف الى جانب سعد فى هذه الظروف الصعبة، وكذلك فعل أصدقاء الشباب من أمثال **مصطفى** مندور والآخرين، وبعد العملية سافرت الى الخارج وأنستنى مشاغل الحياة هذا الموضوع، لكنى تذكرت موضوع شهدى فجأة واتصلت بالطبيب أسأله عما جرى بعد هذه العملية بشهور عدة فإذا به يقول لى إن شهدى مات!.

ولم أتوقع أن يعيش سعد طويلا بعد هذه الكارثة، وهكذا رحل **سعد الساعى** المناضل الصلب الذى عاش ومات مدافعا عن الفقراء والكادحين لأنه كان واحدا منهم.


سعد الساعى

... جديد على ... الدولى

أن يكون البنك الدولى موضع هجوم دول العالم الثالث وشعوبه ليس أمرا غريبا وما أكثر ما نسمع عن ذلك. أما أن يأتى هذا الهجوم من منظمات دولية غير رسمية فى الغرب فهو أمر جديد. فلقد نشرت الهيئة الدولية غير الرسمية المعروفة باسم **«أكسفام»** oxfam والتى تعمل فى ميدان الاغاثة فى الدول الفقيرة- وخصوصا إفريقيا وأمريكا اللاتينية – تقريرا اتهمت فيه البنك الدولى صراحة بأنه مسئول الى حد كبير بسياساته عن التكيف الهيكلى عن نمو الفقر فى أمريكا اللاتينية، وأنه يعرف الفقر فقط بدلالة الدخل وهو خطأ كبير.

كما أصدرت هيئة «السلام الاخضر» green peace تقريرا آخر اتهمت فيه البنك الدولى بأنه مشارك مع مؤسسات دولية أخرى فى مؤامرة لاقامة أسواق للتكنولوجيات العتيقة المدمرة للبيئة فى دول الجنوب.

وبالطبع هاج المسئولون فى البنك وماجوا بعد صدور هذين التقريرين، خصوصا، أنهما يصدران عن هيئتين يصعب اتهامهما بدوافع أيديولوجية.

وقال المسئولون فى البنك ان أزمة اقتصادية عميقة فى أمريكا اللاتينية هى المسئولة عن نمو الفقر وليست سياسات التكيف الهيكلى، وأن هذه السياسات على أى حال قد أرثلت فى أمريكا اللاتينية وليست مستمرة كما تقول أوكسفام. كما أنكر البنك دوره فى مؤامرة تسويق التكنولوجيات العتيقة المدمرة للبيئة فى دول الجنوب.

المهم أننا اليوم أمام ظاهرة جديدة، وهى أن أصحاب الضمائر فى الغرب لم يعودوا قادرين على السكوت على الجرائم التى يرتكبها البنك الدولى وصندوق النقد الدولى ضد شعوب العالم الثالث باسم **الاصلاح الاقتصادى**.

والموقف الاخير لمدير صندوق النقد الدولى فى اسبانيا عندما تحالف مع دول الجنوب لإفشال مشروع الدول الصناعية السبع الكبرى فى حجم المساعدات وتوزيعها – مما أثار ثائرة دول التحالف الغربى- يوحى بأن مأساة شعوب الجنوب بفعل القوى المسيطرة على الاقتصاد العالمى فى الشمال قد وصلت الى حالة لم يعد حتى مدير الصندوق قادرا على هضمها.

اشتباك في كفر الدوار
بين سياسات الخصخصة و مصالح العمال
هجوم حكومى على الحلقات الضعيفة :
عمال العقود .. و الاجر المتغير

تلقى انتفاضة عمال غزل كفر الدوار التى بدأت باعتصام الثلاثاء ٢٧ سبتمبر وانتهت باحداث الاحد الدامى ٢ أكتوبر، اضواء ساطعة على طبيعة المرحلة الانتقالية لسياسات الخصخصة، وهى مرحلة خصخصة الادارة، تمهيدا لخصخصة الملكية.

كما تلقى الانتفاضة نفس الاضواء على طبيعة المعركة الدفاعية التى تخوضها الطبقة العاملة دفاعا عن مواقع تمتد من حق العمل إلى حق العمال فى اجر عادل، وهى مواقع تتعرض لهجوم ضارى الآن.

ثم تلقى الانتفاضة اخيرا اضواء على اجواء تصاحب هذه المرحلة الانتقالية، منها مايتعلق بالسياسة الامنية فى مواجهة حركة الاحتجاج الديمقراطى العمالى، ومنها مايتعلق بالفراغ السياسى الناشئ عن قيود التعددية الحزبية، ومنها مايتعلق بالتحديات التى تواجه العمل النقابى فى هذه المرحلة الانتقالية التى تدفع الى الخلف بالنقابات الصفراء أو المهمشة أو المحاصرة او التى تتخذ موقفا وسطا وتعجز عن قيادة حركة الاحتجاج العمالى.

كما تشمل هذه الاجواء، موقف الصحافة «القومية» التى لم تفسح لاحداث الانتفاضة مكانا سوى بضعة سطور فى صفحة الحوادث أوصفحة الوفيات وكذلك موقف بعض

مدحت الزاهد

مايتمى الى مؤسسات المجتمع المدنى التى لم تحتل احداث كفر الدوار من موقع اهتمامها عشر اهتمامها باضطهاد مثقف او منكر او اديب، رغم أن الامر فى كفر الدوار كان يتعلق بمدينة كاملة، وسياسات عامة، وحقوقا مهدرة

مرحلة انتقالية للبيع.

فاحداث كفر الدوار لاتنتمى الى مايسمى فى الادبيات العمالية بحركات الاحتجاج المصنعى، كما انها لاتنتمى فقط الى حركات الاحتجاج المحلى لمدينة **تضامن اهلها مع** مطالب فئة مضطهدة.

ولعل هذا يقودنا مباشرة الى طبيعة المرحلة الانتقالية لسياسات الخصخصة، والتى تبدأ بخصخصة الادارة فى وحدات **القطاع** العام التى لم يتم بعد طرحها للبيع.

وهدف هذه المرحلة تهيئة الشركات للبيع عن طريقين:

* **تخفيض العمالة، بالبدء بالعمالة المؤقتة (عمال العقود)** واتخاذ اجراءات أخرى تصفية بهدف تخفيض العمالة الثابتة مثل تخيير عمال الاجازات بدون مرتب بين العودة أو الفصل.

* **تخفيض الانفاق** بهدف تعويم الشركات الخاسرة تمهيداللبيع، حتى لوامتدت اجراءات الترشيد الى أجور العمال الهزيلة، من خلال سياسة الحرمان أوتخفيض المكافآت والحوافز.

وأداة تحقيق اهداف المرحلة الانتقالية (خصخصة الادارة) هى اطلاق يد الادارة العليا، فى التحرر من كل قانون سواء كان القانون ٤٨ أو القانون ٢٠٣ نفسه، وتجميد الإدارات القانونية - الزائدة عن الحاجة فى زمن الخصخصة- والهيكل التنظيمى للشركات، بما فى ذلك الادارة الوسطى، وأحتواء اللجان النقابية، مع منح صلاحيات وأسعة للتفتيش الادارى فى توقيع الجزاء.

الحلقات الضعفة

أما اتجاه الضربه الرئيسى لتحقيق السياسات الحكومية فى مرحلة الانتقال فيتم بالهجوم المركز على الحلقات الضعيفة..

تحقيق هدف تخفيض العمالة بتصفية العمالة المؤقتة أى عمال العقود:

وتحقيق هدف ترشيد الانفاق بالهجوم على الاجر المتغير، أى المكافآت والحوافز، **فيما عرف بسياسة الحرمان**، وتخفيض **مخصصات** علاج العمال التى وصفها عمال غزل كفر الدوار **بسياسة الموت البطئ.**

والاطار السابق يرسم أهم خصائص المرحلة الانتقالية لسياسات الخصخصة، رغم تنويعاتها المختلفة فى وحدات القطاع العام.

رموز

وفتحى أحمد على، رئيس مجلس الادارة والعضو المنتدب فى شركة الغزل، ومعه مدير القطاع الادارى والتفتيش الادارى والقطاع الطبى، الذين اطاح بهم اعتصام العمال، ليسوا سوى رموز لهذه السياسة، رغم اندفاع **فتحى أحمد على**، فى اجراءات التنفيذ متجبرا باللقب الذى منحه له د. **عاطف صدقى**، رئيس الوزراء باعتباره **بولدوزر كفر الدوار**.

«انها التعليمات» بهذه الكلمات راجه **فتحى أحمد على**، اعضاء اللجنة النقابية، عندما نقلوا له بعض مايعتمل فى نفس العمال من آثار سياسة الحرمان، وفقا لما ذكره أحمد عبد المجيد فى تفسير أسباب السخط العمالى على اللجنة النقابية عندما اندلعت الاحداث.

بولدوزر كفر الدوار

ويؤكد حمدى ابو المعاطى المستشار

القانوني للجان النقابية في شركات الغزل أن رئيس مجلس الادارة أكد في تحقيقات النيابة أن ماقام به من اجراءات، كان تنفيذا بالفعل لتعليمات صادرة من الشركة القابضة للغزل ووزارة قطاع الاعمال.

وقد شملت الأجراءات التعسفية التى قامت بها الادارة لتحقيق اهداف المرحلة الانتقالية فصل قرابة الفى عامل من **عمال العقود** وتوسيع نطاق سياسة الحرمان من المكافآت والحوافز لمدة ثلاثة شهور لمن قام باجازة مرضية او اعتيادية ولو لمدة يوم واحد، أو تم توقيع جزاء عليه ولو لمدة ربع يوم، اوضبطه يدخن سيجارة في دورات المياه (لعدم وجود برنفية في معظم الاقسام، مع منع التدخين في الصالات) وتخيير العاملين في الخارج بين العودة او الفصل، واجبار العاملين على القيام بالاجازات المرحلة- اجباريا- وتوقيع جزاءات بالنقل الى مصانع المحمودية وكوم حمادة على بعض العاملين المجبرين على الاجازة، ومنع سيارات الاسعاف من نقل العمال المرضى، واعتبار المرض شرا **يستحق العقاب** بحرمان المرضى حتى من حافز المواظبة وتحديد سقف للعلاج، وصرف نسبة من تخفيضات مخصصات العلاج لرئيس القطاع الطبي والاطباء.

تجميد وتهميش

وكانت النتيجة تجميد الهيكل التنظيمي للشركة وتهميش سلطات رؤساء الاقسام وافراغ دور النقابة من مضمونه الحقيقي باجراءات التهديد والاغراء والاحتواء. ومن الملفت للنظر في هذا السياق أن رئيس مجلس ادارة شركة الغزل الذى تولى منصبه فى ٢٩ مايو عام ١٩٩٣ كانت امامه فرصة ذهبية للنجاح ، فعندما أعلن **التوقف عن صرف «اكراميات» لبعض كبار المسئولين في المحافظة ومديرية الأمن، وسحب ٣٥ سيارة للشركة كانت مخصصة للضباط، وتوقف عن صرف بونات البنزين، وخير العاملين في المصنع المنتدبين للحزب الوطني بين العودة** أو صرف مرتباتهم من جهة الانتداب، استبشر العمال خيرا، واعلنوا تأييدهم لكل سياسة تستهدف ضرب الفساد ورفع الانتاج.

وحتى القوى اليسارية في كفر الدوار، والتى يشارك منها **حزب التجمع والحزب الناصري** بقرابة نصف أعضاء اللجنة النقابية وصفت الرجل بأنه «رجل الانتاج» ورمزا للقطاع العام ينبغى دعمه ، بينما داعب هو ممثلي اليسار، في حفل بالشركة، وصف فيه نفسه بأنه «شيوعي رأسمالي»!

الشيوعى الرأسمالى

وقد لفت اللقب (الشيوعي الرأسمالي) الذي منحه رئيس مجلس الادارة لنفسه، في حفل لتكريم المتقاعدين، في بداية تولى الرئيس الجديد منصبه، لفت هذا اللقب نظر سيد أبو زيد الذى هتف له اعتصام عمال الغزل عام ٨٤ (سيد أبو زيد يابو الغلابة، عايزينك رئيس النقابة) فحذر رئيس الادارة ،في كلمته أمام الحضور من اجرائين: فصل



العمال او تخفيض الاجور، وقال في خطبة الوداع، وهو يتلقى شهادة التكريم- أن العمال مع الانتاج وضد الفساد، ولكن امتداد اجراءات التقشف الى حق العمال او اجور العمال وهم يعيشون بالكاد على حد الكفاف بأجور تمثل في حد ذاتها كل مايمكن أن تأتي به لوائح الجزاءات.. لايمكن أن يمر بغير انفجار.

وقد ذهبت كلمات سيد أبو زيد ادراج الريح، واندفع الشيوعي الرأسمالي، فتحى أحمد علي، بولدوزر كفر الدوار، والابن المدلل لحكومة الخصخصة في اجراءات ترشيد الانفاق والتعويم الى المنطقة الخطرة، حق العمال وأجور العمال، فسحب باجراءاته التالية رصيد التأييد، ولم يعد الامر يتعلق بنزاهته او فساده، بعد أن شن عدوانا صريحا على حق العمل وأجور العمال ثم زاد الطين بله أن الشبهات اصبحت تحيط به، عندما عين ١٧ **مستشارا من المتقاعدين باجور تقدرها مصادر في الشركة بما يزيدعن ربع مليون جنيه سنويا**، مع استمرار تجميد الهيكل التنظيمي والاندفاع في تطبيق سياسة الحرمان.

وعلى مدى شهور طويلة بدأ يتراكم مخزون القلق والسخط والتوتر الذي يقترب بنا من اعتصام عمال الوردية الثالثة احتجاجا على سياسات الادارة.

دفاع العمال

واذا كانت سياسات الادارة تنتمي الى اجواء المرحلة الانتقالية للخصخصة، فان انتفاضة عمال الغزل تنتمي بدورها الى هذه المرحلة:

لقد حددت الادارة جبهة المواجهة في حق العمل والاجر المتغير، وقبل العمال الاشتباك في الجبهة التي اختارتها الادارة. ببساطة كان الهجوم ضاريا على حق العمل والاجور، وكذلك كان الدفاع مستميتا.

وهذه الدلالة هي الاهم في قراءة انتفاضة عمال كفر الدوار.

فالهدف عماليا كان ضد الهجوم على حق العمل واجور العمال.

والوسيلة كانت الاعتصام السلمي للعمال.

والقيادة كانت قيادة طبيعية افرزها مخزون السخط، من خارج اللجنة النقابية المتهمة بالتهادن، ومن خارج صفوف العمال السياسيين، المتبدين بمحظورات العمل الحزبي في المصانع والجامعات والمدارس.. الخ وان مارسوا دورا فعالا في حركة التضامن مع انتفاضة العمال.

قيادة جديدة

والملفت للنظر في انتفاضة عمال الغزل عام ١٩٩٤ خلافا لانتفاضة ١٩٨٤ ولانتفاضات كفر الدوار في ١٩٦٤ و١٩٥٢، أن الاعتصام قد بدأ في غيبة «المفاتيح».

والمفاتيح في الاعتصامات والاضرابات السابقة كانت مجموعة ضيقه من القيادات، تملك نفوذا معترفا به، ومصداقية تكفي لقيادة وتنظيم حركة الاحتجاج. وقد فشلت كل محاولة بذلتها للبحث عن اسماء قيادة اعدت للاعتصام، ولم يعرف أحد اسم اول من دعا عمال الورديات الى عدم الانصراف. كان الحادث تلقائيا وعفويا، يعبر عن مخزون من التوتر، اطلق شعورا جمعيا شمل جموع العمال بضرورة الاحتجاج..

ولم يعبر هذا الشعور الجمعي عن مخزون التوتر المتراكم عن نفسه فقط في اختيار الشكل الاحتجاجي من خلال الاعتصام بل ايضا في قائمة المطالب التي بلورها المعتصمون تباعا في مراجهة سياسة تصفية العمالة والحرمان.

لم يقتنع العمال بمكسب جزئي بتراجع الادارة عن المنشور الذي أثار العاصفة بحرمان عمال الاجازات المرضية ولو ليوم واحد من الحافز، لم تكف تمهدات **سيد خميس** رئيس الاتحاد المحلي لعمال البحيرة ونائب رئيس النقابة العامة لعمال النسيج، ولا المنشور الذي وزعته اللجنة النقابية مذيلا بترقيع رئيس مجلس الادارة بسحب المنشور السابق،

دفاع عمالي مستميت عن حق العمل والاجر العادل.

***

ادارات فوق القانون.. وحلقات في سياسة الحرمان

***

بولدوزر كفر الدوار تحول الى نمر من ورق.

ولاتدخلات ضباط الأمن. فالمظالم العمالية لم تكن قاصرة على منشور او قرار.

ومن الثلاثاء ٢٧ سبتمبر الى الاحد ٢ أكتوبر بلور العمال ١٣ مطلبا وافق عليها رئيس مجلس الإدارة متراجعا عن عناده السابق عندما طرح في وجه اللجنة النقابيه ٣ لاءات.. **لا لعودة المفصولين.. ولا لعودة المنقولين.. ولا لرفع الجزاءات عن المحرومين..**

تراجع

والآن عندما أزفت ساعة العمل العمالي، وقع رئيس مجلس الادارة صاحب اللاءات الثلاثة في استراحته- حيث لم يتمكن من دخول الشركة أو مواجهة ثورة العمال- على مطالب المعتصمين، وتهاوت قبضته الحديدية تحت ضغط الاعتصام، وبدا أن الاحتجاج العمالي قد حول بولدوزر كفر الدوار الى نمر من ورق.

ولكن عمال كفر الدوار، ادركوا بالغريزة أو بالوعي ان نجاح الاعتصام لايرتبط فقط برفع المظالم، بل باسقاط رموز هذه السياسات، بالالحاح المتواصل على ضرورة إقالة **رئيس مجلس الادارة ومسئولي القطاع الاداري والطبي**، واعتبروا ذلك شرطا لانهاء الاعتصام، وبالفعل لم ينه العمال اعتصامهم. الا عندما اعلن مدير منطقة عمل كفر الدوار اقالة الرئيس.

الإدارة الوسطى

والملفت للنظر أيضا، كما يلاحظ **سيد أبو زيد**، أن الادارة الوسطى التي كانت حلقه الوصل بين الادارة والعمال، والتي راودت قطاعات منها احلام الخصخصة املا في أجور مرتفعة كأجور العمال في شركة العامرية، انحازت الى الاعتصام العمالي حيث لم تحصد لابلح اليمن ولاعنب الشام، بل تعرضت لعملية تهميش مع اطلاق يد الادارة العليا وادواتها، واصبحت هي نفسها ضحية لسياسة الحرمان والنقل..

وليس من المهم الآن القياس الدقيق لعناصر الوعي في حركة اعتصام عمال الغزل لتقرير ماإذا كانت المراجهة مع سياسة عامة او سياسة ادارة وضعية ولكن المؤكد أن عمال النسيج- الادنى اجورا بين كل العمال **الصناعيين**- وعمال كفر الدوار بالذات قد **لعبوا، ربما بسبب الطابع الصناعي للمدينة وكتلتها السكانية**- دورا طليعا في الاشتباك **مع كل سياسة استهدفت العدوان على حقوق العمال**.

فني سبتمبر عام ١٩٨٤، ومن مصنع

الغزل ايضا، ارتفعت صيحة الاحتجاج ضد التعديلات على قانون التأمينات الاجتماعية التي رفعت حصة التأمينات الى ١٠٪ من الاجر المتغير للعامل ونسبة الادخار من ١٪ الى ٥٪ بادعاء تحسين احوال العمال بعد المعاش، وقد تزامن مع هذا التخفيض في الاجور الفعلية قرارات أخرى برفع اسعار بعض السلع الرئيسية.. برمتها خاضت كفر الدوار المواجهة، كممثل عن الطبقة العاملة المصرية.

معارك الاجر المتغير

على أن احداث كفر الدوار تشير الى خاصية أخرى تتعلق بمعارك الطبقة العاملة حول الاجر المتغير الذي اصبح موضوعا للصراع بين الادارة والعمال في كل مواقع الانتاج تقريبا، مع مطالبة العمال بالحد الاقصى الممكن من الاجر المتغير وتسعى الادارة لحرمان العمال من الاجر المتغير او تخفيضه الى الحد الادنى الممكن، حتى يمكن القول أن **المعركة على الاجر المتغير اصبحت ذات طابع سياسي عام،** باعتباره يخص الطبقة العاملة في كل مواقع الانتاج مثلما خص السياسات الحكومية.

اصل الادعاء الحكومي هنا أن الاجر المتغير هو حافز على الارباح والانتاج، بصرف النظر عن سياسات التخسير التي انتهجتها الحكومة في الماضي بسبب الدور الاجتماعي للقطاع العام او نتيجة عدم القيام بالاحلال والتجديد او الاسباب تتعلق بالفساد، وتحويل القطاع العام إلى وسيلة نهب. واصل النضال العمالي هو أن الاجر الثابت يمثل في حد ذاته جزاء وعقابا، وأن الاجر المتغير قد أصبح مجرد استكمال لرواتب لاتتيح فرصة تجديد قوة العمل والابقاء عليها بين الاحياء، وبالتالي رفع النضال العمالي شعار (الاساس).

وانتفاضة كفر الدوار هي في جوهرها معركة حول الاجر المتغير في مواجهة سياسة الحرمان.

تنويعات

فهل كان اعتصام الصلب عام ١٩٨٩ شيئا أخر سوى معركة على حصة العمال من الارباح؟ وهل كان اضراب سائقي قطارات السكة الحديد عام ١٩٨٦ سوى معركة على حصة السائقين من حصيلة الغرامات؟

وهل كان اعتصام عمال الغزل انفسهم عام ١٩٨٤ سوى معركة ضد اقتطاع التأمينات لحصة من هذا الاجر المتغير؟



وفي الواقع فإن كل حركة احتجاج كبرى للعمال، والأمثلة أكثر من أن تعد او تحصى، كانت في جوهرها معركة على الاجر المتغير.

ولعل هذا يفسر القيام بمعظم الاعتصامات والاضرابات العمالية خلال شهر يناير (شهر صرف الارباح) وجزئيا خلال شهر سبتمبر، شهر افتتاح المدارس بعد أن سحبت الحكومة منحة المدارس.

رفع الأجور

وتتعلق هذه السمة الخاصة بمعارك الاجر المتغير ببعدين: بعد يتصل بالسياسات الحكومية، سبق تناوله. وبعد يتعلق بمستوى وعي وتنظيم الطبقة العاملة وامتلاكها لاسلحة قادرة على الدفاع عن وحدة مصالحها في رفع الاجر الثابت. ففي الوضع العمالي الراهن، يبدو للعمال، أن المطالبة برفع الاجور يعدنوعا من التدخل في سياسات الحكم، في السياسة العليا للدولة، فيتراجع هذا المطلب في غيبة تنظيم نقابي فعال، ودرجة اعلى من الوحدة والتنظيم ومن هنا فإن العمال قد اختاروا، ربما باكثر مما رغبت الدولة، أن يكون الصدام على ساحة الاجر المتغير، الذي يبدو ظاهريا، وكأنه نضال مصنعي، لاشأن له بالسياسة، ولكن وراء هذا الصراع تلخص صيحة احتجاج عمالية ضد مستوى الاجور كمايلخص مطلبا عماليا عاما برفع الأجور..

افلاس النقابات الصفراء

والقراءة المتأنية لاحداث كفر الدوار وغيرها من حركات الاحتجاج تشير ايضا الى تراجع دور النقابات الصفراء، او التي تنجح الادارة في احتوائها، او حتى النقابات الوسط التي تعجز عن قيادة وتنظيم حركة الاحتجاج.

فالوسيط الرئيسي بين العمال **والادارة العليا كانت اجهزة الامن**

قبل أن يصدر لها القرار السياسي بالتدخل ويلعلع رصاصها في حي المساكن صباح الاحد الدامي. ورغم مابذلته النقابة المصنعية والاتحاد المحلي من جهود في اجتماعاته الاخيرة، بعد اندلاع الاحداث، مع رئيس مجلس الادارة في شركته، (استراحته) الا أن جزءا من السخط العمالي قد انصرف الى اللجنة النقابية وممثلي التنظيم النقابي من كل المستويات، الذين توافدوا على المدينة فور اندلاع الاحداث.

فلم تكن قيادة الاعتصام للجنة النقابية المتهمةبالتهادن مع الادارة من قبل العمال. وقد عمدت سياسة الادارة في مصنع الغزل، كما حدث في مصانع أخرى الى تهميش اللجنة النقابية واحتوائها، ومن الاصل فإن قانون النقابات العمالية قد حرم النقابات المصنعية من أهم وظائفها في ابرام عقود العمل الجماعي، التفاوض الجماعي مع الادارة، وتمثيل العمال أمام مختلف الجهات واحال هذه الوظيفة الى النقابات العامة، التي يتم التمثيل فيها عبر «المصفاة».

لجان المندوبين

وبدورها لم تحاول اللجنة النقابية توسيع قدرتها على الضغط بتشكيل لجان المندوبين، التي يجيزها القانون، وظلت حائرة بين محاولات التهميش والاحتواء، وبين القدرة على التصدي لبولدوزر كفر الدوار وحكم قراقوش في مصنع الغزل، وعندما اندلعت الاحداث شكل العمال «قيادة الاعتصام» وسحبوا الثقة من النقابة.

ويلع القائد النقابي (مصنع البيضا) **عبدالمجيد احمد** على هذا البعد في احداث كفر الدوار فقد كشفت عن فراغ سياسي ونقابي، فالاعتصام كان حركة عمالية مستقلة بعيدة تماما عن الاحزاب السياسية والتنظيمات النقابية الرسمية، أو أي تنظيمات أخرى، ولم يكن هناك اتفاق بين أي اطراف على القيام بهذا الاعتصام السلمي، بل كان وليد حركةضغط تكشفت فيها مصالح العمال، وعبرت عن نفسها بارقى الاشكال تحضرا، تعبيرا عن الاحتجاج.

ويؤكد هذاالبعد ايضا **حمدي أبو المعاطي**، أمين الحزب الناصري في كفر الدوار، ويشير الى أن الحدث العمالي وضع التنظيم النقابي أمام تحديات خطيرة،فلم يعد إطاره القانوني السابق، قادرا في مرحلة الخصخصة، على قيادة حركات الاحتجاج السلمية المشروعة للعمال.

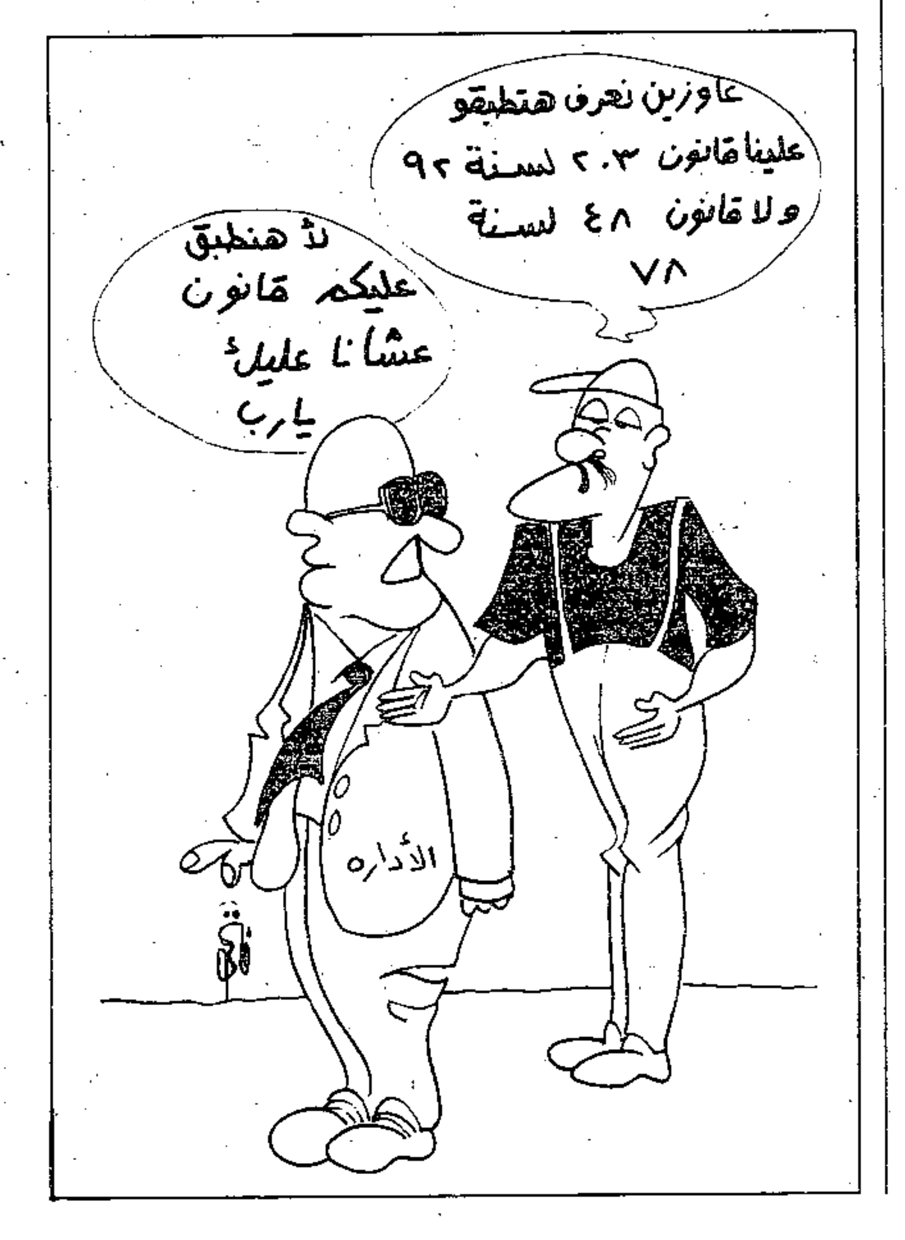
ووفقا لهذه الشهادات، التي تتفق مع وقائع اعتصامات واضرابات في مصانع عديدة أخرى، فإنه يبدو أن الحركة العمالية تشق لنفسها مسارا متعرجا تزاوج فيه بين محاولة التأثير في التنظيم النقابي الراهن، مدعوما بلجان المندوبين، وبين افراز قيادة جديدة من القيادات الطبيعية في المصنع تتولى قيادة حركة الاحتجاج.

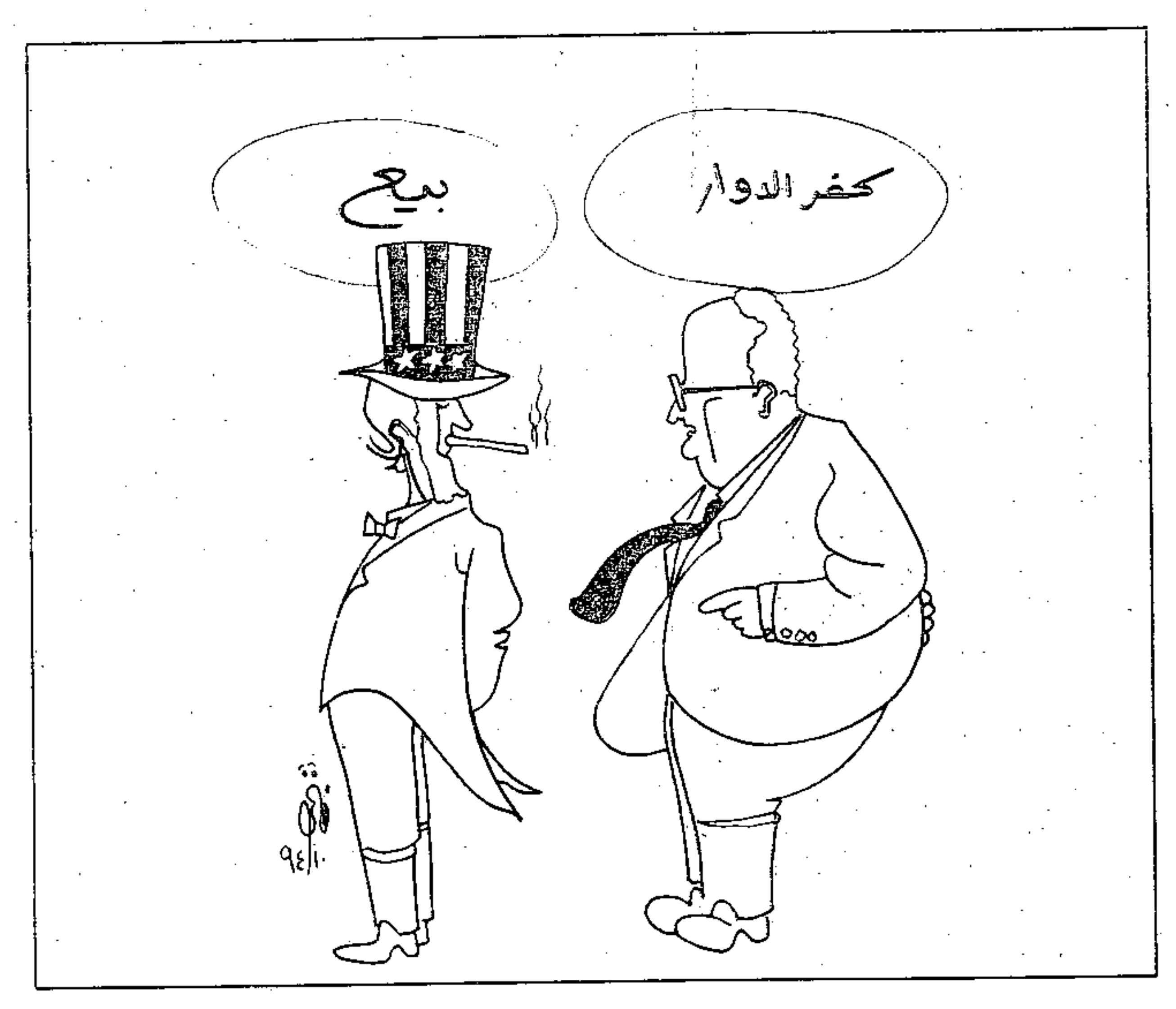
والتحدي الذي كشفت عنه احداث كفر الدوار انه مالم يتم مقرطة (أي ادخال تغيرات ديمقراطية) التنظيم النقابي، فإنه سوف يتوارى ليفسح المجال خلال عملية طويلة نسبيا، لقيادة جديدة. فالتنظيم الذي بدأ ملائما في مرحلة «السلام الاجتماعي» يتعرض لعملية احتواء، في مرحلة التوترات العمالية العنيفة.

حكومة واهالي

واحداث كفر الدوار كانت ايضا بؤرة ضوء على السياسة الامنية في مواجهة حركة احتجاج عمالي لم ترفع سلاحا، ولم تطلق رصاصة، بل صيحة احتجاج، ولم تتلف منشأة، ولم ترفع حتى هتافات ضد الحكومة، بل تقدمت بعريضة مظالم.

ردا على هذه الحركة اقتحمت المصفحات شوارع المساكن بهدف منع اهالي المعتصمين من تقديم امدادات الغذاء لذويهم من خلال البوابة الوحيدة التي ظلت مفتوحة، او من





خلف اسوار المصنع.. وقبلها بيوم ألقى احد الضباط بطعام الاهالى فى الترعة بعد ان داسه بالاقدام، **وقامت المصفحات باطلاق الرصاص الحى على المواطنين والاطفال فى أثنية المدارس**، ومنعت اسعاف المصابين وكان من الواضح أن الهدف هو القيام بعملية ترويع كبرى هدفها اجبار المعتصمين على الخروج من المصنع اما تحت ضغط الجوع، او تحت ضغوط المخاوف على ذويهم من الاهالى بعد سماع اصوات طلقات الرصاص.

كان واضحا أن التدخل الامنى لفض اعتصام سلمى لعمال الغزل ، لابد أن يمتد بلهيبه الى الكتلة السكانية المحيطة بالمصنع مثلما حدث أثناء اعتصام عمال الغزل عام ١٩٨٤.

حق الحياة

فمصنع الغزل، دون باقى مصانع كفر الدوار يتوسط كتلة سكانية تحيط به على شكل مربع ناقص ضلع هو ترعة المحمودية فى الشرق، وفى الغرب سيدى شحاتة، وفى الشمال منطقة الحدائق حيث توجد بها فيلات المديرين وعمارات المساعدين، وفى الجنوب حى المساكن، وامتداده لخارج السور حى الساهرة.

فى هذا القطاع الجنوبى ركز الامن ضربته، تماما مثلما فعل عام ١٩٨٤، فالبوابة الوحيدة التى ظلت مفتوحة لامدادت الغذاء، للمعتصمين كانت بوابة حى المساكن، وكان الطعام يصل عبر البوابة أو من فوق السور.

ومعظم المعتصمين ينتمون الى حى المساكن، فمن كل بيت معتصم، وفى كل بيت فى هذا الحى اثار لسياسة الحرمان، حتى تجار الحى عانوا من سياسة الحرمان، بعد أن اغلق العمال «نوت الشكك» من حوافز ايام ١٦و٢٠ و٢٢ ، وشدوا الاحزمة على البطون.

وهكذا اصبح قدر حى المساكن أن يكون ساحة كل معركة تدور تستهدف ارهاب العمال، وأن يقدم هو بالذات فى هذه المعركة شهداء.

والسؤال الذى تثيرة حملة الامن جاء على لسان امهات شهداء الانتفاضة: عندما **يقتل ارهابى أحد الضباط تقوم الدنيا ولاتقعد فمن يقتص لى من الارهابى الذى قتل ابنى؟**

وفى الحقيقة فان التدخل الامنى بالرصاص الحى قد نسف الخط الفاصل ، بين مواجهة حركات الاحتجاج السلمى وبين مواجهة الارهاب، رغم كل ما يمكن أن يثار من ملاحظات حول المواجهة الامنية للارهاب.

حق الاضراب

ولقد أصبح حق الاعتصام والاضراب حقا قانونيا للطبقة العاملة فى مصر، لايستدعى تدخلا من أى جهة أمنية وذلك بعد توقيع الحكومة المصرية على الاتفاقية الدولية للحقوق الاقتصادية والاجتماعية واصبحت جزءا من القانون المصرى، كما أكد الحكم التاريخى الذى اصدرته محكمة أمن الدولة العليا طوارئ فى قضية اضراب سائقى القطارات فى السكة الحديد.

لقد أكد حيثيات الحكم أن القاضى الوطنى لايطبق المعاهدة تأسيسا على أن دولته قد التزمت دوليا بتطبيقها، بل باعتبارها جزءا من قوانين الدولة الداخلية، إذ استوفت الشروط اللازمة.

واستشهدت المحكمة بالمادة ١٥١ من الدستور التى تؤكد على أن رئيس الجمهورية يبرم المعاهدات، ويبلغها لمجلس الشعب، وتكون لها قوة القانون، متى تم ابرامها والتصديق عليها ونشرها وفقا للاوضاع المقررة.

وذكرت حيثيات الحكم انه بعد الاطلاع على قرار رئيس الجمهورية رقم ٥٣٧ لسنه ١٩٨١ بشأن الموافقة على المعاهدة والمنشور فى العدد ١٤ من الجريدة الرسمية فى ٨ ابريل سنة ١٩٨٢ تبين موافقة مجلس الشعب على المعاهدة التى تتعلق بحقوق السيادة بما تتضمنه من قيود على سلطات الدولة تتمثل فى وجوب احترام الحقوق التى أقرتها واعترفت بها الاتفاقية الدولية الصادرة فى نطاق الامم المتحدة، وبالتطبيق لميثاقها.

ووفقا للاصول الدستورية فإن المعاهدة الدولية تعد قانونا من قوانين الدولة ينبغى على القضاء الوطنى تطبيقها باعتبارها كذلك، ومادامت لاحقه لقانون العقوبات، فإنه يتعين اعتبار المادة ١٢٤ (من قانون العقوبات التى تؤثم حق الاضراب) قد الغيت ضمنا بالمادة الثانية فقرة (د) من الاتفاقية المشار اليها عملا بنص المادة الثانية من القانون المدنى التى تنص على:

لايجوز الغاء نص تشريعى الابتشريع لاحق على نص هذاالالغاء، اويشتمل يتعارض مع نص التشريع القديم، او ينظم من جديد الموضوع الذى سبق ان قرر قواعده ذلك التشريع.

وخلصت المحكمة الى القول بان تهمه الامتناع عن العمل التى وجهتها النيابة الى سائقى القطارات قد بنيت على غير اساس من القانون، لانه متى قرر الشارع حقا، اقتضى ذلك حتما اباحة الوسيلة الى استعماله، أى اباحة الافعال التى تستهدف الاستعمال المشروع للحق، وكذلك النتائج المترتبة على هذا الاستعمال.

واضافت حيثيات الحكم انه متى كان ذلك، وكان حق الاضراب مباحا بمقتضى الاتفاقية الدولية، فإن ماحدث نتيجة ذلك الاضراب لايمكن ان يقع تحت طائلة قانون العقوبات.

وانهت المحكمة حكمها التاريخى بالقول **«والمحكمة وقد استقر فى وجدانها ان ذلك الاضراب ماكان يحدث من تلك الفئة من العمال، وقد كانت مثالا للالتزام والتضحية، الا عندما احست بالتفرقة فى المعاملة، والمعاناة الحقيقية للحصول على ضروريات الحياة لتهيب بالدولة العمل على سرعة رفع المعاناة عن كاهل فئات الشعب المختلفة حتى لايستفحل الداء ويعز الدواء.»**

وقد أيدت المحكمة الادارية التى نظرت قضية اضراب عمال السجاد فى المحلة الكبرى نفس هذا الحكم، وبنفس الحيثيات، وقضت



ببراءة جميع العمال طبقا للقانون ترانين الدولة

رغم ذلك اقتحمت المصفحات حى المساكن، بهدف نض الاعتصام العمالى، واطلقت الرصاص الحى على المواطنين وطاردت الاهالى الذين اندفعوا الى المدارس للأفلات باطفالهم من الرصاصات الطائشة، ظن ردم بانها مظاهرة، فقتل فى افنية المدارس او فى الطريق اليها ٦ من المواطنين واصيب عشرات

بينما اندفع العمال لاطفاء القنابل المسيلة للدموع عندما سقطت على بالات البوليستير فى شارع العادم لانقاذ المدينة من احتمالات الحريق.

صحافة الحكومة

واخيرا فان انتفاضة عمال كفر الدوار كشفت زيف «الطابع القومي» **للصحف الحكومية** التى شغلت الناس باحداث هبوط نادى الاوليمبى وافردت له الصفحات دون أن تتكرم على القارئ بغير بضعة سطور فى صفحة الوفيات والحوادث..

واذا كانت صحافة المعارضة قد كسرت حاجز التعتيم الاعلامى، فان «صحافة التعليمات» قد سقطت فى الاختبار الجديد.

والملفت للنظر ايضا أن مؤسسات المجتمع المدنى التى تقيم الدنيا ولاتقعدها عند اضطهاد مفكر او اديب لم تعط للانتهاكات فى كفر الدوار سواء تعلق الامر بحق العمل او شروطه او حتى حق الحياة، ماتستحقه من تركيز.

واحداث كفر الدوار تكشف ايضا عن نقص الادبيات العمالية ومؤسسات الدفاع عن الحقوق الاقتصادية للعمال. وهى كلها مهمات سوف تعرف الطبقة العاملة طريقها الى حلها فى غمار عملية الميلاد الجديد.

انتصار

وقد حقق عمال كفر الدوار انتصارا، ووضعوا احجارا فى وجه اندفاع قطار الخصخصة كلما تعلق الامر بحق العمال أو أجور العمال..

وانتفاضة كفر الدوار حلقة فى نضال الطبقة العاملة المصرية، فى الدفاع عن حقوقها، من خلال مطالب وتكتيكات واشكال كفاح وقيادات جديدة تميز خصائص المرحلة الانتقالية للبيع دفاعا عن حق العمل والاجر العادل، وفى سبيل مجتمع يوفر الحريات والعدل لكل الكادحين.

من عهود فاروق ونجيب وناصر و السادات الى عهد مبارك و من يليه: كفر الدوار مدينة تواصل الغضب



سين سؤال: ماالذى يجعل شركة مصر للغزل والنسيج بكفر الدوار، وهى أكبر الشركات المصرية فى هذاالحقل، وسرة المدينة الفقيرةفى نفس الوقت، تستمر فى اضراباتها واحتجاجاتها، من عهود فاروق (تأسست الشركة عام ١٩٣٨) الى نجيب الى ناصر الى السادات الى مبارك الى..

قبل الجيم جواب، هناك عدة اشارات هامة:

* تميز عهد انور السادات بانه اقل العهود من حيث حجم وقوة الاحتجاجات التى صدرت عن الشركة بل يكاد الأمر ينحصر فى احتجاج (اضراب جزئى) واحد، وقع بأحد الأقسام فى شركة مصر، عام ١٩٧٦، واشتهر باسم اضراب الزير .ذلك لان المضربين قدموا عدة مطالب، وجاء المدير ليناقشهم، ثم انصرف غاضبا، نحطم فى طريق خروجه، الزير الذى كانوايشربون منه، حينئذ اصر العمال على مطلب شراء زير بديل، مع تنفيذ بقية مطالبهم! القصد. أن السبب الرئيسى لذلك هو أن كفر الدوار كانت لاتزال ريفا با المعنى المحدد، اذ كان سكان الريف وقتها يشكلون ٨٧٪ من السكان والحضر ١٣٪ (الان ٦٥٪ و٣٥٪) وقد هيأ السفر للعراق، لآلاف الأسر بهذا الريف، موارد لابأس بها، اضافة الى أن المؤثرات الانفتاحية، بمافيها من افقار وتمايز مفزع، لاتنتج اثرها فى الريف بنفس السرعة فى المدينة. حيث يظل الريفيون يشدون الحزام. وينظرون الى الأمر، وكأنه مصيبة وستزحل، الى أن تصبح العملية «ماشفرة» (أى على حدالشفرة) فيحدث الانفجار.

* تكاد كفر الدوار تنفرد بالوضع الذى توجد فيه شركة بهذا الحجم داخل الكتلة السكنية، وأكثر من ذلك فأنها هى قطب هذه الكتلة، حيث تنتشر مساكن العاملين واهلهم، واصحاب المعاشات منها، داير مايدور حول الشركة من ثلاث جهات .لهذا فان كل احتجاج فى شركة مصر وصف بانه «احداث كفر الدوار» لأنه لا انفصام بين الاثنين، الى جانب ان كل إضراب كبير، شارك فيه الاهالى، سواء للتضامن، أو بسبب استفزاز البوليس غالبا، او للتعبير عن الهم الجاثم.

* من اللافت للنظر ان الاضرابات المبكرة للشركة اعوام ٤٢ و٤٥ و٤٨ كان مطلبها الرئيسى اقامة نقابة، ونقابة حرة. أى ليست تجميعة من الموظفين والمديرين ومسئولى الامن، كما حدث . وقد يفسر هذا الوعى المبكر، لدى عمال هم فلاحون معدمون اصلا، وابا عن جد، حالة المخاض المصرى وقتها والمصنع انشئ ليصدر اغلب انتاجه من الغزل الرفيع والمنسوجات.. ومن هنا فيما يظهر،كانت سلعه، وعوائدها التى يقبض منها العمال حوافزهم وارباحهم واجورهم او جزء منها، ناقلة للوعى، وللحس بمايجرى فى العالم. غير انه تخلل ذلك اضرابات مطلبية متعددة، وفى احدى المرات هددت النقابة باضراب- مالم تشتر الشركة سيارة لنقل الموتى إلى قراهم.- وحين قام العمال بجمع اموال لشراء السيارة، خافت الشركة من اثر هذا الفعل التضامنى وبادرت بشرائها.

* إن الفترة الناصرية شهدت أضرابات متعددة بالشركة.. مبعث ذلك أن احداث خميس والبقرى عام ١٩٥٢ ، والتى كان العمال يهتفون فيها باسم الثورة ، ثم فوجئوا بقدر السلاح، تركت بصماتها، الى جانب تطور الحركة النقابية بالشركة، الى حد أن النقابة كانت الفاعل الرئيسى فى تأسيس اتحاد عمال نقابات النسيج. ومع ماتقدم أيضا فان الاستجابات التى لقيتها مطالب العمال،



شجعت على المضى السلمى فى الطريق، وهنا واتحة لافتة رواها الحاج متولى شعراوى رئيس النقابة الاسبق، وصاحب التاريخ المعروف قال: إنه اثناء تفاوضه فى ١٩٥٦ مع **حسين الشافعى** (وزير الشئون الاجتماعية وقتها) على مطالب للعمال، حدث أن اربد وجهه فجأة وتغير، وقال لممثلى العمال اخبرنى عبدالناصر توا أن اذاعة اسرائيل اذاعت خبر اضراب عمال كفر الدوار.. وبما أن الأمر كذلك فلا تلبية لما تطالبون به.

الآن.. وعلى معبر من النضال الشريف.. والدم.. الكفاح أصبح فى كفر الدوار مقر لمنظمة العفو الدولية. مثلما أصبح بامكانها أن تبلغ رسالتها لكل العالم، دون أن يعنى ذلك شيئا فيما يختص بـ «**أمن الوطن**» . الذى يحافظ العمال عليه، بقدر مايحرصون على آلات ومنشآت مصنعهم كما أن فى كفر الدوار نحو ٢٠ محاميا (من ٥٠٠ محام) كانوا عمالا فى الاصل، وذاكروا . ويتمتع أغلبهم بحس مهنى وتضامنى رفيع وفطرة لازالت قادرة على أن تكره البوليس والاقسام والظلم عما.

الجواب.. والختم

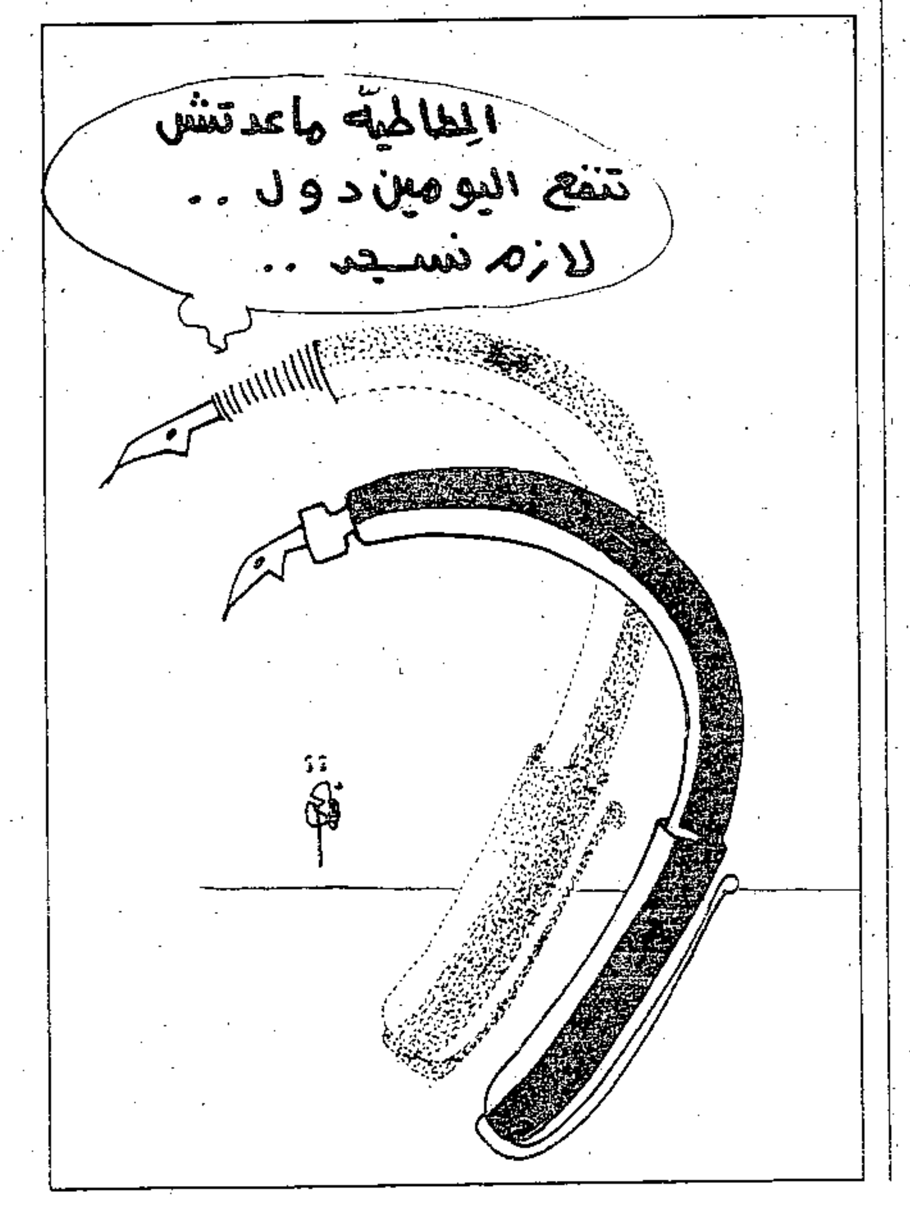
أما عن المدينة فاليك التالى:

* كانت كفر الدوار، دورا لفلاح فقير، يقبع بين القرى، حين انشئت بها محطة السكة الحديد، مع مد خط القاهرة- الاسكندرية-. قاتلت القرى مع عرابى ضد الانجليز، والحقوا بهم سبع هزائم فى أقل من شهرين (يوليو واغسطس ١٨٨٢). ومن هذه القرى، ماأصبح الآن فى قلب المدينة، مثل عزبة خورشيد وكنج عثمان.

هذه المدينة.. الآن، ليس بهـا- كـمـا رأيت- سوى مكتب استيراد وتصدير واحد، وصاحبه د. عبد العزيز بسيوني أمين الحزب الوطني وفي نفس الوقت صاحب شركة سياحة (لايت سعار) ومدرسة خاصة ومحلات ذهب وكان الأمين السابق د. محمد زكي مالك، رئيس لجنة الصناعة بمجلس الشورى الآن ورئيس شركة الحرير الصناعي بكفر الدوار. والطريف أن حزب الوفد، الذي يرأس لجانه عادة محامون أو أصحاب اراضي وعقارات، أو رجال بزنس، يرأس لجنته بكفر الدوار عقيد سابق بالقوات المسلحة، وصاحب ورشة خراطة. أي أن الحزب لم يستطع أن يتجاهل الواقع العمالي الصرف للمدينة. ورغم أنه لا مقرات لحزبي العمل أو الاحرار، الا أن لأنصار السنة والاخوان نشاطا ملحوظا ،يتجلى في يفط الحوائط بالذات (مثل الحجاب يحمي من الرذيلة..) . ومما يسر للمد الاعلامي الاخواني، انه يوجد بكفر الدوار ٣٠ ألف عامل قطاع عام على المعاش، منهم نحو عشرين ألفا من شركة مصر، وهم يقيمون في مساكن الشركة المحيطة. مما ساعد على التساهل مع الدعاية الدياجوجية غير أن عمال شركة مصر اسقطوا في آخر دورة نقابية لسعة اخوانجية كاملة (١٨ مرشحا). بل وفي حركة ذات دلالة فان العمال في اعتصام او ٢ أكتوبر الأخير، لم يقوموا باي اعمال عنف شخصي ،سوى التهديد بنتف لحية نائب لرئيس مجلس الادارة، كان كرباجا عليهم.

ويكمل صورة الواقع السياسي الثقافي أيضا، انه لامجال لعمل المشمرذين في كفر الدوار، اللهم الا باستثناء كتبة الاحجبة الذين يكتبون للأطفال بالهدى ليكفوا عن البكاء. وتحتفل المدينة بكاملها لمدة اسبوع بعيد مارجرجس، الذي تسير من أجلة المواصلات ليلا، ويعمل قطار خاص لنقل الزائرين. كما تحتفل، مع اجوارها بمولد أبوحصيرة اليهودي في دميتوه،، في دلالة عبقرية على أن الدين للديان ولو كسر الجهاد والاخوان. يذكر هنا أن بعض مؤسسي جماعة التكفير من كفر الدوار، غير أن الجماعة لاوجود لها هناك.

وفي انتخابات مجلس الشعب السابقة اعطى العمال اصواتهم لمتعهد جرائد يدعى محمود داود ،لالشئ ، الا كرها في علي ضفدع رئيس النقابة السابق، والذي كان مرشحا . ويبلغ متوسط عدد سكان الحجرة الواحدة في الساهرة (ملاصقة لمساكن العمال الملاصقة للمصنع) ٥ أفراد. وهذا الحي هو الذي ضرب الأمن علقة ساخنة في الحواري في أحداث ١٩٨٤، وشارك اهله بالتضامن في اعتصام ١٩٩٤ ، ومات منهم عامل عمره ٢٣ سنة، كان يعمل في التوربينه (عبد المنعم البلطي) وأراد الذهاب الى العمل لاداء واجبه لان التوربينه لا تتوقف فلم يصل بسبب الرصاص. وحين زرت والد العامل بالشركة. كانت نظرات اخي المتوفى ، أكثر النظرات التي تطلب الثأر حدة، في المدينة كلها، وأكثرها هدوءا في ذات الوقت. كان يسأل هل صحيح ان اسم الضابط المجرم قاتل العمال «فلان» سيد أحمد، وانه من فرق الامن بـ... وكان لاعبا سابقا بالأوليمبي؟ نظرة الثأر هذه لاتطلب سوى المحاكمة العادلة للمجرم. فهذه روح العمال وفي الساهرة، فانه ليست صدفة أن اشهر مجرم هو... الشرقاوي المزور الذي يزور الشيكات والاحكام وشهادات الخدمة ومواثيق الزواج والملكية، وهو مزور يسجن الأمن بجهوده احيانا كما قيل. اشهر مجرم اذن ليس لصا لأنه لاشئ يسرق هنالك. واشهر حرامي «يسمى ايربال» بضاعته الهدوم المنشورة في البلكونات، وبعض الاجهزة أن امكن. ان عدد البطاقات غير المدعومة في المدينة من مجموع ٥٢ الف بطاقة وأقل من المدعومة ٥٥٦ بطاقة بكثير. عدد السيارات الملاكي والطريف أن سعر كوب عصير الموز باللبن بكفر الدوار ٥٠



قرشا.. وكمان مين يشرب؟ وتكاد تكون فاكهة المدينة هي «الهريسة» (الها مصنع) التي ينتشر باعتها، بصوانيهم، وعلى كل صينية ٤ نحلات، وكأنهم ديكور. ومياه كفر الدوار لاتطلع العالي ولا الواطي ولابد من تركيب مواتير حتى للدور الأول. وهناك ٢٠ قرية محرومة من المياه، وتصل تكلفة مد المياه إلى ٣٠٠ جنيه وهي كلفة باهظة وفي فاتورة المياه ثمة بند عن الصرف الصحي مع انه لا صرف ولاصحي هناك. وبامكانك أن تشم رائحة ترع مثل العكريشة والسوانية وكوسليم من على بعدكيلو. وقال المستشار الطبي لشركة مصر ان ٢٥-٣٠ ألف عامل يترددون على المستشفى شهريا. وأكد أنه لم توجد حالات تمارض الا فيما ندر طوال ثلاثين عاما، بعيدا عن كلام المستشار فان سوء الخدمة الطبية كان احد دوافع الغضب وايضا اذا شئتم صراحة، فان بعض العمال، كان يشكو امراضا تخص ابناءهم وزوجاتهم، لانهم لايجدون ثمن الدواء الذي يشترونه لهم فيسعون الى صرفها من المستشفى، وتشهد محكمة جنح كفر الدوار من ٣٠-٤٠ قضية شيك بدون رصيد في كل جلسة، وأغلبها ضد عمال، لانه يشيع هنا شراء سلع معمرة بالقسط، وكتابة شيكات لصاحب المحل، يعقب ذلك بيع السلع لقضاء حاجة ملحة، ثم عجز عن السداد. وفي كفر الدوار لاسمك الا السمك الروسي للاغلبية الساحقة. ولاشراء الا بالشكك بعديوم ٢٠. والمثير للدهشة أن أعلى فيزيتة لطبيب هي لاستاذ امراض نفسية وعصبية اسمه د. زهير. مما يعني وجود طلب. والمعروف أن مثل تلك التخصصات لاتجد زبائنا في القرى والمراكز.

غموض ديموجرافي

وفي كفر الدوار شعور غامض، فيه بذرة وعي بالتاريخ الديموجرافي العجيب لمصر، بان البلد مصيرها الى الانكماش السكاني، بسبب الفقر، مثلما كان يحدث طوال تاريخ الذل والفقر في عموم مصر. من أجل هذا فان العامل محمد محروس الذي راح شهيدا على باب بيته، برصاص بندقية «طلعت من حتة مدورة في عربية الشرطة» على حد تعبير امه المذهولة، حيث مات أمامها.. هذا العامل الذي مات يوم عيد ميلاده الأربعين لم يكن يحرص على شئ، قدر حرصه على رى صبار مقابر الساهرة كل جمعة. ومن المفارقات المذهلة أيضا، أن والدة الطفل **محمد عزت** الذي توفي في الاحداث، كانت قد استأصلت الرحم، قبل موت ابنها باسبوع (لم يبق لديها سوى طفل وحيد تبناه خالد محيي الدين تعليميا). أن الروح السابقة، فيما يظهر لي كانت وراء الاستيعاب غير المسبوق، الذي اظهره العامل التباع خرج وردة في تحقيقات النيابة، حين قال أن العالم دي، رئيس الشركة، ستجيش الا بكدة! (أي بالاعتصام).. أن للمدينة ذاكرة عجيبة. هي تذكر فحسب **خميس والبقري**، ولكن أيضا، الجزار، سفاح الادارة عام ١٩٥٢، ومثله الشطلاوي مدير الشئون الادارية المبعد الآن ويوم ٦٧/٢/٢٨ يوم ماسشي عيسى شاهين من الشركة. كان يوم اربعاء. كانت أيامه سودة. والمسيحي الذي مات على كوبري علوي، برصاصة طائشة اثناء أحداث ١٩٨٤..و...و...و.. حاجات معروفة بتفصيل مثير، للمرحش والحلو. ومع ذلك فان المدينة تنسى احزانها بسرعة، لانها تقول في كل مرة أنه والحمد لله انها جت على حد كده.. محدش يعرف اللي جاي ايه. خوف من القادم في جو لا أمل فيه ولا معاهد ولاكليات ولاواحد طلع من اوائل الثانوية، ولا حنفية صدقة تعمل الآن بالأرياف. الهامشيون والسريحة والحرفيون، الذين يعيشون عالة على فائض الخبز من موظفي الحكومة (٥ر١٢ الف موظف) والعمال (٤٥ الف بالعمل و٣٠ ألف معاشات)، امتصت عانيتهم حالة القحط التي يعانيها اصحاب الاجور. فمثلا تم توقيع حوالي ٦ آلاف جزاء على عمال شركة مصر في المدة من ٩٣/٦/١ حتى ١٩٩٣/١٠/٣٠، الى جانب ان متوسطات أجور عمال الشركة لاتزيد عن ٢٥٠٠ جنيه في السنة.

ان العامل قد يعيش ١٢ سنة دون ان يبيض شقته بالجير مرة. هكذا قال زميل حزبي يعمل بالقطاع الاستثماري بعدان دهن شقته ثلاث مرات، وبقيت شقة جاره العامل بشركة مصر على حالها، وفي مثل تلك الاجواء لايمكن ان تترك اخيك.. لانك ستتحمل لحسه في النهاية. لذا فان وكيل النيابة عندما سأل **محمد بسيوني نوار**، عن اشتراكه في ترديد الهتاف ضد رئيس الشركة مع العمال لم يتردد في القول: اصلهم ظلموا اخويا يابيه ومرة وقفوه شهرين

الثالث والثابت

أننا الآن أمام غضبة الجيل الثالث من العاملين في الشركة، **وهؤلاء قلت الى ابعد** حد المؤثرات الريفية **فيهم والتي كانت تقوده** الى سرعة الانطفاء. نحن بازاء **جيل** لامفر أمامه من الوعي والتحدي. الفارق يكمن بين ما نطقت به أم محمد محروس، وكان زوجها عاملا هو الآخر بالشركة اذ تمنت أن «ينسم الضابط اللي قتل ابنها، هو وعياله» (هي سيدة ملآى بالحنان والطيبة مع كل هذا..) وبين نظرة التحدي لدى شقيق العامل التي أشرت اليها.

ثم تمضي الحياة.

قد تفتت الحكومة عملية تنفيذ ٢٠٣ لتمريره، وقد يتوه العمال عن الهدف فيظنوا أن مطالبهم هي مجرد المساواة بعمال صباغي البيضا أو الكيماويات في نفس المدينة.

قد يأتي رئيس مجلس ادارة يلعب بالبيضة والحجر والبالات فيربح العمال ظاهريا، مثلما كان يفعل **محمود** ابراهيم رئيس شركة مصر السابق وصنيعة العهد الساداتي. هو رئيس الشركة القابضة للغزل والنسيج. ومع هذا فشركة مصر لاتبقي وهو يخشى ألا ينجح في البرلمان في الدورة القادمة بعد الشركة

بالتغاضي عن الغياب والتقصير وادعاءات المرض.. وقد ينخدع بعض العمال ثانية فيهتفون باسم رئيس سابق للشركة، بقولهم «بتاع نسران بس عايزينه»! قد يفلح الأزرقجية من طبقة البيروقراط والمديرين في جر العمال الى غير ملعبهم. قد ينتخب العمال لجنة نقابية وأخرى ثالثة، يكشفون أن كل من انتخبوهم فشنك أو هبيشه. قد يزيد عدد المشتركين في مشروع التكافل التأميني عن ٥ آلاف عامل، حيث عجز العشرون الفا الباقون عن الاشتراك حاليا. قد يصحو أمن الدولة الذي أحتل بعد صدور القانون ٢٠٣ فيلا من فيلات الادارة بالشركة، قريبة من كوبري «خيث تم اعتقال خميس والبقري.. قد يستيقظ الأمن بعد أن دهمه الاعتصام فيحصى على العمال كل شاردة وباردة. قد لايكون الضباط قد رمزاز كانب العيش التي أراد الاهالي ادخالها الى المعتصمين من وراء الاسوار، في ترعة المجاري، كما قيل. لكن الاهالي لن ينسوا وحشية الأمن في مواجهة لحظة التضامن هذه. قد. وقد. وقد. لكن بيقين لن يستطيع أحد خصخصة هذه الشركة بالذات ولسبب أساسي، هو أن العمال في الجيل الثالث يعرفون انها ميراثهم أبا عن جد بالمعنى الحرفي الجميل لهذه الكلمة. وبيقين فان حركةالعصيان القادمةستكون من نوع **جديد.. فالقلة المليانة متبقللش» وقلة كفر الدوار لازالت ظمآى.**

.. وتمضي الحياة

وقد يشرق فجرها قبل الجيل الرابع.

عن اسرائيل وقائمة شندلر .. و الشعور بالعار

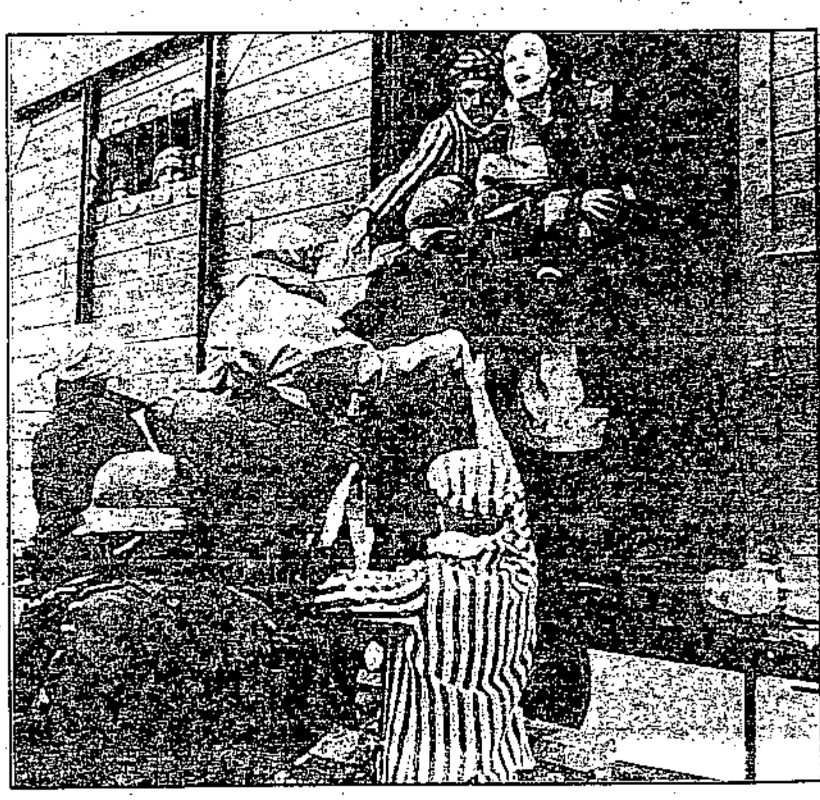
د. جلال أمين

سمعت كثيرا عن فيلم «قائمة شندلر» قبل أن أراه. سمعت أنه، بصرف النظر عن موضوعه (وهو العذاب الذي تعرض له ملايين اليهود تحت حكم النازين في سنوات الحرب العالمية الثانية) رائع جدا من الناحية الفنية، وأن مخرجه (ستيفن سبيلبرج)، الذي أخرج بعض الروائع من قبل، قد تفوق على نفسه في هذا الفيلم. وسمعت عن عدد جوائز الأوسكار التي نالها، والشهرة الواسعة التي أحرزها، وعن ضرورة مشاهدته، مهما كانت ميول المرء السياسة أو مشاعره نحو اليهود أو إسرائيل. كل هذا سمعته أو قرأته وأنا في مصر، وهي بلد قرر فيها الرقيب منع عرض الفيلم، ومن ثم لم يكن قد رآه إلاعدد محدود من الناس، فما بالك بما كتب عنه خارج مصر؟.

ثم إن منع الرقيب لعرضه في مصر قد تعرض أيضا للكثيرمن القيل والقال، معظمه، أو كله، ينقد قرار الرقيب وينحو عليه باللائمة لأنه حرم الجمهور المصري من مشاهدة هذا العمل الفني العظيم قال البعض «إن هذا تدخل غير مشروع في حرية الناس ، دع الناس يشاهدون الفيلم ليقرروا هم مايشاءون. ولماذا يفرض الرقيب نفسه وصيا على الناس؟ وما الضرر في أن يتعرض الناس للرأي ونقيضه ولماذا نعامل كالأطفال المحتاجين للحماية ولمن يقرر مايصلح لنا ومالايصلح؟».

وثار أحد الكتاب ضد الرقيب لأنه عرضنا ، نحن المصريين، للسخرية الشديدة من جانب مجلة أمريكية شهيرة هي مجلة **التايم "time"** إذ نشرت مقالا بعنوان **«الشعب لايحتمل»!** تسخر فيه من الشعب المصري، وهو الذي تصفه بأنه «لايحتمل». ذلك أن الرقب المصري، فيما يقال، قد استخدم هذه العبارة وهو بصدد تبرير قرار المنع ، فقال إن الشعب المصري لايحتمل مناظر القتل والتعذيب القاسية التي يمتلئ بها الفيلم، فأرادمنعه لتجنيب الشعب المصري رؤية هذه المناظر الفظيعة. فالتقطت مجلة التايم هذا التبرير وأشبعت الشعب المصري سخرية لأنه شعب رقيق ناعم، لايستطيع أن يتحمل رؤية مناظر التعذيب والقتل، حتى لو كانت تصور أحداثا حدثت بالفعل، يعاني منها أشخاص حقيقيون. قال الكاتب المصري لائما الرقيب: إن كل ما كان يحتاج اليه لتبرير منع الفيلم هو الحجة السياسية، وهي أن الفيلم ينتصر لقضية اليهود بترويجه لما أصابهم على يد النازين من تعذيب وإبادة، مما يتضمن في ثناياه دفاعا عن دولة إسرائيل. وماكان الرقيب بحاجة الى اللجوء الى هذه الحجة السخيفة: حجة أن الشعب المصري لايتحمل ، التي جلبت لنا كل هذه السخرية من المجلة الأمريكية.

ضاعف هذا من تشوقي الى مشاهدة الفيلم، رغم أني سئمت سأما شديدا من كل ذلك الترويج لمأساة اليهود على يد النازين. كنت قد ضقت ذرعا بذلك لأكثر من سبب: **لاصرار اليهود الغريب على الاينسى الناس ماحدث، وإلحاحهم عليه بمناسبة ودون مناسبة، لخدمة أغراضهم السياسية الراهنة بالطبع،** وهي لاتقل إجراما في رأيي عما جرى لهم. ومن ثم فاستخدامهم لجريمة قديمة لتبرير جريمة حالية ومازالت مستمرة ، ارتكبوهاهم، كان دائما ولايزال يثير في الضيق والغضب. أضف الى ذلك نجاحهم الهائل في إشعار الأوربيين والغرب عموما



بالذنب لما ارتكبه ضدهم جزء صغير جدا من الشعب الألماني، وإصرارهم على تعميق هذا الشعور بالذنب، وعلى الحصول على ثمن له كل سنة أو بضع سنوات، وكأنه موضوع لايمكن أن ينتهي وملف لايمكن أن يغلق. كل هذا كان ولايزال يثير غضبي لأن الأوربيين والغرب عموما قد ارتكبوا ولا زالوا يرتكبون جرائم كثيرة، بعضها لايقل بشاعة عما فعلة النازيون باليهود، وبعضها، أرتكب لنصرة اليهود أنفسهم ضد غيرهم. فلماذا ينسى كل هذا ولاينسى ماارتكب ضد اليهود؟ لماذا **يمكن أن ينسى تدريجيا مافعله الأمريكيون في فيتنام، أو ضد شعوب أمريكا اللاتينية أو القائهم قنبلتهم الذريه في هيروشيما التي مازال ضحاياها يعانون من آثارها حتى اليوم؟** ومافعله ستالين ضد شعبه، ومافعله الفرنسيون في شمال أفريقيا والهند الصينية، ومافعله الايطاليون في ليبيا. لماذا ينسى هذا كله ولاينسى مافعلة النازيون ضد اليهود؟.

زد على ذلك مايفعله اليهود في أي مكان في العالم إذا تجرأ باحث أو أستاذ أو مؤرخ على التعبير عن شكه في حجم المأساة التي يتعرض لها اليهود تحت حكم النازيين، من تعريض هؤلاء المتشككين للتشريد والفصل والسجن، وابتداعهم جريمة جديدة تنسب الى كل من يحاول التعبير عن مجرد الشك فيما إذا كان عدد اليهود الذين تعرضوا للتعذيب هو بالفعل بضعة ملايين، وعما إذا كانوا حقا قد تعرضوا للقتل الجماعي بالغازات السامة.. الخ.

كل هذا كان يثير غضبي وسأمي. ومع ذلك أردت أن أشاهد الفيلم رغم يقيني أن الغرض منه هو نفس الغرض المألوف: الترويج لنفس الفكرة، وترسيخ جديد لنفس عقدة الذنب لدى الغرب، من أجل خدمة دولة اسرائيل، والتغطية على ماتفعله هذه الدولة ضد الفلسطينيين، وإصرارها على الامتناع عن إعطائهم أبسط الحقوق والتنازل لهم عن أي شئ، كل هذا لابد أن يكون هو الغرض من الفيلم، وإن كان قد قام به الآن فنان أكثر مهارة من غيره، وأنفقت عليه أموال أكثر مما أنفق على أفلام أخرى سابقة.

شاهدت الفيلم فوجدته، من الناحية السياسية، كما توقعت بالضبط: ترسيخ لعقدة الذنب ودعاية لاسرائيل. ولكني صرفت النظر عن التفكير في ذلك لأنه أمر مفروغ منه ولاجدال فيه. وانما الذي لفت نظري



على وجه الخصوص تلك القسوة والصراحة البالغة في في تصوير مناظر القتل والتعذيب. المخرج يتفنن في أن يعرض علينا مناظر لم نشاهد مثلها من قبل: كيف ينفجر الدم بالضبط من رأس القتيل، وكيف تجرى تعرية النساء، قبل حشرهن عرايا في غرف القتل بالغازات السامة، وكيف يجرى بالضبط تعذيب الأطفال الصغار، وكيف يقف الأطفال في مياه المجاري أياما ظنا منهم أن هذا سيحميهم من الرصاص.. الخ كل هذا يعرض علينا ببطء شديد حتى لا تفوتنا أي تفاصيل دقيقة لما حدث.

عندما ظهرت بعض هذه المناظر، وجدت زوجتي تغطى عينيها بيديها، وفي بعضها وجدت نفسي أغلق عيني حتى تنقضي



سبيلبرج

عملية معينة من عمليات القتل أو التعذيب أي أنني وجدت أني أيضا، أنا وزوجتي، «لانتحمل».

فلماذا تسخر مجلة التايم الأمريكية مناو من الشعب المصري عامة؟

سألت نفسي من جديد، وكنت قد تساءلت نفس التساؤل عندما قرأت عما كتبته مجلة التايم عن الشعب المصري: ماالعيب بالضبط، في أن يكون شعب من الشعوب غير قادر على تحمل مثل هذه المناظر، أم أن العكس بالضبط هو الصحيح، أي أنه كلما زادت قدرة شعب من الشعوب على تحمل رؤية هذه المناظر الفظيعة، من إسالة الدماء الى التعذيب بهذه الصورة، كلما دل ذلك على قسوة هذا الشعب وفظاظته أو بلادة حسه؟ والى أي مدى يمكن أن نرجو للشعب المصري مثلا أن يتحول من شعب «لايتحمل» مثل هذه المناظر الى شعب قادر على عملها؟ هاهو ذا مثل جديد على شعورنا بالعار إزاء الغرب، دون أي مبرر، حيث نرى في محاسننا نقصا، وفي نقائصهم محاسن، أنا شخصيا أفضل أن يظل الشعب المصري كما هو، في هذه الخصيصة على الأقل، وأن يظل منظر الدم غريبا وشاذا ويصعب تحمله. فإلى أي مدى يمكن أن يكون تعريض مشاهدي الأفلام والتليفزيون في الغرب، باستمرار ودون توقف، لمناظر الدم والعنف، مسئولا عن انتشار الجريمة ومختلف مظاهر القسوة وازديادها في أوربا والولايات المتحدة خلال العقود الأخيرة؟ وماالضرر الذي كان يمكن أن يصيبهم لو أن لديهم رقيبا منع كل هذا بحجة أن الشعب لايتحمل؟.

إسلام لاكهانة..

التداوي بـ«النصوص المقدسة» من مس الشيطان وكل الأمراض.... جذوره وبداياته الأولى

خليل عبد الكريم

لمعرفة ظاهرة اجتماعية يتعين علينا التنقيب عن جذورها العميقة، وفي الآونة الأخيرة انتشرت ظاهرة مس الشيطان أي ركوبه الآدميين والتداوي منه ومن سائر الأمراض حتى العضوية بـ «النصوص المقدسة» ، ومساهمة منا في تشخيص هذه الظاهرة نقول وبالله وحده التوفيق:

يؤكد علماء الانثروبولوجيا أن السحر والدين كانا ممتزجين. وفي كثير من القبائل البدائية في أفريقيا وآسيا وأستراليا تتوحد وظيفة الكاهن والساحر في شخص. ثم تطور الدين والسحر وسار كل في طريقه وانفرد بـ طقوس وشعائر خاصة به، ويرى جيمس فريزر في «الغصن الذهبي»: أن الاختلاط بين السحر والدين مازال حيا وشغالا ولم يختف للآن حتى بين شعوب بلغت مستوى متميزا من الحضارة، وفي معاجم اللغة العربية، السحر هو : كل أمر يخفى سببه ويتخيل على غير حقيقته ويجري مجرى التمويه والخداع.

عند ظهور الاسلام كان السحر معروفا لدى عرب الحجاز وقبائل جزيرة العرب ومتمكنا فيهم مثل باقي المعتقدات التي سنذكرها بعد قليل، فهي كانت منغرسة في نفوسهم وغائرة في أعماق شعورهم ولاشعورهم، وكان هناك من يزاول السحر كوظيفة معترف بها وكان أقرب مايكون شبها بالطبيب، وذلك أن الطب والسحر كانا عندهم سواء، وفي مقدمة الأعمال التي كان يؤديها الساحر إخراج الجن من الممسوسين ومداواة المرضى عموما، ويتم ذلك عن طريق تلاوة بعض الكلمات (تسمى اصطلاحا التميمة)، ثم يخاطب الجن المتلبس بجسم المريض ويستعين أثناء ذلك بحرق خليط من البخور والملح، وقد يقوم بذلك العراف أو الكاهن وفي قصيدة لـ عروة بن حزام:

فقلت لعراف اليمامة داوني: فإنك إن أبرأتني لطبيب

ولكن يمتاز العراف/ الكاهن على الطبيب/ الساحر بأنه يتنبأ بالغيب ويعرف المستور، ومما يؤكد أن للسحر حضورا كثيفا في البيئة العربية سواء في الحجاز أو خارجه عند بدء الدعوة الاسلامية أن كلمة سحر ومشتقاتها مثل سحرة وساحرون وساحران ومسحور.. الخ وردت في القرآن أكثر من ستين مرة (المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم) لمحمد فؤاد عبد الباقي - طبعة دار الشعب.

أما الجن فقد افترش مساحة واسعة للغاية من معتقداتهم ودليلنا أن القرآن ذكر الشيطان ٨٨ مرة وابليس ١١ مرة، وجن ٥٠ مرة، وعفريت مرة واحدة ومارد كذلك، ومريد مرتين، فيصير المجموع ١٥٣ مرة (المرجع السابق). هذا بخلاف اعتقادهم بوجود كائنات أو مخلوقات «متشيطنة» منها الغول وقد أخبرنا الإمام «القزويني» في «عجائب المخلوقات» أن نفرا من الصحابة رأوا الغول منهم عمر بن الخطاب، ومنها السعلاة والدلهاب والمذهب والغدار والشق وهو الذي قتل علقمة بن صفوان بن أمية.

ومن معتقداتهم أن لإبليس خمسة أولاد لكل عمالته (اختصاصه):

ثبر (المصائب)، الأعور (الزنا ومسوط (الكذب) وداسم (البغضاء)، وزلنبور (الخصومة) وأن الحية تعتلي ظهور الخيل وتتزوج من الإنسي وتتلون بما تشاء من ألوان وتركب ماتريد من حيوانات وزواحف تسمى «مطايا الجن» وتقابل الإنس سواء بصورتها الأصلية أم المتشكلة وتحدثهم ويحدثونها وممن لقيتهم الصحابي عبد الله البجلي وكان شاعرا مغلقا فأسمعهم شطرا فطربوا له فعلموه دواء لم يعرفه قبل إنسان ولما وفد على النبي (ص) حكى له القصة فأمره أن يخبر بها أخوانه الصحابة ففعل (القزويني في العجائب). والجن قبائل وعشائر ولهم زعماء وسادة وقادة وفيهم شعراء وخطباء، وهم درجات منهم: العفريت ، والمارد، والمريد، وهذه أسماء وردت في القرآن ، ولكن أفرسهم (العبقري) ولهم واد يسمى (عبقر) وهم غالبا مايلهمون الشعراء الأفذاذ.

***

وكان عرب الحجاز وكافة انحاء شبه الجزيرة يعتقدون في الحسد والاصابة بالعين ويتخذون لها «الرقى» جمع «رقية» وطلبها يسمى «الاسترقاء» والعمل يسمى «الرقى» بفتح الراء والذي يزاوله يسمى «الراقي» وقد يكون رجلا أو امرأة، وتستعمل الرقية في شفاء اللديغ (من أفعى أو عقرب) والمعيون أي الذي أصابته عين والمحسود، والرقية هي عبارات يتلوها الراقي على موضوع العلة فيبرأ صاحبها فيستحق الراقي على ذلك (جُعالة أي أجر، وفي هذا يقول بشر الأسدي:

ومسعود وأرقم لم أضعه وإذا رقيهما رقى السليم

والسليم هو الملدوغ يقال ذلك من باب التفاؤل.

وبعد

فهذا موجز سريع للغاية لجذور الظاهرة التي طفقت تشيع هذه الأيام، ولعل القارئ الحصيف عندما يطلع عليه، يعرف منشأها ومصدرها.

ويدرك من ناحية أخرى أن الذين يستبشعونها ويستنكرونها من رجال الدين إما أنهم يخرفون أو أنهم يغالطون أنفسهم وضمائرهم، وأجدر بهم أن يسلموا أن تلك المعتقدات ليست دخيلة على الإسلام ولا غريبة عنه وأنها انتقلت إليه- مثل الكثير غيرها من المعتقدات والأنظمة- من المجتمع الذي واكب ظهوره والبيئة التي انبثق فيها، وأن يصرحوا أن تلك المعتقدات كانت متوافقة مع بيئة معينة ولمجتمع له أنساقه الفكرية وأفقه المعرفي ودرجته الحضارية ، ولكنها الآن لم تعد ملائمة لمجتمعنا الذي يطل على مشارف القرن الحادي والعشرين وليس في ذلك حرج لإن هناك العديد من المعتقدات والشعائر والأنظمة التي جاءت بها نصوص صريحة آمرة قطعية الورود والدلالة ومع ذلك تجاوزتها الظروف الراهنة مثل:

الرق، تقسيم الغنائم على المحاربين، الصفي الذي يأخذه الرئيس أو الزعيم، صلاة الخوف، صلاة الكسوف، صلاة الخسوف، العتق ، الولاء... الخ.

أي أن محاربة الظاهرة لاتكون عن طريق إنكار مصادرها أو التشكيك فيها إنما يتم بالكشف عن تاريخيتها وبالتالي عدم صلاحيتها وفقدان ملاءمتها للوقت الحالي.

مصر

((فى عصر الماركتنج))
من ١٠ الي ٣٠ اكتوبر
أخطر عشرين يوما فى تاريخ الرأسمالية المصرية

مصباح قطب

انعقد يوم ٩ و ١٠ أكتوبر، بقاعة منفرع بقصر المؤتمرات، مؤتمر «تنمية **القطاع الخاص بمصر وآفاق الاستثمار فى المستقبل»**. وينعقد يوم ٣٠ أكتوبر (أول امس) مؤتمر الدار البيضاء لبحث مستقبل التنمية فى المنطقة (اصبح معروفا بانه مؤتمر تكريس الهيمنة الامريكية الاسرائيلية على الشرق الأوسط) فما هى الصلة التى تربط الأول بالأخير؟وماذا يعنى المؤتمرين بالنسبة للرأسمالية المصرية ومواقفها؟

من متابعتى للمؤتمر الأول، ومن الحوارات الجانبية التى دارت مع رموز للرأسمالية المصرية الجديدة (**محمد فريد خميس**- ود. **محمود وهبة** والمهندس **شريف دولار** ود. **السيد عليوة** مستشار اتحاد الصناعات وبعض رؤساء الشركات القابضة ونقاشات أخرى مع منظمى المؤتمر المباشرين، وعلى رأسهم د. **حامد مبارك** مستشار وزير قطاع الأعمال العام، ود. **جوجالى**، الخبير الاقتصادى للبنك الدولى، والمقيم بالقاهرة) يمكن أن نقول مايلى:

أعلن على لسان المسئولين المصريين أن هذا أول مؤتمر يجمع جمعيات رجال الأعمال المصريين. والمفارقة المذهلة أن رجال الاعمال المصريين كانوا قد عقدوا أول مؤتمر بالفعل العام قبل الماضى، بقاعة الجهاز المركزى للتنظيم والادارة، بعد إعداد دام سنوات، وشارك فيه أساسا **محمد غانم**، شهبندر تجار مصر كما يحب أن يصف نفسه، ورجل المخابرات المصرية الاسبق والرئيس الاسبق لشركة النصر للتصدير والاستيراد، وفى ذلك الوقت رفض رجال الأعمال المصريون بحدة مشاركة الغرفة الأمريكية للتجارة بالقاهرة (يجب ألا ننسى أن اسمها ليس الغرفة المصرية الأمريكية) على أساس أنها ليست منظمة

محمد فريد خميس



مصرية (وهى ليست مسجلة فى الشئون الاجتماعية ولاى جهة ورئيسها كما هو معروف أمريكى). وبمعنى ادق رفضوا مشاركة الغرفة لانها تجمع عابر للسيادة المصرية، برغم أن فيه مصريين لايشك المرء فى نزاهتهم واخلاصهم. أما فى ٩ و ١٠ أكتوبر فقد وصف لى رأسمالى مصرى كبير، **الغرفة الأمريكيةبانها صاحبة الفرح مع البنك الدولى**. فهل اعتبرنا المؤتمر هو الأول لأنه تم فتح باب السيادة رسميا أمام هذين الطرفين؟

الأخطر من ذلك، أن البنك الدولى تطوع ودعا خبيرا اسرائيليا **لحضور المؤتمر**، دون اعلان عن ذلك بأى صورة، ودون أن يشارك فى أى من انشطة المؤتمر، وكأن المقصود من حضوره، تأكيد معنى أن البنك الدولى هوصاحب الدار يعزم من يشاء، على الرغم من انهم افهمونا فى البداية، أن المؤتمر أساسا للجمعيات المصرية، وان دور البنك الدولى (مع الأمم المتحدة!! وهيئة المعونة!!) تقديم الخبرة والتمويل، ومن حقنا أن نتساءل: هل جئ بالمسئول الاسرائيلى ليتجسس على النوايا المصرية، التى يمكن أن تطرح فى الدار البيضاء؟ كما أن من حقنا أن نتساءل أيضا هل تم تجريب التعدى السافر على السيادة فى هذا المؤتمر لاختبار قبول المصريين لما هو أبعد منه مما سيطرح فى مؤتمر مراكش؟

* فى اطار الشكل أيضا نلاحظ أن **المؤتمر لم يدع اعضاء جمعيات مستثمرى المدن الجديدة**. وعلينا الا نستهين بذلك فحضور هؤلاء، وهم القريبون من شحم مصانعهم والخبرة الواقعية الحية،

يخفف كثيرا من غلواء اللغة الأكاديمية الباردة ، والوحشية التي يطرحها مسئولو المكاتب المكيفة من منتفعي البنك الدولي وما أشبه من التجمعات. ولوحظ أن المؤتمر بدأ بافتتاح بكلمتين لوزيرين، نيابة عن الرئيس مبارك **د. عاطف صدقي** ، على الرغم من أن حضور الأخير كان في حكم المؤكد كما فهمنا من الاهتمام السابق بالمؤتمر ولست أدري هل كان ذلك مقصودا لتخفيض الكيان المعنوي للمؤتمر أم لا؟ وهل له علاقة بالاتجاه السائد في الأوساط الرسمية، لجعل التمثيل المصري في مؤتمر الدار البيضاء، في حدود الحضور الوزاري مع مجموعة من رجال الأعمال، بدلا عن حضور **الرئيس مبارك**، كما كان الاتجاه من قبل (الرئيس كلينتون سيحضر مؤتمر الدار البيضاء؟!).

في الشكل أخيرا فانه يلاحظ أن قاعدة **«طاطي للسيف على مايعدي»** أصبحت تحكم السياسة المصرية في كل تصرفاتها ، وهي قاعدة كان يمكن في بداية الأمر التعاطف مع بعض جوانبها ، خاصة وأن خبراء مهمين كانوا يفسرون «المطاطية» بالخوف على المشروع المصري من الضرب، كما حدث في عهدي **ناصر ومحمد علي**، كلما تب لأعلى. الا أنه لم يمض وقت طويل حتى تبين المرء أن المطاطية أصبحت ادماننا حتى لو لم يكن هناك سيف ولايحزنون، كما اصبحت قاعدة المنتفعين بها أوسع من قدرة السلطة المصرية باختيارها هذا، على تصحيح وضع الرقبة. تفسير ذلك أن أحدا لم يفكر في رفض فكرة أن يقوم البنك الدولي بالدعوة الى المؤتمر وتنظيمه وتمويله، مع أن الكلفة لاتزيد عن ٦٠٠ الف دولار، بل وكان يمكن أن يحصل المصريون على التمويل ، مقابل دعوة الجهات الممولة، على أن يبقى المؤتمر مصريا صرفا في تنظيمه واهدافه. وقد غاب العرب **تماما عن المؤتمر**، بينما حضر ممثلون من شيلي وموريشيوس (مليون نسمة!). وكان **السفير الأمريكي هو السفير الوحيد المدعو**، وقد تحدث في غداء يوم ، **بكلمة بالغة الخطورة**.. المهم كلما سألنا: لبسه كده؟ يأتي الرد احنا مش في زمن المقاوحة، نريحهم وبعدين نعمل اللي يناسبنا؟. وحدث هذا من مسئولين أكدوا لي أن هدف البنك الدولي من المؤتمر هو معرفة مشاكل القطاع الخاص العربي لاستخدامها حجة ضد الحكومة في المفاوضات في الغرب فيما بعد. . .

الموضوع

مع شئ من التبسيط يمكن أن تقسم الآراء التي طرحت في المؤتمر، على ثلاثة اتجاهات ، هي كما يلي:

الأول: **الليبرالية، التي يمكن تسميتها بكل أدب الليبرالية الديماجوجية أو الدوجمائية**. وهي ليبرالية يقوم أنصارها بتسميع كلمتين، في كل موقع ومؤتمر ومنشور وكتاب ومجلة، لاجديد فيهم، الا على صعيد التغيير اللفظي الذي برع فيه هذا الفريق بعض الشئ. مثل هذا الاتجاه في أوضح صورة **جون نليس** مدير وحدة الخصخصة-في البنك الدولي (عمل في أوربا الشرقية وروسيا من قبل) ويدعو هذاالفريق الى **بيع كل مشروعات الدولة للقطاع الخاص، بما في ذلك مشروعات الحربية والأمن القومي**، على غرار ماحدث في الارجنتين، كما قال **نليس، بل وبيع حدائق الحيوان ومشروعات الاتصالات والهواتف والمطارات ومترو الانفاق**، وهنا ذهبت الغرفة الأمريكية **الى حد بيع المشروعات العامة للقطاع الخاص والأفراد مجانا** (أسهم لكل مواطن) واقامة كيان خاص مستقل بعيدا عن الدولة لتنفيذ عملية الخصخصة هذه. واعتبر **نليس أن البيع في** الارجنتين (بدأ من ١٩٨٩) **حقق معجزة** اقتصادية ومالية وتصديرية و..و... وأنه يمكن لمصر أن تكون كذلك اذا بدأت من الآن. وبشكل عام ركز هذا الفريق على الاسراع الشديد في برنامج الخصخصة، على **ادماج مصر في الاسواق الدولية، معتبرا أن كلمة الارتباط بالاسواق «كلمة** مخففة». كما ركز أيضا- بما في ذلك اجنحته المعتدلة- على أن النجاح في تلبية الطلب الخارجي هو الأساس للنجاح في الداخل وبكل أمانة كانت هناك تباينات داخل الفريق الليبرالي بعضها هام للغاية. فوزير التجارة والصناعة والطاقة بكوريا، **شولوكيم** ، أكد أن **حماية الصناعة الوطنية هي** الأساس، وان **للدولة وقيادتها دورهم في التنمية، وأن فتح** الاسواق بلا رابط يقضي على كل شئ ، **كما أكد على أهمية الابعاد الثقافية. ولي تباين أقل، وفيه بعض المكر، قال جون بيج الرئيس** الاقتصادي لأقليم الشرق الأوسط وشمال افريقيا بالبنك الدولي، أنه لايوجد نموذج واحد للتنمية، **وأن المطلوب هو تغيير دور الدولة لاالغائه**، كما أنه لابد من حوار حقيقي بين كل الاطراف ، لايكون حوار طرشان، لحل مشكلات التنمية، أن الفرجة على أحسن فرق كرة القدم في العالم لاتجعل المرء أحسن لاعب. لكن من الاراء الماكرة التي طرحها بيج تأكيده على أن النجاح في العالمية يعني النجاح في المحلية (فكرة تضرب كنيفة السوق المحلي ومتطلباته كأساس) وأن انتاج السلع التقليدية لم يعد مشجعا (مع انها تلبي احتياجات للملايين) وان هناك علاقة كبيرة بين التصدير و بين معدلات الانتاجية (وكأن هناك قدرأن تضعف انتاجية من يعمل لتلبية احتياجات مواطني بلده) كما قال بيج ان مايغيب على أن القطاع الخاص ليس له سياسة طويلة الأجل لا يعني شيئا لأنه لاخير في التفكير والعمل يوما بيوما وشهر شهر وسنة بسنة (يضرب مبدأ التخطيط).

* الاتجاه الثاني **هو الاتجاه المصري الرسمي هو اتجاه** يدرك اولا أن الخصخصة على الطريقة السابقة ستنتج بكل حتم اطاحة سياسية بالقوى الحالية القائدة للبلاد (عسكريون-بيروقراط- تكنوقراط- حداثيون ينتمون الى المشروع الدولتي). كما ستنتج كما يعرف البعض ويحس (..وللأسف فان الكثيرين في النخبة السياسية الحاكمة اصبحوا بلااحساس وقد نبهت الى ذلك حتى التقارير الامريكية) ان الليبرالية المنوه اليها ستؤدي الى ضياع حاضر ومستقبل وماضي الملايين من الشعب المصري. لذلك فان كلمة الرئيس **مبارك أكدت على «توفير الرعاية لغير القادرين وتحقيق المشاركة العادلة للجميع في ثمار التنمية.. وان يكون الجهاز الحكومي صديقا لجميع الاطراف، حافزا للاستثمار وكفيلا للعمال ولحقوق المجتمع ودافعا لحركة التجارة..!!»**

كما أكد د. **عاطف صدقي في كلمته** على مزايا مصر، وجهودها التي منها واقامة حوار هادئ مع النقابات.. وعدم الاندفاع أو البطء في برنامج الاصلاح والخصخصة.. حيث نسير بعناية مدروسة»، وان وضع د. صدقي ذلك كله في مزايدة طريفة على الليبراليين حيث قال وأن الانسان المصري هو

صاحب أول مبادرة فردية فى التاريخ»!! لأجل ماتقدم شن د. عاطف عبيد هجوما هو الأول من نوعه على جون نلبس. كشف عبيد علانية عن الضجر الحكومي من ضغوط البنك والصندوق حين قال وبعد أن وصف البرنامج المصرى بأنه أنجح برنامج فى العالم.. الثالث على الأقل»... لكننا نتلقى رسالة مستمرة من هنا وهناك تقول انكم بالغى البطء ولانعرف بالضبط ماالتنفيذ السريع فضلا عن أننا نعتقد اننا نصير بأسرع مما يجب». وقال عبيد أن الخبرة الدولية أكدت لمصر ان عملية الخصخصة يجب أن تدار بمركزية، وتنفذ بلا مركزية (رد على الغرفة الأمريكية) وأن المهم فى البرنامج الاستمرار والاستدامة(لا السرعة)، والتحول السلمى والمرونة، وادارة ملكية الاغلبية (تعبير موفق عن الملكية العامة) بعدالة وبأسس رجال الاعمال، أى تحقيق أعلى ربح دون تفريط فيها، ودون بيع بلا مقتضى. وقال عبيد لنلبس أن رجال أعمال من الارجنتين، جاءوا الى القاهرة وقالوا أن من اشترى جنينه الحيوانات هناك باع الحيوانات، وقال أيضا أن الصورة المبهرة ظاهريا للأرجنتين تنطوى فى عمقها على ماهو غير ذلك. المهم أن الفريق الرسمى اجمالا مع: عدم السرعة- مع بقاء دور الدولة ونحن نفهم كاشتراكيين أن ذلك بالأساس لخدمة السلطة السياسية اولا ثم الشعب أن امكن!! ومع اقتصاديات السوق بطريقته ومنها حتى التوسع فى الاستثمار العام، مادام ذلك يعود بالربح ويمشى على أسس اقتصادية (رفض ذلك الليبراليون الاجانب وممثلو الرأسمالية المصرية معا والطريف ان من ايدته هى د. هبة حندوسة المدير التنفيذى لمنتدى البحوث العربية ايران وتركيا (الشرق اوسطى كما نعرف وفيه اسرائيل)

* الاتجاه الثالث والاخير، هو اتجاه الرأسمالية المصرية بشرائحها. وبرز فيه محمد فريد خميس كداعية لأن «لاتترك الصناعة المصرية تناضل وحدها لأن هذا لاسابق له فى التاريخ» وكمؤيد من طرف خفى لظروف الحكومة التى أدت الى الابطاء فى الخصخصة. وكمعبر عن كون المشاكل التى تعترض القطاع الخاص، هى مشاكل فنية. ضريبية جمركية لائحية، وليست سياسية كما ألح بعض الاجانب فى اشاراتهم.

وأكد خميس على التكامل مع الأسواق العالمية (لا الاندماج) وعلى اتباع قواعد الجات دون اخلال بحق مصر فى حماية صناعاتها من الاغراق والتهريب والممارسات الجائرةفى التجارة. وأكد أيضا (للترضية) على استغلال الفرص المحلية والاقليمية والدولية للتمية.

وعارض شريف دولار عضو جمعية رجال أعمال اسكندرية بأسئلة عميقة دور الشركات متعدية الجنسية فيما يقال انه ربط للبلد الذي تعمل فيه بالاسواق الدولية وتساءل عن مفهوم السيادة فى بلد كمونيوشوس توجد بها مثل تلك الشركات؟ وأكد وجود علاقة وثيقة بين التجارة والتخصص الصناعى (ردلماح على من قال أن التصدير يرفع الانتاجية باطلاق) وشدد دولار على اهمية دور المنظمات غير الحكومية الذي لم يلتفت اليه الليبراليون من أسف، وعلى أن الصناعات الصغيرة هى مستقبل مصر والعالم (لا الشركات المالت ناشيونال العملاقة). لكن المهندس دولار عبر فى حديث خاص عن رفض لاوضاع العصمصمة الحالية (قطاع الأعمال) معتبرا اننا يجب ألا نراوغ انفسنا وأن نعرف لمن يعمل حقيقة هذا القطاع؟.

وايضا كانت هناك تباينات تبدأ من التوحد مع ماتراه المنظمات الدولية، ومن ذلك ماطرحه د. حسن الابراشى رئيس لجنة التشريع بجمعية رجال الاعمال المصريين، بشأن تحرير سوق العمل والعمالة من أى «قيود» بما يجعل الرأسمال صاحب سلطة مطلقة فى الأمر. وكان هناك من يرى أن التجارة هى الاصل وبعدها يأتى الاستثمار(كانت هذه رؤية د. عاطف عبيد عام ١٩٨٤) كما أكد د.سيد عليود ان التجارة تأتى بعد الاستثمار. وقال ايضا أن بطاليرا المجلس الدولى ينبغى أن يأتى بعد فهم للطبيعة الخاصة للأسواق وكذلك كان هناك من يرى أن الصناعات الصغيرة، بطبيعتها وطنية، ويمكن أن تخلق مئات الآلاف من فرص العمل، متجاهلا انها يمكن أن تكون ضمائر لتنشيط الطلب على الآلات المستوردة. وهناك من رأى أن تقوم منظمات المجتمع المدنى بدور الدولة، بل وبدور البنوك!، متجاهلا أن ذلك يمكن أن يكون مرحلة لخلخلة دور الدولة الحالية، ثم اقامة دولة أخرى من نوع خاص، وضرب المجتمع المدنى الحقيقى بعد ذلك..

وسط كل ذلك يجئ السفير الامريكى ليعلن بأوضح لغة أن الولايات المتحدة قررت أن تعمل فى مصر بالنموذج الذى عملت به فى روسيا

(هل هو الذى دمر الدولة وقادها الى رئاسة الناشى البليد يلتسين). ويؤكد أيضا أنه لابد من «اصلاح سريع لمصر» وأن الخصخصة اختبار لجدية الحكومة» وقال ضمنا أن الحكومة تتلكك بحجة الخوف من تقليص العمال مع أن أن الاستغناء عن الربع مليون عامل، طبقا للمطلوب فى البرنامج ليس مشكلة، وأن الاصلاح سيخلق فيما بعد مئات الآلاف من فرص العمل. وفضلا عن المعوقات الفنية لانطلاق الاستثمار قال السفير بوضوح «هناك أيضا أن طرق الحل هى سياسية بشكل واضح» وانه لابد من خلق قاعدة تأييد اقوى للاصلاح كما قال له شخص من القاهرة، التقاه اول وصوله!! وتحدث السفير أيضا عن تجاوز مرحلة التعاون عبر المعونة، الى التعاون المباشر مع مصر (قال لى د. محمود وهبة لاتتعجل وتستنتج من ذلك انهم يريدون علاقة تبعية!) وأشار السفير الى اتفاق مبارك آل جور على تكوين لجنة مشتركة (قيل فى الاول فى الصحف الرسمية انها من رئيس البلدين!!) للتعاون. وربط ذلك بوجود «لحظة حاسمة فى الشرق الأوسط «واستعداد امريكا للعمل مع شركائها المصريين للاستفادة من مثل هذه الطرق الاقليمية للتنمية».

ومن حقنا ان نقول انها الشرق اوسطية التى تتوج فى الدار البيضاء. كما أعلن أيضا أنشاء لجنة مشتركة ومجلس رؤساء فيه قيادات من القطاع الخاص ورجال الاعمال فى البلدين لتوفير النصيحة والمشورة وعمل الدراسات والمؤتمرات والندوات وتأييد الاصلاح والتشاور مع البنك الدولى.

هل هى بداية الخلخلة التى ستبدأ شرارتهامع الدار البيضاء

هذا هو المؤتمر وهذه هى الخيارات فمن يختار ماذا؟! حتى ينتهى مؤتمر الدار البيضاء. نستطيع أن نقدم مشروع أجابة عما سلف.

وتبقى طرفه لاحظتها فى المؤتمر ان مايسمى بتقديم خبرات الاخرين، اصبح ممزوجا بنوع من الدعائية الغليظة يقوم بها ممثل كل بلد لتسويق بلد فى عصر الماركتنج هذا، دون افصاح عن الجوانب الحقيقية المفيدة فى التجارب ومن أجل هذا حقيقة فالضرورة الموضوعية للتجسس الاقتصادى تزيد.

موسم الهجوم على حرية الصحافة



أصبح التلازم بين إشتداد الحديث عن الفساد وتصاعد الهجوم على حرية الصحافة، أحد أبرز الظواهر في الحياة السياسية المصرية ، في الآونة الأخيرة. وفي الشهر الماضي، تجدد الحديث عن حرية الصحافة، بعد صدور قرارات المجلس الأعلى للصحافة، التي تضع قيودا جديدة

ابراهيم نافع
• سنوات أخرى!



على حق اصدار الصحف، وتغلق المنفذ الوحيد لاصدارها (الاحزاب) وتفرض رقابة على الصحف الحزبية. وما كادت الضجة، التي أثارتها قرارات المجلس الأعلى للصحافة تهدأ، حتى تجددت المحاولات لتعديل قانون سلطة الصحافة ، بما يسمح لرؤساء مجالس إدارات الصحف القومية المملوكة للدولة، الذين بلغوا سن الإحالة للمعاش، بالبقاء في مناصبهم خمس سنوات أخرى.

ولأن الدولة تحكم سيطرتها على الصحف القومية التي تمتلكها، فان فرض قيود جديدة على حرية الصحافة، يستهدف في المقام الأول التضييق على صحف المعارضة، ومحاصرتها.

حملة أكتوبر...

لم تكن هذه هي المحاولات الأولى للهجوم على حرية الصحافة ، ولعلها لن تكون الأخيرة- ففي أكتوبر من العام الماضي ، كان التفكير، أثناء حملة المبايعة للرئاسة الثالثة، للرئيس «حسني مبارك» يدور حول إصدار قوانين جديدة لتشديد العقوبات في قضايا النشر، بدعوى أن الصحف تمس الأعراض، وتفرط في نشر الأخبار ، التي تشهر بالشخصيات العامة. وبرزت النية لتغليظ العقوبة على قضايا النشر، في نفس الوقت الذي توسعت فيه صحف المعارضة، في نشر قضايا الفساد ، التي تمس رموزا كبرى في السلطة والحكم. وتزامنت تلك النية مع التفكير في استبدال قانون نقابة الصحفيين القائم، بقانون جديد، يهدر الحقوق النقابية للصحفيين، ويفتح الباب لنقلهم الى أعمال إدارية طوال الأربعة عشر عاما الأولى من حياتهم المهنية، ويحكم السيطرة الحكومية عليهم، ويسهل التخلص من الصحفيين المعارضين وحرمانهم من ممارسة المهنة ، وتنقية جدول نقابة الصحفيين ممن يتسللون إليه منهم، أوممن ينتقلون إلى مواقع المعارضة بعد اشتغالهم بالصحافة.

وفي نفس الوقت الذي ظهرت فيه الدعوة لاصدار قانون جديد لنقابة الصحفيين، تقدم أحد النواب للجنة الأقتراحات والشكاوى بمجلس الشعب، بمشروع قانون: يقضي بمد سن المعاش للصحفيين الى ٦٥ عاما، على أن يشمل ذلك رؤساء مجالس إدارات الصحف، بالمخالفة لقرار صريح للجمعية العمومية لنقابة الصحفيين، بالأيشمل المد القيادات الصحفية العليا.

وفي ذلك الحين القي القبض على نائب رئيس حزب العمل وأمينه العام، واثنين من المحررين بصحيفة الشعب الناطقة باسم الحزب، وشكا الصحفيون أنذاك من أن النيابة العامة تهدر الضمانات القانونية المكفولة لهم في الجرائم التي ترتكب بواسطة النشر. فقد فوجئوا أن النيابة تجاهلت تقليدا مستقرا منذ أكثر من عشرين عاما، حين استدعت الصحفيين للتحقيق معهم عن طريق الشرطة، وليس عن طريق النقابة.كما فوجئوا بأن النيابة أعادت تكييف التهم الموجهة للصحفيين لتحرمهم من الضمان المكفول لهم منذ أكثر من أربعين عاما، بعدم جواز حبسهم أحتياطيا، كما أفرجت عنهم بكفالات مالية باهظة.

وفي هذه الأثناء- أكتوبر ١٩٩٣- عقد الصحفيون مؤتمرا حاشدابمقر نقابتهم ، في أقوى الأجتماعات التي يعقدونها منذ أكثر

من ثلاثة عقود، إذ لم يسبق حضور جموعهم بهذه الكثافة، إلا في الجمعيات العمومية التي يكون الهدف منها هو انتخاب مرشح الحكومة لمنصب نقيب الصحفيين، حيث يتم نقلهم بواسطة المؤسسات الصحفية التي يعملون بها وبتعليمات من رؤسائهم للأدلاء بأصواتهم لصالح هذا المرشح.

ووصلت الرسالة التي حملها تواجد هذا الحشد من الصحفيين، في هذا المؤتمر لمن يعنيه الأمر. **فقد ذهبت جموع الصحفيين تلك المرة لمقر نقابتهم باختيارهم، وبمحض إرادتهم، للدفاع عن المخاطر التي تعصف بمهنتهم.** وفي هذا المؤتمر أجمع الصحفيون على التمسك بالقانون الحالي لنقابتهم وقالوا أن الظروف غير مهيئة لتعديل هذا القانون، بما يضمن توسيع أطر حرية الصحافة، ورفضوا مشروع القانون الجديد للنقابة الذي أسموه بالقانون المشبوه، **كما جددوا رفضهم لاستمرار رؤساء مجالس إدارات الصحف القومية في مواقعهم القيادية بعد سن الستين،** كما طالبوا نقابة الصحفيين باختصام النيابة العامة أمام القضاء، لإهدارها الضمانات القانونية المكفولة لهم، وقيامها بحبسهم احتياطيا حبسا مؤقتا على ذمة قضايا النشر، كما طالبوا بتعديل قانون سلطة الصحافة بما يطلق حرية إصدار الصحف ليجرى بعد ذلك تعديل قانون النقابة، بما يتلاءم مع المتغيرات، بشرط الايتم ذلك قبل إجراء مناقشات موسعة يشترك فيها الصحفيون والأحزاب والقوى السياسية والمنظمات الجماهيرية المعنية بحرية الصحافة.

وكانت الجهات الرسمية، هي أكثر الجهات مفاجأة بهذا التعاضد بين الصحفيين الذي قاد لاجماعهم على رفض مشروعات القوانين والأجراءات التي تهدد الهامش الديمقراطي المحدود الذي تمارس في ظله حرية الصحافة، بعد أن ساد الاعتقاد لفترات طويلة، أن الصحفيين قد تحولوا إلى جماعة ملحقةبسلطة الدولة، لاتجسر على الأعتراض على أي شئ، بسبب سيطرة رؤساء مجالس الصحف القومية، على مقدرات الغالبية العظمى منهم.

وعلى ضوء هذا الاجماع، نفى كبار المسئولين في الدولة، أي نية لتعديل قوانين الصحافة، وأدلى الرئيس «حسني مبارك» آنذاك بتصريحات صحفية، **أكد فيها أن الدولة لا علاقة لها بالضجة المثارة حول قوانين الصحافة،** ونفى وجود نية لإدخال **تعديلات على القوانين القائمة، وقال أن الزج بإسم الدولة، في هذه الضجة المفتعلة هو افتئات على الحقيقة.**

ولم يكن حرص الجهات المسئولة على هذا النفي لتعديل قوانين الصحافة، سوى إدراك من الجهات المسئولة أن توقيت خوض معركة مع الصحفيين، أثناء حملة المبايعة على استفتاءات الرئاسة، توقيت غير ملائم.

ولم يكن هذا النفي، حلا للمشكلة، بل إرجاء لها فحسب!

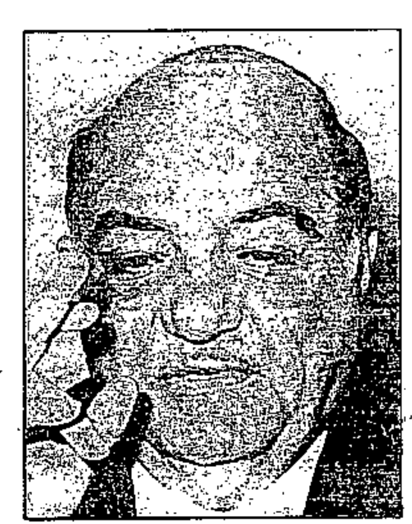
ثلاث محاور للهجوم

وجاءت قضية حزب «الأحرار» وصحيفته، التي تفجرت قبل بضعة أسابيع لتثير نفس المشاكل، ولتطرح من جديد الاجراءات التي يتم إعدادها للعصف بحرية الصحافة، بعد أن **ضاق الحكم ذرعا بالنشر الموسع في صحف المعارضة حول قضايا الفساد،** وبدلا من السعي لتعقب الفساد، يجرى الترصد لصحف المعارضة، والتأهب لمحاصرتها، لكن القضية تتفجر هذه المرة مع وجوه متشابهة، وأخرى مختلفة للمضارين ولأصحاب المصلحة.

وبعد بلاغ، اعترف **الدكتور «عبد العظيم رمضان» أنه تقدم به الى المجلس** الأعلى للصحافة، بصفته أحد **الأعضاء** المعينين به، **ضد صحيفة الأحرار أصدر** المجلس- في الواقعة الأولى من نوعها منذ عودة صدور الصحف الحزبية قبل ١٨ عاما-

مصطفى كامل مراد

لن نكرر الخطأ..



قرارا بوضع.. «ضوابط» جديدة لإصدار الصحف الحزبية، والترتيب لوضع آلية، لمعرفة مدى إلتزام هذه الصحف بالخط السياسي للأحزاب التي تصدرها، وسحب الترخيص منها إذا خالفته، وتشديد الإجراءات المطلوبة لحصول الحزب على ترخيص لإصدار صحيفة جديدة، بما يحول عمليا بينه وبين إصدارها، بعد أن الزمته قرارات المجلس الأعلى للصحافة بضرورة بيان الهياكل التحريرية والأدارية للصحيفة المزمع إصدارها، وبيان ميزانيتها ومصادر تمويلها، وإعلان أسماء رئيس التحرير والمحررين الذين سيشرفون على أقسامها بشرط أن يكونوا مقيدين بجدول المشتغلين بنقابة الصحفيين، وأن يحصلوا على موافقة كتابية من جهات عملهم الأصلية إن وجدت، على أن ترفق صور العقود التي أبرمت معهم، ليسهل الحصول على الترخيص.

كما عادت النيابة العامة مرة أخرى لتهدر ضمانة عدم جواز الحبس الاحتياطي، بحبس **«مصطفى بكري»** رئيس تحرير صحيفة **«الأحرار»** والأفراج عنه بكفالة باهظة، مما يعد مؤشرا على أن سيف حرمان الصحفيين من الضمانات المكفولة لهم، سوف يعلق على رقاب الجميع.

وبينما كان **«إبراهيم نافع»** رئيس مجلس إدارة مؤسسة الأهرام ونقيب الصحفيين الذي بلغ سن الأحالة للمعاش بالفعل، وراء المحاولة المشبوهة لتعديل قانون نقابة الصحفيين في العام الماضي، فهو نفسه الذي يقود الآن محاولة جديدة، لمد سن الإحالة للمعاش للصحفيين الى ٦٥ عاما، بما ينتهي ببقاء القيادات الصحفية العليا- وهو في مقدمتهم- في مناصبهم ٥ سنوات أخرى، بما يخالف قرارات سابقة للجمعية العمومية لنقابة الصحفيين، ولقرارات مؤتمرهم العام، الذي تمسك بنص الفقرة في قانون سلطة الصحافة، التي تشترط، **الا يتولى الصحفي بعد الستين مناصب الأدارة العليا،** لاتاحة الفرصة، أمام الأجيال الوسيطة لتولي هذه المناصب، ولتجديد حيوية المؤسسات الصحفية، والتخفيف من التوترات في علاقات العمل، بين الصحفيين ورؤسائهم، وهي ظاهرة تنتشر في كل المؤسسات الصحفية الرسمية.

ويبدو أن الحكومة وهي تسعى لأحكام قبضتها على الصحافة، تسير نحو هذا الهدف على ثلاثة محاور:

●المحور الأول يتمثل في التطبيق

على حق الأحزاب في إصدار الصحف، والتوسع في حق السلطة التنفيذية في سحب الترخيص منها.

***المحور الثاني،** هو إهدار الضمانات المكفولة للصحفيين، التي تشجعهم على مواصلة نقد الحكم وكشف أوجه فساده.

***المحور الثالث،** هو الابقاء على القيادات الصحفية في مناصبها، بعد سن الستين، وهي القيادات التي تتصور الحكومة، أنها أكثر ولاء لها، وأكثر كفاءة في السيطرة على المؤسسات الصحفية التي تملكها، وأكثر قدرة على إخضاع نقابة الصحفيين لمشيئة الدولة».

قضية الأحرار!!

وبدأ موسم الهجوم على حرية الصحافة يسير في هذه الاتجاهات غير المتعارضة وأخذت الأزمة بين الحكومة وحزب الأحرار في التصاعد، عندما أقدم الحزب – وهو واحد من أقل الأحزاب المصرية صداما مع الحكم– على تحويل صحيفته من جريدة أسبوعية، الى يومية، صدر العدد الأول منها في ١٩ إبريل الماضي، برئيس تحرير جديد هو **«مصطفى بكرى»** . ومن المعروف أن **«مصطفى بكرى»** سبق أن أصدر جريدتين، واحدة عن حزب الأمة باسم **«مصر اليوم»** استمرت عدة شهور ، وانتهت بمشاكل بينه وبين الحزب أدت لاقالته من الصحيفة. وبعدها بأسبوعين، أغلق الحزب الجريدة نفسها.

ثم تولى **«مصطفى بكرى»** بعد ذلك رئاسة تحرير صحيفة حزب **«مصر الفتاة»** التي كانت تصدر بنفس الأسم، **وبعد** حوالى عام من صدورها دخلت الصحيفة في معارك انتهت بتدبير إنقلاب داخل الحزب، أدى لقيام مجموعة بعزل رئيس الحزب ورئيس تحرير الصحيفة والاستيلاء عليهما. وفي هذه الأثناء أثيرت من جديد قضية حق لجنة الأحزاب، في الاعتراف أو عدم الأعتراف بالمشاكل الخلافية التي تحدث داخل الأحزاب. فقد اعترضت لجنة الأحزاب بمجلس الشورى بالحزب الجديد البديل، وبرئيس التحرير الذى عينه، وقامت إحدى المؤسسات القومية بطبع الجريدة الجديدة. وانتقلت المشكلة الى ساحة القضاء، فأصدرت **محكمة** القضاء الادارى بمجلس الدولة **حكمـا** بأن **سلطة لجنة الأحزاب على الحزب، تنسحب بمجرد موافقتها على إشهاره**، وهو مايعني ضمنيا إعادة الوضع في حزب مصر الفتاة، الى ما كان عليه. لكن هذا الحكم لم ينفذ، بعد أن تم تفسير قرار المحكمة، بأنه أوقف قرار للجنة لكنه **لم ينص صراحة على إعادة** الوضع في الحزب، **الي ماكان عليه، وكان** تعدد الصحف التي تولى **مسئوليتها ، هى** واحدة من المشاكل التي **راجهها «مصطفى** بكرى» منذ توليه رئاسة تحرير الأصدار اليومي لصحيفة الأحرار».



أنور السادات

تغيير رئيس التحرير.. شرط

ناصرى.. أم تيار دينى؟!

المشكلة الأخرى التى أثارتها رئاسة «بكرى» لتحرير الأحرار، هى مشكلة ملازمة لعودة التعددية الحزبية، وهى الضوابط التى تربط العلاقة بين الحزب والجريدة، والفهم الخاص **لحزب الأحرار لمعنى «الحزب الليبرالى»**، وهى **مشاكل اعترضت من** سبقوه في رئاسة التحرير، **منذ صلاح** قبضايا» مرورا **بحمد الفلبان ومحمود** عوض، وإنتهاء بوحيد غازى.

وإذا كانت «الليبرالية» **هى** موقف الدفاع عن حريات الأنتقال ورأس المال الخاص والتعبير، فقد دأبت قيادات حزب الأحرار على وصف الليبرالية، بأنها تعبير عن آراء متعددة لمواقف متعددة، وقد برز هذا الفهم بشكل واضح على صفحات الأحرار.

تولى **«مصطفى بكري»** رئاسة تحرير «الأحرار» **وهو عضو بالمكتب السياسى للحزب الناصرى**، وكان مرشحا لأن يكون مديرالتحرير صحيفة «العربى» التى كان يجرى التجهيز لإصدارها اليومي وحين تولى رئاسة تحرير « الأحرار» أثيرت قضية، هل يجوز لصحفى محترف عضو في الهيئة القيادية لأحد الأحزاب ،أن يصدرصحيفة تكون لسان حال حزب آخر.

وفي ظل رئاسة **«مصطفى بكرى»** للأحرار لوحظ أن الصحيفة غلبت عليها **النغمة الناصرية والدينية**. وبدت الصحيفة وكأنها جريدة ناصرية، تعبر عن **جناح من الناصريين يدعو للتحالف مع الأسلاميين**. ودأبت الصحيفة خلال أقل من ٥ أشهر على إصدارها اليومي، على وصف المتطرفين بتعبيرات محايدة، كالمتشددين، كما أخذت مواقف أقرب للتيار الاسلامي في كثير من القضايا المثارة، وغلبت عليها الرطانة الدينية، **كما ظهر المصطلح الذى أستخدمته الصحيفة بشكل ينحو للأثارة وإختلاق الأخبار وتضخيمها**، وهو مابدا في معالجتها لقضية مؤتمر السكان، والخلاف بين الاسلاميين ووزير التعليم . في السياسة الخارجية تبنت الأحرار اليومية مواقف ما كان يعرف بالجناح الراديكالى في السياسة العربية ،فأبدت **إهتماما بالغا بالمطالبة برفع الحصار عن العراق وليبيا**، والتنديد **بسياسة الدول الخليجية**، والهجوم على **الاتفاق الفلسطيني الأسرائيلى ومساندة نظام على عبد الله صالح في اليمن.**

وكان من الواضح منذ البداية،أن الجريدة، **قد توقت بعض المشاكل مع الحكومة، من بينها الابتعاد عن نقد رئيس الجمهورية، أو الجيش، والحرص على علاقة متوازنة مع وزارة الداخلية ، وعدم إثارة بعض القضايا المتعلقة بالتعذيب في السجون، والابتعاد عن الأخبار التى تسئ للمملكة العربية السعودية**. وما كاد العدد الذى يحمل الأنباء التى أذاعتها وكالة رويتر حول مرض الملك فهد يظهر، وما كادت مقالات

«د. عبد العظيم رمضان» للتحريض على حزب الأحرار وصحيفته ورئيس تحريرها تبدأ، حتى ألقى القبض على «مصطفى بكرى» الذى أفرج عنه بعد ٤٨ ساعة من اعتقاله بكفالة خمسة آلاف جنيه، ليبرز من جديد سيف الاعتقال التحفظى للصحفيين فى قضايا تمس النشر.

وما كاد «مصطفى بكرى» يفرج عنه، حتى قادت قوات الشرطة حملة لتنفيذ حكم قضائى صادر منذ عام ولم ينفذ، لاخلاء مقر مقر حزب الأحرار بالقوة.

وفى المؤتمر الذى عقدته لجنة الحريات بنقابة الصحفيين للتضامن مع صحفيى الأحرار، **كشف مصطفى كامل مراد** رئيس حزب الأحرار، أسباب الخلاف بين حزبه والحكومة، وقال أنها **تكمن فى رفض الإمتثال للضغوط الحكومية التى تطالبه بإقصاء «مصطفى بكرى»** عن رئاسة التحرير. وأوضح «مراد» أن حزب الأحرار مر بتجربة مماثلة عام ١٩٧٨، حين صادرت الحكومة الأحرار بسبب نشرها إستجوابا قدمه عضو الهيئة البرلمانية للحزب آنذاك **محمد عبدالشافى**، حول منع الكاتب الصحفى **مصطفى أمين** من الكتابة. ولأن السادات هو الذى أصدر هذا القرار، فقد اعتبر الأستجواب موجها لشخصه، فصادر الجريدة، وأوقفها ٨ أشهر، وحين طالبنا بإعادة أصدارها، اشترط لذلك إقالة «صلاح قبضايا» من رئاسة التحرير. وأكد «مراد» أنه لن يكرر الخطأ السابق، ويستجيب لإقالة «بكرى» من رئاسة التحرير.

والرسالة التى بعثت بها الحكومة بالإجراءات التى تم إتخاذها ضد حزب الأحرار وصحيفته شديدة الوضوح، فالحزب الذى سيخرج عن الخطوط الحمراء المرسومة للمعارضة سوف يلقى نفس المصير، بدءا من مصادرة الصحف التى يصدرها وإنتزاع المقار التى يعمل بها، وإنتهاء بالضغط لتغيير رؤساء تحرير صحفه حتى يهتدى، ويكف عن المعارضة ويحبذا لو أيد الحكومة. ولم تكن قرارات المجلس الأعلى للصحافة التى قيل أنها صدرت بمناسبة «حزب الأحرار»، والتى أغلقت المنفذ الوحيد للحق فى إصدار الصحف فى مصر، سوى حلقة من سلسلة حلقات للأنقضاض على حرية الصحافة وتقزيمها وإرهابها ودفعها دفعا لإغلاق ملفات الأنحراف والفساد فى المراكز العليا فى السلطة والحكم.

ولم تكد الحياة السياسية تفيق من الاجراءات الهمجية، التى طالت حزب الأحرار، حتى بدأت التحركات لأصدار قانون لمد سن الاحالة للمعاش لرؤساء مجالس الصحف القومية الى ٦٥ عاما. وبدعوة من ٥ من أعضاء مجلس نقابة الصحفيين، إنعقد بمقرها مؤتمر موسع لمناقشة هذه القضية، برز فيه اتجاهان. **إتجاه تمثل الأقلية ويدافع عن حق رؤساء مجالس الإدارات فى المد** بزعم خاطئ هو أن الصحفيين هم الفئة الوحيدة فى المجتمع التى لاتحال الى المعاش، وأن تلك القيادات خبرات نادرة يصعب تعويضها. والاتجاه الثانى ويرى أن **السلطات المطلقة التى لارقابة عليها على رؤساء مجالس الصحف القومية، قد أفسدت المؤسسات الصحفية.** كما أن القول بأنهم خبرات نادرة هو حكم بعدم الأهلية على الجيل التالى لتولى المناصب القيادية، كما أن المقارنة بالصحف الحزبية، لامحل لها ذلك أن الأخيرة صحف مملوكة ملكية خاصة، ومالكها يسهل عليه مراقبتها ومحاسبتها وهومايفتقد فى الصحف القومية التى تعد من الملكيات العامة.

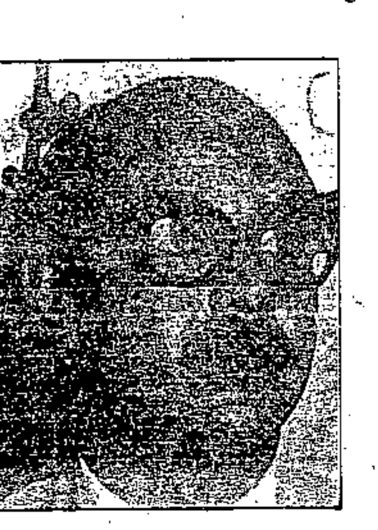
وكان الواضح فى المؤتمر، هو إدراك الأتجاه الأول لأنهم أقلية، وأن اراءهم لا تحظى بإجماع عليها، ولذلك حاولوا إنهاء الأجتماع بالقوة، وقامت عناصر منه بإطفاء الأنوار على المتحدثين، لكن أغلبية المؤتمر نجحت فى مواصلة الاجتماع، وأصدرت بيانا يجدد رفض **جموع الصحفيين لمحاولات نقيبهم «ابراهيم نافع» لمد سن المعاش لشمل القيادات الصحفية، وأعلنوا تمسكهم بالشرعية النقابية، التى تمثلت فى قرارات الجمعية العمومية بالموافقة على مد سن المعاش لكل الصحفيين بشرط ألايتولى أحد منهم المناصب القيادية بعد سن الستين.**

وفى الأسبوع الماضى، تقدم ٥ من أعضاء مجلس النقابة هم **جلال عارف ومجدى مهنا وعلى هاشم ومحمد عبد القدوس ومحمد لجم**، بطلب لعقد اجتماع طارئ لمجلس نقابة الصحفيين، لمناقشة محاولات افساد المؤتمر وقطع النور عن المبنى أثناء انعقاده فى السابقة الأولى من نوعها فى تاريخ نقابة الصحفيين منذ إنشائها قبل ٦٠ عاما، والتعدى على أعضاء مجلس النقابة ومواجهة أعمال البلطجة التى يمارسها البعض داخل النقابة، والتصدى لكافة المحاولات التى تستهدف ضرب الشرعية النقابية، والخروج على قراراتها وتحدى إرادة الصحفيين. ودعا الأعضاء الخمسة، لمحاسبة المتسببين فى هذه التحرشات، **وتحديد مدى مسئولية «النقيب ابراهيم نافع» عن إقرار مثل هذا الأسلوب الارهابى فى التعبير عن الرأى داخل النقابة.**

وماتزال المعركة حول حرية الصحافة مستمرة!



• مجدى مهنا.



جلال عارف دفاع عن الصحافة والنقابة

الحلال والحرام والخير .. والشر

د. سمير حنا صادق

لفت نظرى صديق عزيز إلى ظاهرة هامة استشرت فى مجتمعنا، فقد تركنا «الخير والشر» واستبدلنا بهم «الحلال والحرام». والفرق شاسع بين المتروك والمقبول، فالخير والشر فطرة يعرفها ويتفق عليها أغلب البشر السوى. فالكذب والقتل والزنا والسرقة ومرض الابناء شر، والحب والاخلاص والمودة والصدق والامانة خير. أما الحلال والحرام فهى مقاييس قيمية يستخرجها بشر بحسن أو سوء نية من مرجعية خاصة بهم، منها الكتب الدينية، والكتب الدينية- كما وصفها على بن أبى طالب رضى الله عنه -«حمالة أوجه».

***

سألت شابا صعيديا طيبا عن رأيه فى قتل السراح، فقال «حلال يابيه». سألته مندهشا «ليه؟» فقال «القرش الحرام مابنوش فايدة». سألته «ازاى»؟ فقال مغلقا باب المناقشة «ده كلام ربنا يابيه».

***

سألت الكاتبة الاسلامية والصديقة العزيزة، رغم محاولاتها الدائبة لهدايتى «أيهما أقرب الى الخير، الحاجة كاملة التى حجت سبع مرات وصاحبة عمارة مصر الجديدة المشهورة والتى تقسم دائما أن فلوسها حلال، أم السيدة اوشين صاحبة المسلسل المعروف؟ ترددت الكاتبة ذات القلب الانصع بياضا من الثلج ثم اجابت «ولكن اوشين تشرب الخمر، والخمر حرام».

جلست وسط مجموعة من زملاء المهنة اساتذة الجامعة، فهم عقول مصر. وقصوا علينا قصة رجل أعمال مشهور متزوج من سيدة انجبت له العديد من الابناء، فلما بلغ سن الستين رأى زوجة أحد العاملين لديه وهى سيدة أصغر منه بثلاثين عاما ولها من زوجها ابناء، اعجب بها، فنفح الموظف مبلغا كبيرا من المال وطلب منه أن يطلق زوجته رتزوجها هو. وهى على العموم قصة تتكرر كثيرا، ولكن ما ادهشنى هو رؤية عيون الابناء الاساتذة وهى تلمع بحماس واعجاب، وهم يتناولون حكاية مقاطع من هذه الجريمة، باعتبار انها تدل فى رأيهم على تدين شعبنا وتمييزه بين الحلال والحرام، فلما استجمعت شجاعتى وقلت «ولكن هذا شر»، قالت إحدى الطبيبات بتلقائية فطرية «عفارم عليك يادكتور سمير»، ولكنى اكتشفت اننى وقعت معها فى عش دبابير.

***

وهكذا، ومنظومة متغيرة حسب الاحوال، من الحلال والحرام وفى غياب (أوتأييد من؟) اجهزة الدولة والاعلام والثقافة، فرضت على شعبنا الأمى، وعلى انصاف المتعلمين، مجموعة من القيم الغريبة على فطرته: **فالجلباب القصير حلال**، والتلفزيون حرام، **وقتل الصائغ والسائح حلال**، ودخول المرحاض بالقدم اليمنى حرام، والنقاب حلال والسفور حرام، والكذب التقيه حلال، **وتحية المخالفين فى الدين حرام**، وقراءة كتب العلم حرام. وتحويل المرأة الى شئ يمارس معه الرجل الجنس بدون حب من جانبه وبدون رغبة من جانبها حلال، ولبس النشأ للملابس الرياضية حرام، **وتحية علم الدولة حرام، والاستماع الى الموسيقى حرام**، ولبس الرجال للشورت فوق الركبة حرام، والتعامل مع البنوك حرام، والتعامل مع شركات الاستثمار التى تضع نقودها فى جزر البهاما حلال...

بل ولقد دخلت حكوماتنا السنية فى هذا المنعطف الخطير فاستصدرت فتوى بأن تحديد الملكية الزراعية والايجارات «حرام» واصدر وزير الاسكان بيانا بأنه لاينام الليل لأن تقنين ابجار الشقق حرام يرتكبه هو كل يوم، وقديما استصدر الرئيس المؤمن فتوى بأن **الصلح مع اسرائيل حلال**.

***

ينقسم المخ البشرى الى أربع طبقات: أقدمها واعمقها تسمى جذع المخ BRAIN STEM وهى موجودة فى جميع الفقريات، وهى التى تنظم الوظائف الفسيولوجية الاساسية للجسم: مثل التنفس، ونبضات القلب، وحركة الامعاء.. الخ.

وفوقها طبقة تسمى R.complex وسميت كذلك لوجودها فى الزواحف reptiles، وهكذا ففى داخل كل منا تمساح أو ثعبان، وهى المسئولة عن الدفاع والهجوم، والسيطرة على المكان Territoriality وتنفيذ المكانة الاجتماعية Hierarchy بالعنف.

وتسمى الطبقة الثالثة LIMBIC SYSTEM وهى موجودة فقط فى الثدييات، وفى هذه الطبقة يوجد الخير: يوجد الحب والاخلاص- حب الابناء، حب الاسرة، حب القبيلة- وهى صفات لازمة لبقاء الجنس فى الثدييات.

والطبقة الرابعة هى القشرة المخية BRAIN CORTEX وهى موجودة فقط فى الحيوانات الرئيسية PRIMATES، وفى الجنس البشرى HOMO SAPIENS تمثل ثلثى المخ، وفيها الذاكرة والقياس والنقد واللغة والعلم.. الخ.

الخير اذن فطرة فى الطبقة الثالثة للمخ، مزروعة فى كل انسان سوى، تغيب احيانا فى المرضى السيكوباثيين وتغيب، بوضع شدة على الياء، بفعل الاهداف الآنية الانانية للقشرة المخية بما يحصل عليه الانسان من تربية وتعليم وتثقيف.

وترك المرجعية القيمية فى ايدى الدجالين والنصابين والجهلة ذوى الاطماع السياسية الخبيثة خطر مابعده خطر، وليس لنا من مخرج من هذا المأزق الا المحاربة القوية الذكية لهذا الانحدار القيمى، وعلى وزارات الاعلام والتربية والثقافة المسئولية الكبرى فى هذا المجال، وعلينا أن نتذكر ونحن نفعل ذلك الحديث الشريف **«أنتم أعلم بشئون دنياكم»** الذى يرد على كل هذا الافتراء.

فاذا لم نفعل ذلك فسيقذفنا التاريخ فى سلة مهملاته.



أحمد صالح أحمد

في النصف الأول من القرن التاسع عشر، حدث ذات يوم في «ديوان» أحد حكام الصعيد أن قام أحد الفلاحين فجأة معلنا غضبه على مايقوم به موظفو الحكومة من ابتزاز لانهاية له في فرض الضرائب، فألقى على كتفه اليسرى بالعباءة القطنية التي تغطيه وصاح **«أن محمد على يحصد القمل الذي يمتص الفلاح..»**

وفي الوقت الذي كان يتمتع فيه الوالي وأعضاء أسرته وكبار ضباطه ومحارتيه بكل الامتيازات والاعفاءات كان السواد الأعظم من شعب مصر يتعرض لبؤس لاحدود له بسبب الضرائب الباهظة التي فرضت عليه (فضلا عن الآثار الرهيبة لسياسات الاحتكار والتجنيد في هذا العهد). وقد قام أحد الخبراء الاجانب بتحديد العبء الضريبي على الفرد. وقتئذ، بأنه كان يصل الى حوالي جنيهين استرليني. وكان هذا القدر يساوي مايدفعه سكان بريطانيا العظمى، وضعف مايدفعه الفرنسيون، وأربعة أضعاف مايدفعه الشعب الاسباني.

إن تاريخ الشعب المصري مع الضرائب كان مليئا بالقهر والظلم، وهذا وضع طبيعي في بلد لايملك فيه الشعب المصري زمام نفسه ويحكمه الاجانب والغرباء. إذ كان الشغل الشاغل لكل حاكم هو كيف يمكنه أن يعتصر

محمد الرزاز



هذا الوطن، ولايبقى له إلا مايسد الرمق.

ويثور التساؤل هل تغير الأمر كثيرا بعد الحصول على الاستقلال السياسى؟ لقد كانت القلة المسيطرة تتمتع دائما بكل الامتيازات والاعفاءات وترزح الأغلبية فى المقابل تحت عبء ثقيل . فهل تغير الحال بعد انسحاب الحاكم الاجنبى؟.

فى الواقع، هناك قانون فى علم الاجتماع الضريبى مؤداه ، أن الطبقة الاجتماعية التى بيدها القوة السياسية تميل الى التهرب الضريبى.. مما يعنى أن تتحول الضريبة عن الفئات القادرة الى الفئات الضعيفة ذات التأثير والدخل المحدود. على أن الطبقة المسيطرة لاتعلن، فى أغلب الاحوال عن رغبتها فى التهرب الضريبى والحصول على الامتيازات الضريبية.. وانما يأتى الأمر على الوجه الآتى: تعلن الدولة رسميا عن خضوع كل الأفراد والدخول للضريبة ثم تصدر نظاما يحابى البعض على حساب البعض الآخر. وتظهر الامتيازات لفئات معينة دون أى مبرر حقيقى ونصبح فى الحقيقة أمام تهرب ضريبى ينظمه القانون.

واذا كان من الممكن تقسيم الدخول المكتسبة فى مصر إلى دخول بسيطة (أو محدودة) ، ودخول مرتفعة (أو عالية)، فإن الدخول المرتفعة تتمتع فى الوقت الحالى بإعفاءات لاحق لها (ضريبية وجمركية) تزيد فى بعض التقديرات عن ١٠ مليار جنيه سنويا. ولاشك أن هذه الاعفاءات الهائلة احدثت خسارة كبيرة فى حجم الموارد الضريبية ،نظرا لكبر حجم الدخول التى تحققها هذه المشروعات ، فى الوقت الذى تعانى فيه الدولة من عجز الموازنة العامة- ولاتجد علاجا لهذا العجز غير التقليل من اعتمادات التعليم والصحة والدعم..

واذا كانت الاعفاءات الضريبية والجمركية مقررة أساسا لتشجيع الاستثمار، فلابد من التساؤل، هل هذا الاستثمار وسيلة أم هدف فى حد ذاته؟. الجواب ، بطبيعة الحال، أنه وسيلة لدفع عجلة التنمية ولايقصد لذاته . وعلى ذلك ،فالاولى تشجيع الاستثمار فى الانتاج الموجه لاشباع الحاجات الاساسية للسواد الاعظم من جماهير شعبنا. وليس تشجيع كل استثمار ولو كان فى انشطة خدمية أو ترفية لاتهم سوى الفئات ذات الدخل العالى والنفوذ الأعلى. لذا فالمطلوب من المشرع الضريبى، فضلا عن ترشيد الاعفاءات سالفة الذكر، أن يستخدم سياسة التركيز أو التكثيف الضريبى فى مواجهة الأنشطة غير المرغوب فيها.

إن تقرير الاعفاءات الضريبية فى البلدان المتخلفة، ومنها مصر، يرتبط بلاشك بالمصالح المسيطرة، وعندما كانت هذه البلدان مستعمرة، كان الاجانب هم أكثر الافراد بها تمتعا بالاعفاء ، وحتى بعد خروج الاجانب المحتلين، بقيت سياسة الاعفاءات هذه ، بل وازدادت توسعا ، ليستفيد منها شرائح وفئات اجتماعية معينة، وبالتحديد تلك المرتبطة أساسا بالطبقة الحاكمة.

والآن تتبارى الدول المتخلفة فى منح رأس المال الأجنبى الامتيازات والاعفاءات الضريبية بلاحدود ، وذلك لتشجيع رأس المال الاجنبى بها ، وقد ركبت مصر هذه الموجة، وفتحت الأبواب على مصراعيها ، منذ سياسة الانفتاح للاستثمار الأجنبى. ولنا أن نتساءل بعد حوالى عشرين عاما من بداية التطبيق لهذه السياسة، ماذا كانت النتيجة؟ يبدو أن الاجابة واضحة.. ولكن الأمر الهام الذى يجب توضيحه هو أن الاستثمار الاجنبى لن يجد ظروفا مواتية أكثر مما كان يجدها عندما كانت مصر محتلة، قبل ثورة يوليو، ومع ذلك دعنا ننظر معا الى ماانتهى اليه نشاط رأس المال الاجنبى، أنه، وبكل بساطة، لم يكن سوى عملية نهب منظم لموارد هذا البلد.

من يتهرب من الضريبة فى مصر؟

اتجه كبار رجال الدولة فى مصر الى الانخراط فى عالم الأعمال ، وعرف البعض منهم طريق الثروة من باب السلطة، وبدأنا نسمع عن أبناء الوزراء، وعائلاتهم وقد أصبحوا نجوما لامعة فى عالم المال والشهرة، وتعد ثرواتهم بالملايين، ألا يحق لنا أن نتساءل عن هذه الثروات ومصدرها، ثم ماهو موقف الجهاز الضريبى من ثروات ذوى السلطة والنفوذ. أن مأمور الضرائب وهو لايتمتع بأى حصانة تحميه فى مواجهة هؤلاء الكبار، وتتم معاملته ماليا وفقا لقانون العاملين المدنيين بالدولة بدون الاعتراف له بكادر خاص، ويتم الضغط عليه بالعمل المستمر والشاق يوميا بدون أى تكريم معنوى له. هذا المأمور كيف يمكنه ملاحقة علية القوم.

ويقال أن ملفات كبار المسئولين توضع فى أماكن خاصة تحت اشراف مديرى كل مأمورية حتى لايظن أحد انها تعامل معاملة خاصة. لذا فاننى اقترح أن تقوم الحكومة بنشر الاقرارات الضريبية السنوية لهؤلاء الكبار، حتى نتأكد جميعا من أن الدولة تأخذ حقها منهم كما تأخذه من الموظف الصغير والبائع المتجول وصاحب كشك السجاير.

والحق أن التهرب الضريبى موجود فى كل دول العالم بلااستثناء .. ولكن حجم وانتشار هذه الظاهرة اقوى واوسع فى البلاد المتخلفة عنها بالبلاد المتقدمة ، وهو مايرجع الى ضعف جهاز الدولة وطبيعة المصالح المسيطرة.

لقد أصبح التهرب الضريبى فى البلدان المتخلفة- ومنها مصر- مهنة أكثر تطورا وتنظيما ، وعندما يتجه اليها أصحاب الأراضى والتجار الأثرياء، وذوى الدخول المرتفعة فانهم لايجدون عقبات كبيرة،إذ توجد مافيا لتنظيم هذه العملية، تستفيد دائما من غموض القوانين والثغرات الموجودة بها، فضلا عن عدم الجدية فى معاقبة مرتكبى جريمة التهرب.

فوفقا لاحكام القانون الحالى (رقم ١٥٧ لسنه ١٩٨١ والمعدل بالقانون رقم ١٨٧ لسنه ١٩٩٣) لاتملك النيابة العامة فى مواجهة الجرائم الضريبية اتخاذ اجراءات التحقيق أو رفع الدعوى الجنائية إلا بعد تقديم وزير المالية طلبا بهذا الخصوص. وهذا مسلك منتقد من المشرع، ولايخدم سوى كبار مرتكبى جرائم التهرب من ذوى السلطة والنفوذ المؤثر والذين يمكنهم الضغط على الوزير أو حكومته حتى لايستخدم حقه فى طلب تحقيق الدعوى الجنائية ورفعها. وحتى بعد رفع الدعوى الجنائية والى أن يصدر حكم نهائى فيها، يعطى القانون لوزير المالية حق الصلح مع الممول، وهو ماتضيع معه الحكمة من تجريم التهرب الضريبى. وكان القانون القديم ينص على أن «يكون الصلح بعد رفع الدعوى من اختصاص النيابة العامة وحدها».

ورغم أن التهرب الضريبى هو مشكلة نظام اقتصادى واجتماعى، وليس مشكلة ادارة ضريبية فحسب، فإن عدم جدية الدولة فى محاربة هذه الظاهرة يتيح للفئات القادرة فرصة أكبر للتهرب، ولاينتهى الامر عند هذا الحد، فالفئات ذات الدخل الأقل سوف لاترى، والحال هكذا، أى مبرر للأمانة وعدم التهرب، وخاصة عندما لايثق الأفراد، كما هو الحال فى مصر، فى مبررات الانفاق الحكومى وحجمه، والذى يتميز بالبذخ والتبذير وعدم الترشيد ، هنا يصبح التهرب وسيلة لاحتجاج الأفراد

على سياسات الحكومة ويتحول الى حرفة يتعلمها الكبير والصغير.

دور الضرائب في ملاحقة الانشطة الطفيلية

في السنوات الأخيرة، نجحت العناصر الطفيلية في مصر، في جمع ثروات طائلة نتيجة عمليات التهريب وفرض العمولات والاتاوات، واحتكار منافذ التوزيع واستغلال النفوذ بجهاز الدولة، والاشتغال بالوساطة والسمسرة والاتجار في الأغذية الفاسدة، وعمليات النصب على البنوك.. الخ. وفي آخر المطاف بدأت هذه العناصر في تقديم نفسها للمجتمع على أنهم رجال أعمال عصاميون جمعوا ثرواتهم بكدهم وكفاحهم. وقام **أغلبهم بتهريب الأموال التي حصلوا عليها خارج مصر (أكثر من ٨٠ مليار في بعض التقديرات)**، وقد حاول بعضهم استثمار هذه الاموال داخل مصر فاتجه الى الانشطة الخدمية والترفيهية، وحصلوا باسم تشجيع الاستثمار على امتيازات واعفاءات بلاحدود، هي في النهاية اقتطاع من قدرات هذا الوطن وامكاناته. وفي نفس الوقت الذي تبتعد فيه الضرائب تماما عن هذه الانشطة (غير المرغوب فيها من الأغلبية)، تئن المشروعات الانتاجية القديمة، تحت عبء فادح من الضرائب المختلفة **(الضرائب علي ايرادات النشاط التجاري والصناعي، والضريبة على أرباح الشركات، ضريبة الدمغة، ضريبة المبيعات)** بالاضافة الى ماتتحمله هذه المشروعات من نصيبها في اقساط التأمينات الاجتماعية عن العاملين لديها.

لقد أصبح النشاط الطفيلي في مصر كالاخطبوط الذي امتدت اذرعه إلى كافة المستويات الاجتماعية والانشطة الاقتصادية. وتتمثل خطورة هذا النشاط في أن وجوده يؤدي الى فشل أي سياسة تنموية ويعوق تنفيذ أي خطة للنهوض بالاقتصاد المصري. واذا بحثنا عن طريقة للوصول الى الدخول الطفيلية في مصر وفرض الضريبة عليها نجد أن ذلك صعب للغاية أن لم يكن مستحيلا. فكيف نتوصل الى الدخل الحقيقي الناتج عن عمليات السمسرة والوساطة والعمولات وارباح المقاولات والبضائع المهربة والتوكيلات الاجنبية. فهي دخول لايمكن الوصول الى حقيقتها، وانما الممكن فعلا هو ملاحقة النشاط الطفيلي نفسه وتضييق الخناق عليه، باعتباره من أكثر معوقات التنمية في مصر. فعندما تصبح السمسرة والوساطة والمضاربة هي المثل العليا في أي مجتمع، فأن ذلك يعني سيطرة العناصر الطفيلية وانسحاب الانشطة المنتجة. **غير أن اعلان الحرب على هذه الانشطة يتطلب دولة ذات طبيعة مختلفة**، تنحاز بوضوح إلى مصالح السواد الاعظم من شعبنا وليست دولة حارسة لمصالح الأثرياء، من ذوي النفوذ والطفيليين.

الضرائب على الدخول المنخفضة في مصر.

من الملاحظ أن حصيلة الضرائب غير المباشرة في مصر (وأهمها الضرائب الجمركية، وضريبة المبيعات، وضريبة الدمغة) **تمثل حوالي ثلثي حصيلة الايرادات الضريبية**. والمعروف أن هذا النوع من الضرائب يصيب كل الدخول بدون تمييز، ومن ثم فهو يتجه الى أصحاب الدخول المنخفضة- وهم الاغلبية - على نحو لايتناسب مع مقدرتهم التكليفية، فتكون الضريبة أشد عبئا عليهم. وحيث إن الضريبة غير المباشرة هي تلك التي تصيب الدخل عند انفاقه، وأن نسبة الاستهلاك الى الدخل تزيد كلما انخفض مستوى الدخل، فأن الفقراء هم اكثر من يتأثر بهذه الضريبة. هذا فضلا عن أن زيادة الضرائب غير المباشرة ترفع من معدل التضخم ،في شكل ارتفاع عام في اسعار السلع والخدمات، وذلك ليس في صالح الفئات محدودة الدخل بعكس الفئات الاخرى ذات الدخل الاعلى، والتي يمكنها زيادة دخولها مع زيادة معدل التضخم، وبنسبة أكبر غالبا.

أن فرض الضريبة على الفقير الذي لايتوافر له الحد الأدنى من المستوى الانساني للمعيشة، يعد في الواقع اقتطاعا من «لحم الحي». فعندما تتخاذل الدولة عن القيام بدورها في التنمية، وتنسحب من كل المجالات، وتترك ذوي الدخول الضعيفة لقوى العرض والطلب، وترفع الدعم عن السلع والخدمات الاساسية، فانه من غير المقبول أن يصبح عرق وشقاء هذا الطرف الضعيف موردا أساسيا للدولة. فهل يمكننا مثلا تبرير فرض ضريبة الارباح التجارية والصناعية، على صاحب كشك سجائر عندما يبيع هذا الكشك، باعتبار أن هناك ربحا رأسماليا نتج عن عملية البيع ويجب أن تفرض عليه الضريبة، هذا في نفس الوقت الذي يعفي فيه القانون الطبيب أو المحامي (أو غيره من أصحاب المهن الحرة) من الضريبة على الربح الرأسمالي الناتج عن بيع عيادته أو مكتبه، ولو كان يقدر بعشرات الالوف من الجنيهات.

وهذا الموظف أو العامل، الذي يعيش تحت خط الفقر، يفرض على دخله المتواضع ضريبة الدمغة، وضريبة المرتبات والأجور، وهذه الضرائب تفرض على دخله الاجمالي وليس الدخل الصافي، ولايعترف له مثلا بخصم مقابل للاستهلاك المهني (عكس أصحاب المهن الحرة الذين يخصم من أرباحهم ١٥٪ مقابل استهلاك مهني قبل فرض الضريبة). وتخصم الضريبة من الموظف والعامل عن طريق الخصم من المنبع، أي أن النقود التي يدفعها كضريبة تتساوى قيمتها النقدية مع قيمتها الحقيقية، حيث لاتوجد فترة زمنية بين واقعة الاستحقاق وواقعة التحصيل (بعكس مايحدث في الضرائب الاخرى). وطريقة التحصيل هذه لايمكن التهرب منها، **ولهذا يقوم المشرع في فرنسا بخصم ٢٠٪ من دخل العامل أو الموظف قبل فرض الضريبة عليه، تحت بند «مقابل عدم التهرب الضريبي».**

وعندما تم فرض ضريبة على دخول العاملين بالخارج (في القانون المحكوم بعدم دستوريته أو القانون الجديد)، كانت الضريبة موجهة فحسب الى «العاملين»، أي من يرتبطون بعلاقة تبعية مع صاحب العمل، وليس مثلا أصحاب المشروعات أو من يعملون لحسابهم. هذه السياسة تؤدي في الواقع الى نتيجة شاذة، فاستاذ الجامعة المعار للتدريس بالخارج سيخضع لهذه الضريبة، أما الراقصة التي تذهب للعمل بالخارج فلن تخضع لهذه الضريبة، حيث أنها تعمل لحسابها ولاترتبط بعلاقة تبعية لطرف معين.

أهمية الاصلاح الضريبي

من بين أمور عديدة يجب اصلاحها في النظام الضريبي، يهمنا أن نركز أساسا على توجهات السياسة الضريبية. فما نحتاجه الآن هو التخفيف عن الفئات ذات الدخل المنخفض والتي يعتصرها كل من التضخم، والضرائب غير المباشرة، وفي نفس الوقت زيادة معدلات الضرائب على أصحاب الدخول المرتفعة مع تضييق فرص التهرب الضريبي أمامها والحد من الاعفاءات والامتيازات التي تتمتع بها. وهذا الخيار يفترض، بطبيعة الحال، أن تعبر السلطة السياسية للدولة عن الفئات ذات الدخول الضعيفة، وهم الاغلبية.

هيئة كهرباء مصر: ومواجهة التحدى

تعمل هيئة كهرباء مصر على توفير الطاقة الكهربائية اللازمة لجهات الاستخدام المختلفة - لحظة طلبها - بالقدرات اللازمة والمواصفات الفنية، مع ضمانات الاستمرار واستقرار التغذية الكهربية دون انقطاع، باعتبار ذلك أمرا حيويا للاقتصاد القومى.

ويرأس هيئة كهرباء مصر السيد المهندس محمد السعيد عبدالله عيسى، وفى عهده حصلت الهيئة على كأس الإنتاج عن عام ٨٩/ ٩٠، وحصلت أيضا على درع الإنتاج لعامين متتاليين ٩١/ ٩٢، ٩٢/ ٩٣ ومرشحة أيضا للحصول على كأس الإنتاج خلال عام ٩٣/ ٩٤، وتقفز الهيئة قفزات عملاقة فى مجال إنتاج الطاقة الكهربية والتشغيل وصيانة محطات التوليد ومحطات المحولات وخطوط الجهد الفائق والعالى فى كافة أنحاء الجمهورية.



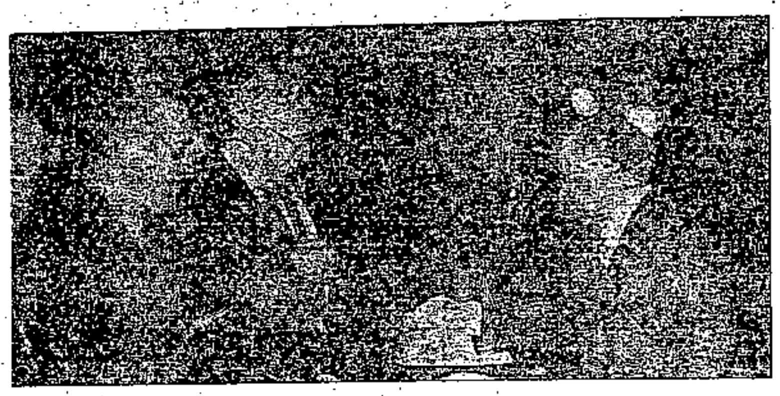
المهندس
ماهر أباظة
وزير
الكهرباء والطاقة

خطة الوزارة
تخفيض الأعباء
على المستهلك المصرى

ويحرص المهندس السعيد عيسى — رئيس الهيئة — على مواكبة التحدى بالتوسع فى إنتاج الطاقة الكهربية الخاصة باستصلاح الاراضى ومشروعات الاسكان والتعمير والمدن الجديدة وتوفير الطاقة اللازمة لها!

وتعمل الهيئة على استخدام التكنولوجيا الحديثة لتطوير الشبكة الموحدة وزيادة الطاقة المولدة المائية والحرارية التى بلغت سعتها ٤٨.٦٠ مليار كيلو / وات ساعة. وقد تم خفض معدل استهلاك الوقود إلى ٢٢٩ جراما لكل كيلووات/ ساعة، وكان ذلك نتيجة لسياسة التشغيل الحكيمة، حيث يتم عمل إحلال وتجديد بصفة مستمرة للشبكة الموحدة، وتحويل المحطات للعمل بنظام الوقود المزدوج، واستخدام وحدات توليد ذات سعة كبيرة وتحويل المحطات للعمل بنظام الدورات المركبة، وذلك باستخدام العادم الخارج بدرجات حرارة عالية جدا فى تشغيل توربينات بخارية إضافية، بما يعد استخداما لطاقة كانت مهدرة وغير منتفع بها. وقد أدى انخفاض معدل استهلاك الوقود إلى الوفر فى التكاليف عام ٩٣/ ٩٤ بمقدار ٧٤ مليون جنيه. وكان الوفر نتيجة رفع كفاءة التوليد من المحطات الحرارية بمبلغ ٥٩ مليون جنيه، بينما كان الوفر نتيجة زيادة التوليد المائى بمبلغ ١٥ مليون جنيه.

ولكى يكتمل التحدى اتخذ المهندس السعيد عيسى - رئيس الهيئة - أسلوبا جديدا فى إنشاء المشروعات العملاقة مثل مشروع الكريمات الذى يعد طفرة كبرى فى مجال إنتاج الطاقة.



السيد المهندس ماهر أباظة وزير الكهرباء والطاقة يسلم درع الإنتاج إلى السيد المهندس السعيد عيسى رئيس هيئة كهرباء مصر

□ المشروع العملاق :

تقوم هيئة كهرباء مصر بإنشاء مشروع محطة توليد كهرباء الكريمات، وهو عبارة عن وحدتين قدرة كل منهما ٦٠٠ ميجاوات.. أى بقدرة إجمالية ١٢٠٠ ميجاوات، وهذه هى أول مرة تنفذ فيها وحدات بمثل هذه القدرة وتعتبر من أكبر الوحدات فى منطقة الشرق الأوسط.

وقد اتخذت الهيئة برئاسة المهندس محمد السعيد عبدالله عيسى - رئيس الهيئة — أسلوبا جديدا فى تنفيذ المشروع العملاق، ماسبق للهيئة اتباعه وحقق نتائج ممتازة وهو نظام تعدد العمليات، حيث تم تقسيم المشروع إلى ٢١ عملية تسند إلى شركات مختلفة. وهذا يتيح فرص التنفيذ بتكنولوجيا عالية وبتكاليف اقل.. كما يتيح فرصة أكبر لدخول شركات مصرية للمشاركة فى تصنيع بعض أجزاء المحطة. وقد أدت هذه السياسة المخلصة الحكيمة - بالإضافة لما تتمتع به الهيئة من ثقة عالمية - إلى تخفيض تكلفة المشروع بنسبة تصل إلى ٣٦٪. وهذه هى أول مرة يتم فيها مشروع بهذا الحجم وبهذه التكاليف المنخفضة على مستوى العالم، وانعكس ذلك على خفض تكلفة الكيلووات من ٨٠٠ دولار إلى ٦٢٥ دولارا، شاملة تكلفة خط الغاز الطبيعى من الزعفرانة إلى الكريمات.

وهذا ينعكس بالضرورة على المستهلك وبذلك يعد تحقيقا لخطة الوزارة، ولما يطالب به السيد المهندس الوزير ماهر اباظة من ضرورة تخفيض الأعباء على المستهلك فى مصر.. إلا أن نتيجة ذلك لن تظهر فورا، حيث إنه مازالت الكهرباء تباع بأقل من التكلفة.

كما تنطلق إدارة المشروعات برئاسة المهندس أحمد طه متسى... نائب رئيس مجلس الإدارة للمشروعات والمناطق السبعة - لتنفيذ انشاء محطات توليد فى غرب القاهرة وطلخا وأسيوط والعريش وجنوب القاهرة وغيرها، وكذلك بعض مشاريع الاحلال والتجديد فى دمنهور والقاهرة وأسيوط وأسوان بمجموع سعات ٢٠٠٠ ميجاوات، وكذلك انشاء محطات محولات بمجموع سعات ٣١٥٠ ميجافولت أمبير. هذا غير تنفيذ مشاريع الخطوط والكابلات بمجموع أطوال ١٢٥٠ كيلو متر.

«الكريمات»

أكبر مشروع لإنتاج الطاقة في الشرق الأوسط

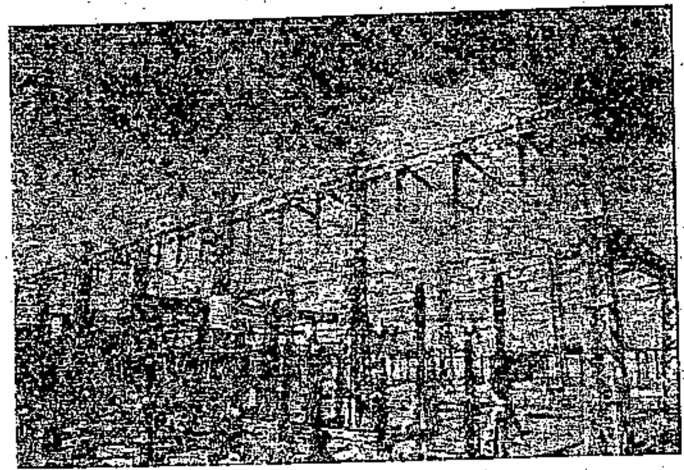


المهندس السعيد عيسى رئيس هيئة كهرباء مصر حصلت الهيئة في عهده على كأس الإنتاج ودرع الإنتاج سنتين متتاليتين

ـ المال والاقتصاد :

ويوضح السيد المحاسب صالح رضوان ـ نائب رئيس مجلس الإدارة للشئون المالية والاقتصادية ـ بعض المؤشرات المالية، حيث يتضح أنه حدثت زيادة في الأجور من ٢٤٥ إلى ٣٠٣ ملايين جنيه. وكذلك تحققت زيادة في الفائض والاستخدامات الاستثمارية. وكذلك تحققت زيادة في قيمة المباع لشركات التوزيع.

وقد وافقت اللجان العليا والمركزية والفرعية للمشتريات على مذكرات خلال عام ٩٢/ ٩٤ بمبلغ إجمالي ٢٣٠٦.٨ مليون جنيه. وجدير بالذكر أن المتاح للتعاقد بتمويلات أجنبية يعادل ٢١٦٥ مليون جنيه لمشروع الكريمات و٧٦٧ مليون جنيه لمشروع دعم قطاع الكهرباء والطاقة.. وكذلك مبلغ ٢٧٨ مليون جنيه لمشروع ربط شبكات مصر والأردن. ومبلغ ٨٩ مليون جنيه لمركز تحكم الاسكندرية.



أصبحنا نصنع ٩٠٪ من معدات الشبكات الكهربائية الموحدة (محولات ـ حديد أبراج ـ عازلات ـ ملحقات ـ سلاسل عازلات)

ـ التدريب الجيد هو بداية الطريق :

وتولى الهيئة اهتماما خاصا للتدريب بمعاهد التدريب الستة المنتشرة في جميع انحاء الجمهورية، وأهمها معهد تدريب جنوب القاهرة ومعهد شمال القاهرة، ومركز التدريب المالي والإداري. كما أعدت برامج تدريب بمناطق الكهرباء التابعة للهيئة، وكذلك بمراكز التدريب غير التابعة للهيئة. كما يوفد المختصين للتدريب خارج الجمهورية على أحدث الاساليب التكنولوجية في الأداء في كافة التخصصات. وقد بلغ اجمالي الحاصلين على دورات تدريبية في الداخل والخارج خلال العام المالي ٩٣/ ٩٤ عدد ٧٨٧٩ من أبناء الهيئة.

ـ المتابعة عصب التنظيم الجيد

ولاشك أن عمليات التطوير المستمرة بالهيئة وعمليات الاحلال والتجديد وإنشاء وحدات جديدة، وماتقوم به الهيئة من دراسات وبحوث وتخطيط وتشغيل وتدريب، لابد أن يخضع للمتابعة الدقيقة والتي يقوم بها المهندس عبداللطيف أبو المعاطي ـ مدير عام المتابعة ومدير مكتب رئيس الهيئة ـ بشخصيته الجادة الحازمة وأدائه المنضبط، مما حول مكتبه والعاملين معه إلى غرفة عمليات تربط كافة الخيوط وتتابع أدق التفاصيل للوصول إلى أحسن النتائج. وهكذا نرى أن كل الأجهزة التابعة للهيئة تعزف سيمفونية رائعة لتحقيق الانجازات العملاقة، التي قامت بها الهيئة في عهد رئاسة السيد المهندس محمد السعيد عبدالله عيسى قائد ملحمة التحدي.

ـ فلسفة التشغيل :

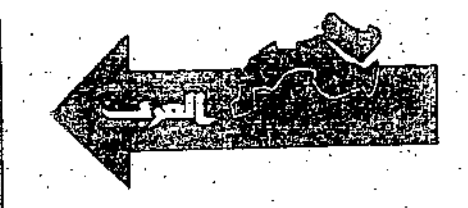
يهدف النظام الكهربائي المصري إلى توفير الطاقة الكهربائية اللازمة وبخصائص فنية جيدة وبأقل تكلفة. ولذلك فإنه يتم استغلال الطاقة المائية المتاحة في كل من السد العالي وخزان أسوان إلى أقصى مدى، على الرغم من أن معدلات التصرف في المياه تتحدد تبعا لمتطلبات الري، التي تبلغ أدنى قيمة لها في شهري ديسمبر ويناير من كل عام، وذلك على النقيض من طبيعة الطلب على الطاقة في مصر، والتي تبلغ أقصى قيمة سنوية لها في فصل الشتاء. ويلقي ذلك عبئا كبيرا لتوفير أقصى إتاحة ممكنة للوحدات الحرارية في تلك الفترة. وتبذل إدارة التشغيل ـ وبتوجيهات من الدكتور مهندس حسن يونس نائب رئيس الهيئة للتشغيل ـ جهودا للمحافظة على مستوى التشغيل المتميز طوال السنة، وخلال أصعب الظروف التي تواجه الهيئة.

ولأول مرة تتم زيادة الاعتماد على الغاز الطبيعي الذي وصلت نسبته إلى رقم قياسي وهو ٥٧٪ من الوقود الكلي المستخدم، وهو أقصى ما أتيح استخدامه للهيئة.

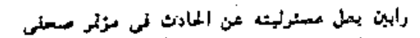
ـ الدراسات والبحوث والتخطيط... الأساس قبل البناء

تخطو الهيئة خطوات مهمة في مجال البحوث والاختبارات.. ويوضح السيد د. مهندس مصطفى سويدان ـ نائب رئيس مجلس الإدارة للدراسات والبحوث والتخطيط ـ ان الإدارة تقوم بعمل دراسات ديناميكية على أعلى مستوى للتنبؤ بالطاقة الكهربائية والحمل الأقصى خلال السنوات القادمة وحتى سنة ٢٠٠٧، وعلى ذلك يتم تعديل خطط التوسع في التوليد. كذلك يتم عمل الدراسات الخاصة بالتمويل ويتم التعاون مع صناديق التمويل الدولية، كما بدأت في التعاون مع البنوك المصرية.

كذلك يتم عمل دراسات الجدوى للشبكات.. كما تقوم الإدارة بإعداد المواصفات الفنية للشبكات، وكذلك المشاركة في تحليل العطاءات والعديد من الدراسات الفنية التي تتطلبها مشروعات الهيئة العملاقة.






رابين يحمل مسئوليته عن الحادث فى مؤتمر صحفى

فى حسابات رابين و السلطة الفلسطينية

حنا عميرة

موقف الحكومة الاسرائيلية ورئيس وزرائها اسحق رابين ومطالبه واملاءاته الموجهة للسلطة الفلسطينية اثناء وبعد عملية اختطاف ومقتل الجندى الاسرائيلى نحشون فاكسمان، وضع مسار المفاوضات مع الفلسطينيين أمام اختبار الامن الاسرائيلى، وهذا يعنى أن نجاح او عدم نجاح السلطة الفلسطينية يتمثل فى الحفاظ على هذا الأمن، ووقف جميع أشكال المقاومة ضد الاحتلال!

أى انه مقابل سلطة منقوصة على بعض القطاع واريحا فان المطلوب هو مسئولية كاملة عن الأمن الاسرائيلى ومنع المساس بهذا الأمن. وقد عبر رابين عن ذلك بقوله: «على عرفات أن يختار بين السلام وحماس»، أى السلام مع اسرائيل وما يليه من استحقاقات امنية كفلها اتفاق القاهرة:

ومع ذلك وبالرغم مما احتواه هذا الاتفاق من اشتراطات وقيود، فان المتتبع للأحداث يلاحظ بوضوح بأن اصرار رابين على تحميل عرفات مسؤولية اختطاف الجندى فاكسمان منذ اللحظة الأولى، ومطالبته اياه باطلاق سراحه واعادته سالما حتى لا تترتب على ذلك انعكاسات خطيرة، تقول أن مثل هذا الاصرار لايمكن تفسيره بالاسباب الامنية فقط، وانما هناك اسباب سياسية هى التى تدفع رابين ليس فقط لتوجيه التهديدات وانما لتنفيذها ايضا...

فالقصة عند رئيس وزراء اسرائيل لم تبدأ من حادث الاختطاف، وانما قبل هذا التاريخ ولاسيما عندما أيقن رابين بأن الجانب الفلسطينى قد حرق جميع اوراقه مع الاطراف العربية الأخرى، وأن الدور الفلسطينى لم يعد كما كان قبل وبعد مدريد وخلال فترة المفاوضات التى سبقت اوسلو، وأن وزن هذا الدور وتأثيره بعد أن ساهم بفتح بوابات المسارات العربية الاخرى، قد ابتدأ بالتراجع والتآكل وهذا عبر عن تغير استراتيجى هام فى علاقات القوى، لم يعد فيها الجانب الفلسطينى يحتل نفس اهميته السابقة..

وعلى هذا الاساس فان الجانب الاسرائيلى عندما يتعامل الآن مع القيادة الفلسطينية المحاصرة امنيا باتفاق القاهرة، وسياسيا بابتعادها وتعارضها مع الاطراف المفاوضة العربية الاخرى، فانه- أى الجانب الاسرائيلى- يضع مطالب واشتراطات واملاءات، هى أكثر بكثير من تلك التى كان يستخدمها قبل دخول الفلسطينيين فى هذا الحصار، وأكثر قوة وحدة وابتزازا، وهذا ماظهر بوضوح اثناء حادث اختطاف الجندى فاكسمان الذى استخدمه رابين ببراعة من أجل زيادة ضغوطه على السلطة الفلسطينية!

لقد ابتدأت تظهر ملامح التغير فى الموقف العام حتى قبل التوقيع على اتفاق القاهرة، وهذا ما اشار اليه وزير الخارجية الاسرائيلى شمعون بيرس فى ١٩ كانون ثانى

الماضي، أي بعد ثلاثة ايام من لقاء الرئيسين كلينتون والاسد في جنيف، بقوله للفلسطينيين «لا خيارات امامكم ونستطيع اعطاء الاولوية للمفاوضات مع سوريا على حساب المفاوضات مع منظمة التحرير. ويمكن العودة ايضا الى تصريحات وزير الخارجية السوري فاروق الشرع في تلك الفترة عندما قال: «أن تكون هناك حاجة لتنسيق اضافي بين لبنان وسوريا والاردن ومنظمة التحرير لان أحد الاطراف لا يريد الاستمرار في التنسيق».

وقد اتضحت هذه التوجهات أكثر بعد اتفاق القاهرة وعبر عنها اسحق رابين بتحديد سلم اولويات السياسة الاسرائيلية على اساس أن المفاوضات مع الاردن تأتي في المقام الاول وبعد ذلك هضبة الجولان ومن ثم الضفة الغربية.

وبعد وضع اتفاق القاهرة موضع التطبيق في غزة واريحا ، ابتدأ المسؤولون الاسرائيليون يخرجون باستنتاجات أكثر وضوحا هذه المرة حول اتفاق اعلان المبادئ وامكانية تطبيقه ففي ٢٠ ايلول الماضي نشرت صحيفة معاريف تقريرا عن اجتماع للحكومة الاسرائيلية في ذلك التاريخ جاء فيه بأن «تقديرات الحكومة والجيش هي أن اتفاق اوسلو غير قابل للتطبيق في الضفة! ولقد ألمح بيرس في مثل هذا الاستنتاج بتصريحه «لعن نكتشف في التطبيق امورا جديدة وغير متوقعة! وفي ٣٠ ايلول من هذا العام قال وزير الشرطة الاسرائيلي موشيه شاحال ان «اتفاق اوسلو لم ير مجمل المشكلات التي من شأنها أن تخلق وضعا جديدا وصعبا في الضفة وأضاف «أعتقد أنه لايمكننا الانسحاب كليا من التجمعات السكانية الفلسطينية» (كما نص اتفاق اوسلو) ، ثم قدم الوزير تفسيرا اسرائيليا جديدا للاتفاق بقوله «أن اتفاق أوسلو لاينص صراحة على انسحاب الشرطة الاسرائيلية من التجمعات السكانية الفلسطينية وانما يتعلق الامر فقط بالجيش».

وقد واكب هذه التصريحات والمواقف الاسرائيلية تعطيل شبه كامل للمفاوضات، وحتى عندما تم التوصل الى الاتفاق حول التفويض المبكر للصلاحيات ، فأنه من الناحية التنفيذية توقف عند حدود التربية والتعليم، وبعد ذلك، وعندما ابتدأت مفاوضات القاهرة حول الانتخابات في الضفة والقطاع، تقدمت اسرائيل بمجموعة كبيرة من الشروط بمافي ذلك اعطاؤها حق التدخل في تقرير من يسمح ومن لايسمح له المشاركة في هذه الانتخابات



رابين... أنا المسئول!

الأمر الذي اعتبره الجانب الفلسطيني تدخلا فظا في شؤونه الداخلية. واذا كانت المسألة هي بالفعل تدخلا في الشئون الفلسطينية فان السؤال الذي يطرح نفسه على المفاوض الفلسطيني لماذا أعطى من الاصل موافقته على التفاوض حول موضوع الانتخابات؟!.. أن مجرد اعطاء هذه الموافقة يعني الاقرار بحق الطرف الاخر في التدخل!! وهنا يجب الانتباه بأن مفاوضات القاهرة حول الانتخابات جاءت وفق الشروط الاسرائيلية وبمعزل كامل عن اعادة نشر الجيش الاسرائيلي في المناطق المحتلة وبما يعني أن هذه المفاوضات لن تسفر

عمليات اعتقال للبحث من مكان الجندي الاسرائيلي المختطف



عن أية نتائج عملية بدون الاتفاق على انسحاب الجيش الذي ترى فيه اسرائيل موضوعا معقدا وغير قابل للتنفيذ!

في هذه الظروف، وضمن هذه التغييرات، حصلت عملية اختطاف الجندي الاسرائيلي فاكسمان، وكان منطقيا وبناء على المعطيات السابقة أن يسارع رابين ليس فقط الى تجميد مفاوضات القاهرة وفرض الحصار على القطاع وانما الى ماهو أقل من ذلك ايضا مثل تجميد المفاوضات النقابية الجارية في أوسلو بين وفد الاتحاد العام لنقابات العمال في الضفة وبين الهستدروت وايضا الى تأجيل لقاء كان مقررا في تل أبيب بين رئيس بلدية غزة ووزير الزراعة الاسرائيلي. أي أن رئيس الوزراء الاسرائيلي قرر وقف أي اتصال مع الجانب الفلسطيني وتجميد كل شئ حتى تتم الاستجابة للانذار باعادة الجندي المختطف. وكان المقصود من وراء هذه الضغوط تحويل السلطة الفلسطينية الى أداة قمع ضد ابناء شعبها وهذا مايعتبره رابين هدفا اساسيا يتوجب على السلطة تنفيذه..

وعلى هذا الاساس، وبعد انتهاء عملية الاختطاف فقد ربط رابين مواصلة عملية السلام مع الجانب الفلسطيني بنجاح هذا الجانب في مجال المحافظة على الامن الاسرائيلي. وقال بهذا الصدد «أن مواصلة المفاوضات تعتمد على قدرة السلطة الفلسطينية على منع تحول قطاع غزة لقاعدة للارهاب» على حد قوله.

أن هذا يعني أن الخيار الذي ابقاه رابين مفتوحا أمام السلطة الفلسطينية هو خيار الاقتتال الداخلي وتصفية جميع مظاهر المقاومة ضد الاحتلال.. لقد رفضت السلطة الفلسطينية حتى هذه اللحظات الانزلاق الى هذا المستنقع، ولكن ماجرى في قطاع غزة من حملات اعتقال ومداهمة، وماأعقب ذلك من ردود فعل جماهيرية ومظاهرات من أجل اطلاق سراح المعتقلين تشير الى أن الأمور قد تتطور في الاتجاه غير الصحيح.. ومن أجل الحيلولة دون ذلك فان هذا يتطلب مراجعة شاملة لاتفاق القاهرة ولسياسة الحل على مراحل والتخلي عن جميع الالتزامات التي تبناها هذا الاتفاق لاسيما مايتعلق فيها بتحويل الشرطة الفلسطينية الى أداة أمنية تعمل بتعارض مع الجماهير الفلسطينية ونضالها من اجل انهاء الاحتلال عن كامل الاراضي الفلسطينية منذ عام ١٩٦٧ وتأمين حقها في تقرير المصير وإقامة دولتها المستقلة..

حكومة اسرائيل تضم الضفة الغربية بشكل غير مباشر


د. عبد الله موسى أبو عيد

قامت حكومة اسرائيل ابتداء من الأحد ١٦/١٠/٩٤ بتغيير الطاقم الاسرائيلي المشرف على معبر جسر اللنبي الذي يربط الضفة الغربية بالأردن بحيث حل موظفو «سلطة الموانئ والمطارات» الاسرائيلية التي تشرف على كافة مطارات وموانئ دولة اسرائيل - أي داخل الدولة - محل موظفي الادارة المدنية (أي الحكم العسكري الذي يمثل سلطة الاحتلال). كما تم تغيير رسم المغادرة للفلسطينيين المقيمين في الضفة الغربية بحيث أنقص هذا الرسم من ١١٦ شيكل (أي حوالي ٣٩ دولار) الى ٨٨ شيكل (أي ٢٩ دولار).

وقد مر هذا الاجراء في خضم الاحداث الهامة التي شهدتها المنطقة دون أن يعلق عليه أحد على الرغم من خطورة مغزاه فهو يرقى الى مستوى الضم الفعلي غير المباشر لكافة اراضي الضفة الغربية المحتلة. إذ من المعروف بأن الاجهزة المشرفة على الضفة الغربية هي أجهزة القيادة العسكرية لقوات الاحتلال الاسرائيلية وقد استبدلت تسميتها شكلا في عام ١٩٨١ الى اسم «الادارة المدنية» الا انها ظلت فعلا ادارة عسكرية تتناسب بشكل جزئي مع قواعد القانون الدولي الانساني التي تحكم ادارة الاقليم المحتل.

الا أن حكومة اسرائيل قامت في اواسط اكتوبر ١٩٩٤ باحتلال موظفين مدنيين اسرائيليين من مستخدمي «سلطة الموانئ والمطارات» محل مستخدمي الادارة المدنية (العسكرية) وقد مر هذا الاجراء بسكوت ودون أن يثير ايتضجة لاسباب عديدة اهمها:

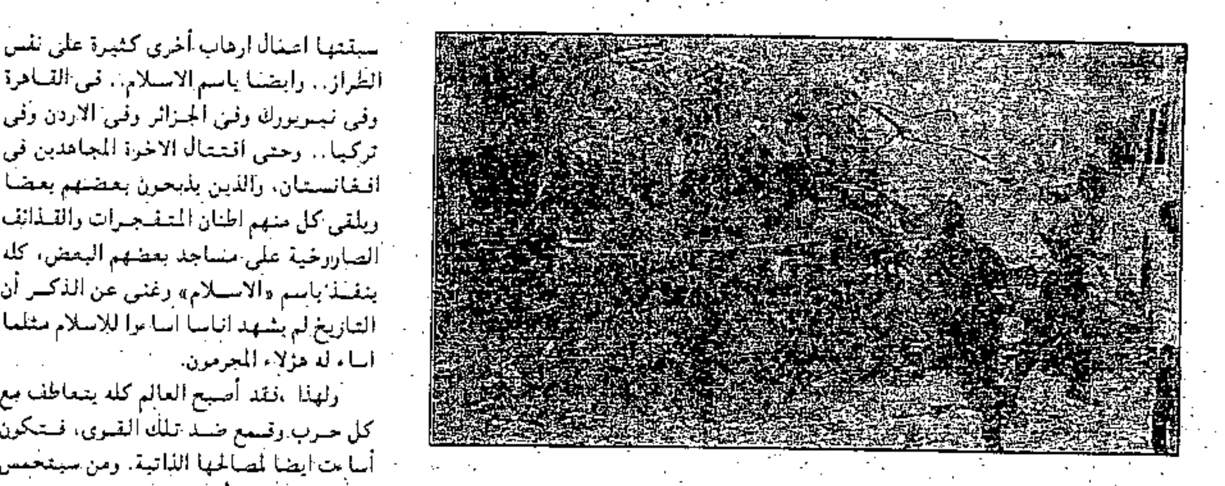
١- انه تم خلال حادث خطف الجندي نخشون فاكسمان ومارافقه من ضجة وانشغال لكافة الاطراف بحيث غطى هذا الحادث على التصرف الاسرائيلي غير القانوني المشار اليه.

٢- انه تم في وقت تنشغل فيه السلطة الفلسطينية بأمور هامة وخطيرة اهمها اغلاق القطاع وقطع المحادثات والصدام مع عناصر حماس وغيرها.

٣- أنه تم في نفس يوم زيارة كل من رابين وبيرس الى عمان وتوقيعهما على اتفاقية سلام مع الاردن.

والأهمية القانونية والسياسية لهذا الاجراء الاسرائيلي تعود الى كون الاشراف على المعابر والحدود انما يعتبر جزءا من اعمال السيادة في القانون الدولي. وخطوة اسرائيل المذكورة في ممارسة سيادتها على معبر جسر اللنبي في هذا الوقت الدقيق انما يهدف الى عدة اهداف أهمها جس نبض الفلسطينيين والمجتمع الدولي فيما يتعلق بهذه الخطوة، ثم افهام السلطة الوطنية والشعب الفلسطيني أن مطالبتهم بدولة فلسطينية. انما هو وهم يجب أن يقلعوا عن الحلم به، وكذلك اتخاذ نقلة نوعية هامة في مرحلة اعتبار الاراضي المحتلة اراضي متنازع عليها الى أراضي تحت السيادة الاسرائيلية.

وتعتبر هذه الخطوة نقلة نوعية هامة حتى بالمعايير الإسرائيلية، اذ أن اسرائيل دأبت منذ بدء الاحتلال الى اتخاذ خطوات ضم خفية وغير مباشرة اطلق عليها اسم «الضم الزاحف» الا أن هذه الخطوة انما تعتبر ضما واقعيا ارتفعيا وهو يرمز في نظر حكام اسرائيل، الى أن التفاوض سيكون حول مصير السكان وليس الارض. فالارض كانت وستظل في نظرهم تحت السيادة الاسرائيلية. ان هذه الخطوة الخطيرة من الناحية القانونية تستحق اشد الاحتجاج من قبل السلطة الوطنية وحكام الدول العربية ولو بأضعف الايمان، وهو وقف عملية التطبيع مع الدولة العبرية ووقف اجراءات رفع المقاطعة العربية.



حماس .. الضعف يدفع لاثبات الوجود!

نظير مجلي

رسالة حيفا

الحركة الاصولية الفلسطينية دخلت الى مأزق. فهي، التي تعيش على الشؤم والبأس، تواجه وضعا من الأمل، والتفاؤل بين الناس، رغم كل المصاعب. وقد بدأ نفوذها يتراجع. فقررت على طريقتها، اثبات وجودها. والطريقة: عمليات ارهاب ضد المدنيين...!! وجاء الرد الاسرائيلي: حرب تصفية. وبدأ الحديث عن تنسيق وتعاون اقليمي وعالمي لمواجهة الاصولية.

فيوم الأربعاء، ١٩تشرين الأول/ اكتبر ١٩٩٤ سلمت حركة الاصوليين الفلسطينيين المتطرفين، المسماة «حركة المقاومة الاسلامية «حماس» زمام امرها الى رئيس حكومة اسرائيل، يتسحاق رابين، واجهزته العسكرية والمخابراتية. فكعادة هذا النوع من الحركات الاصولية، التي تختار طريق العنف الأعمى وقتل المدنيين الابرياء، أعطت لحكومة رابين كل الاسلحة اللازمة لشن حرب تصفية عليها. وبدأت هذه الحكومة، خلال ساعات، تنفيذخطة شاملة لضرب «حماس» القيادة والنشطاء.. والقضاء على بؤرهم الاساسية. شبان في عمر الورد، سيجدون انفسهم قتلى أو جرحى او نزلاء الزنازين الرهيبة والتعذيب.

رابين واثق من أنه يستطيع الآن عمل كل مايريد لتصفية حماس. فشعبه والعالم أجمع يقف معه بعد أن رأوا مافعلته عملية حماس في شارع ديزنكوف الرئيسي في تل أبيب وهذه ليست عملية مقاومة عسكرية ضد عسكريين، ولا عملية فدائية ضد موقع سلطوي، إنما هي عملية تفجير انتحارية، أدت الى قتل عشرين شخصا وجرح خمسين شخصا آخر. بينهم يهود، وبينهم عرب، بينهم رجال ونساء وحوامل واطفال ومسنون.. وكلهم مدنيون.

لقد شاهد ملايين الناس، من على شاشات التليفزيون في العالم أجمع، صور الضحايا. جثث ممزقة. أشلاء بشر متناثرة. جثة بلا رأس. وراس بلا أطراف. امعاء متفجرة على الارض. شعر فتاة ملتصق بالدم على عامود كهربا.. رجل ســن طار القسم العلوي من رأسه، أمرأة تغطي الدماء وجهها وكل جسدها شباك بيت طارت بد من احدى الجثث فكسرت زجاجة وجوه، محروقة تماما، لا يعرف لها شكل ولا اصل.. ولا أحد يفلح في معرفة صاحبها. مئات المواطنين يلتفون حول المكان.. يريدون الاطمئنان على اولادهم وافراد عائلاتهم الذين يتوقعون انهم كانوا في المكان قبل الانفجار. قلق هستيري. غضب بلا حدود ولا قيود.

هذه المناظر المرعبة وغيرها، تعرض أمام العالم كله على أنها من «ابداع» حركة المقاومة الاسلامية. وتنفذ باسم «الاسلام». ولما كانت سبقتها اعمال ارهاب أخرى كثيرة على نفس الطراز.. وايضا باسم الاسلام.. في القاهرة وفي نيويورك وفي الجزائر وفي الاردن وفي تركيا.. وحتى اقتتال الاخوة المجاهدين في افغانستان، والذين يذبحون بعضهم بعضا ويلقي كل منهم اطنان المتفجرات والقذائف الصاروخية على مساجد بعضهم البعض، كله ينفذ باسم «الاسلام» وغني عن الذكر أن التاريخ لم يشهد اناسا اساءوا للاسلام مثلما اساء له هؤلاء المجرمون.

ولهذا، فقد أصبح العالم كله يتعاطف مع كل حرب وقمع ضد تلك القوى، فتكون أساءت ايضا لمصالحها الذاتية. ومن سيتحمس لتصفيتها عندئذ أكثر من رابين؟!

لقد جاءت عملية التفجير في تل ابيب، استمرار السلسلة عمليات ارهاب تحملت حركة حماس مسؤوليتها، بينها عملية اختطاف الجندي «نحشون فاكسمان» الذي رفضت اسرائيل التفاوض مع خاطفيه من حركة «حماس» وحاولت تحريره بالقوة فقتل وقتل معه ضابط اسرائيلي آخر وثلاثة من الخاطفين وضبط بقية الخاطفين. وقد وقعت فقط قبل خمسة ايام من عملية تل ابيب، وقبلها باسبوع تبنت «حماس» عملية انتحارية أخرى في قلب مدينة القدس الغربية، اذ دخل أثناء سير حماس الى السوق المليئ بالمتنزهين المدنيين (عربا ويهودا) وراحوا يطلقون الرصاص عليهم.. مما ادى الى مقتل المهاجمين الفلسطينيين وشابة يهودية وشاب عربي.

لقد اعلنت حركة «حماس» أن عملية تل ابيب جاءت ردا على توقيع مسودة معاهدة السلام الاردنية- الاسرائيلية. وأن عمليتي القدس والاختطاف جاءتا ردا على ممارسات رابين. واعتبرت الرئيس الفلسطيني، ياسر عرفات، ومنظمة التحرير وأفراد الشرطة الفلسطينية عملاء لاسرائيل وخونة ووعدت أن تواصل هذه العمليات حتى تسقط حكومة رابين وحكومة عرفات وعملية السلام الاستسلامية.

***

علينا أن نعترف اولا أن مثل هذه الاهداف، قد تجد آذانا عربية صاغية.. كثيرة وفي العديد من بقاع الوطن العربي. فمن شأن بسطاء امتنا العربية، وخصوصا المتضررين مباشرة من سياسة التشريد والقمع والاحتلال، أن تغريهم التصريحات وتفتنهم. ولكن، ما هي النتيجة الفعلية لمثل هذه العمليات وأهدافها؟.

اولا- أن هذه هي الأهداف نفسها التي

يضعها لنفسه اليمين الاسرائيلي المتطرف وكل قوى العنصرية والفاشية اليهودية فاليمين العنصري الاسرائيلي واليمين العنصري العربي، وكلاهما متعصب أصولي.. دينيا وسياسيا، يلتقيان في طريق رفض أية امكانية للتعايش بين الشعبين والوصول الى أية صيغة تفاهم وسلام. لكن هناك فرقا كبيرا في وضعية كل منهما. فاليمين العربي عاصر سياسيا واجتماعيا. دولة اسرائيل، التي ساعدت على تأسيس حركة حماس في بداية طريقها (أواخر السبعينات) لكي تكون ندا ثانيا لمنظمة التحرير وعنصرا فاعلا في صراع فلسطيني- فلسطيني لاينتهي، لم تعد محايدة وصارت تضع نصب عينيها مهمة محاصرة «حماس» ومن ثم تصفيتها (تنظيميا وعسكريا). فيما اليمين الاسرائيلي يعمل بحرية. وقد نفذ احد عناصره مذبحة مشابهة، مجزرة الحرم الأبراهيمي الشريف في الخليل في شباط/ فبراير ١٩٩٤.

ثانيا- ليس خافيا على الناس أن حركة «حماس»، وفي عملياتها الأخيرة، أظهرت ضعفا ومحاولة اثبات وجود.. بعد سلسلة اخفاقات وتراجعات فاتفاق اعلان المبادئ الاسرائيلي- الفلسطيني، وعلى الرغم من نواقصه ونقاط ضعفه، فتح أمام المواطنين باب أمل كبير لتحقيق السلام والاستقرار والاستقلال.. خصوصا بعد عودة الوف النازحين والقادة وفي مقدمتهم ياسر عرفات وبعد رؤية سلطة فلسطينية على الارض وشرطة وعلم (لاول مرة في تاريخ هذا الشعب) وبعد الحصول على أموال دعم وبدء اقامة مشروعات تطوير واماكن عمل جديدة تفتح الافاق لحل الازمة الاقتصادية الرهيبة. ونحن نعرف ان الامل والتفاؤل هما أكبر عدو للاحزاب والحركات الاصولية امثال «حماس» فبدأ نفوذها يتراجع. بدأ الناس ينفضون عنها. وحتى في المناطق الفلسطينية، التي مازالت محتلة، لم يعد الناس يلتزمون بالاضرابات التي تعلنها «حماس» ولذلك خففت اضراباتها. وصارت تلجأ الى أعمال فردية لاتحتاج الى شبكة جماهيرية. في قطاع غزة لم تعد الصبايا والنساء يخشون «حماس» ويرتدين الحجاب خضوعا لها، بل بدأت تنتشر ظاهرة نزع الحجاب والنزول الى شاطئ البحر للاستحمام مثل الرجال والتنزه. وفي المعارك الانتخابية التي خاضتها «حماس» خسرت معظم مواقعها القيادية (في مجالس الطلبة في الجامعات وفي النقابات). هذا كله جعل «حماس» تشعر بأن البساط يسحب من تحت اقدامها. فلجأت الى عمليات عسكرية كهذه.. يقوم بها افراد لكن اثرها يكون ضخما. وهكذا كان فعلا.

ثالثا: ارادت «حماس» من عملياتها أن تؤدي الى تدهور في مفاوضات السلام الاسرائيلية- الفلسطينية فقد اعتقدت أن عملياتها ستحرج رابين أمام شعبه وستجعله يتخذ اجراءات ضد السلطة الوطنية الفلسطينية

فقد اهتمت بشكل خاص أن تظهر، خلال العمليات أن مصدرها قطاع غزة الخاضع للسلطة الفلسطينية. فاذا لم تكن هذه السلطة قادرة على لجم حركة «حماس» في القطاع لاتكون السلطة. ولا تستحق استقلالا. وتصورت «حماس» السيناريو الثاني: رابين يتخذ اجراءات قاسية ضد الفلسطينيين والسلطة الوطنية. يقطع المفاوضات. الفلسطينيون يردون بغضب، تنتشر المظاهرات والاضرابات والصدامات. ونعود الى الوضع السابق.

في البداية، انساق رابين فعلا وراء مخطط حماس. فبعد خطف الجندي بشكل خاص، اعلن رابين عن محاصرة قطاع غزة ومنع العمال من العمل في اسرائيل (مما يعني تجويع ٦٠ ألف عائلة فلسطينية تعتاش من وراء عمل رجالها في اسرائيل) واعلن عن وقف مفاوضات السلام وحمل ياسر عرفات شخصيا والسلطة الفلسطينية عموما، المسئولية عن تلك العمليات.

وهذا بالضبط ما ارادته «حماس» فتراجع رابين، خصوصا عندما اتضح أن الاختطاف تم في اسرائيل نفسها وان المختطفين هم بالاساس من القدس العربية وليس من غزة وانهم احتجزوا الجندي المخطوف في دار سكن قرب رام الله وليس في غزة.. أي أن كل نشاط حماس هذا تم في ظل سيطرة الاحتلال الاسرائيلي.

لذلك، عند تنفيذ عملية الباص في تل ابيب، غير رابين لهجته. وقال أنه لايريد أن يعطي حركة «حماس» ماتريد ولن يسمح لها بتفجير عملية السلام. وانه يؤمن بالحل المبني على الفصل بين الشعبين. هذه لنا وهذه لكم. وفي الوقت نفسه وعد بمعالجة موضوع حماس بالاسلوب المناسب لها. وقرر سلسلة اجراءات عسكرية وسياسية وقانونية.

رابعا- اعلن رابين أن المنتحرين الذين ارسلتهم حماس لقتل انفسهم وقتل آخرين معهم، قدموا من الضفة والقطاع.. بوصفهم عمالا يفتشون عن عمل في اسرائيل. ولذلك، قرر فرض حصار على المنطقتين ومنع العمال من الخروج الى اعمالهم في اسرائيل. ومثل هذا الحصار يعني تجويع الناس، فهو لا يستعمل لاول مرة. والاوضاع الاقتصادية للمواطنين متدهورة أصلا، ويعتبر العمل في اسرائيل باب الرزق الاساسي.

وفي زمن الانتفاضة، كان العمال يتذمرون من الاضرابات الوطنية لانها تؤدي الى خسارتهم الاقتصادية الكبيرة.. فضلا عن خسائر التجارة ايضا (فاذا لم يكن هناك نقود مع العمال، لن يشتروا من الحوانيت). والحصار يعيدهم الى هذا الوضع، والمواطنون يحملون مسؤولية هذا الحصار لعناصر «حماس» وليس فقط السلطة الاسرائيلية. والتذمر والمرارة كبيران جدا في هذا الموضوع وقد يتحولان الى انفجار شامل ضد كل الاطراف.

***

.. هكذا أن ما ترمي اليه «حماس» من عملياتها.. حتى لو تحقق جزئيا، فانه بالتالي لا يعود عليها بالنفع بل بالعكس، فقد تكون نتائجه مدمرة لها ولأعضائها.

لكن مايحدث هو أن هذه العمليات تضع المنطقة على حافة انفجار خطير. وقد بدأت مختلف الاطراف المقررة تدرك ذلك، خصوصا في واشنطن والقاهرة وغزة وعمان.. وفي القدس. وكما يبدو فان هناك من يسعى لربط خيوط من التعاون والتنسيق فيما بين تلك العواصم، لأجل مواجهة أخطار حماس وأمثالها بأسلوب كماآخر.

وهنا تكمن القضية. فالأنظمة المذكورة سبق لها وأن دخلت في مواجهات مع الحركات الاصولية المتطرفة. ومن المعروف أن هذه المواجهات اقتصرت على محاربة العنف بالعنف او بعض الطرق، ولكنها لم تعتمد ولا حتى مرة واحدة اسلوبا عمليا في مكافحة الظاهرة.. بشكل جذري، لم تحاول القضاء على الاسباب التي دفعت الى هذا الاسلوب من العمل الاصولي والنفوذ الكبير الذي يحظى به بين الناس. فقمعت بلا رحمة، وملأت السجون بالمتدينين. وتجاهلت الازمة الاقتصادية- الاجتماعية. وهكذا كان، عمليا تعاون بين تلك الانظمة وبين الحركات الاصولية.. الواحد منهما يكمل الآخر. وجاءت اموال ايران لتجعل منه حربا منظمة تحرق الاخضر واليابس.

فمن سينجح في هذه الحرب؟

وكيف؟

ألن يكرروا الآن اخطاء الماضي؟!.

مواجهات ساخنة فى مؤتمر اليونسكو بتونس

تونس من مراسل اليسار

شهدت ندوة «الجوانب الرئيسية للإبداع الروائى و الشعرى فى العالم العربى على مشارف القرن الحادى والعشرين» التى نظمتها اليونسكو بالتعاون مع وزارة الثقافة التونسية ونادى «القلم» الدولى فى ١٩-٢٣ سبتمبر بتونس، عدة مواجهات تمثل مؤشرا واضحا للعمل الثقافى العربى فى المرحلة القادمة.

فلم تعلن القائمة الكاملة للمشاركين إلا قبل انعقاد المؤتمر بساعات وتضمنت حضورا مكثفا للعناصر اليهودية فضلا عن مندوب إسرائيلى يدعى **سامى ميخائيل**. ودارت اتصالات وراء الكواليس أسفرت عن وعد من منظمى المؤتمر بأن ينسحب الكاتب الإسرائيلى. لكن الجلسة الصباحية ليوم الأربعاء ضمته بين الجالسين على المنصة كما ضمت أيضا الروائى المصرى صنع الله إبراهيم. واستهل الأخير كلمته بالإشارة إلى تركيب المشاركين ملاحظا غياب فعاليات هامة مثل الكاتبة العربية والشعراء الفلسطينيين بينما يوجد البعض «الذين ليسوا عربا ولايكتبون العربية، كما أنهم ليسوا مستشرقين أو باحثين، فى إشارة واضحة للكاتب الإسرائيلى.

وعندما جاء دور الأخير فى الحديث طلب القاص اللبنانى **إلياس خورى** الكلمة من القاعة وقال أنه يستغرب وجود كاتب إسرائيلى فى ندوة تناقش الإبداع العربى وأضاف: «**على حد علمى أن إسرائيل ليست دولة عربية بل وتحتل دولا** عربية. وأنا أحتج على اليونسكو لأنها لم تعلمنا بوجود كاتب اسرائيلى حتى نستطيع أن نقرر الحضور أو عدم الحضور. فاليونسكو لم تستدع كاتبا عربيا فى المؤتمر الذى نظمته لمناقشة إبداع أمريكا اللاتينية مثلا.


اميل حبيبى


أدونيس

وطلب الشاعر المغربى **محمد بنيس** الكلمة وقال: «إن المسألة منهجية وأنطولوجية. نحن لسنا ضد الحوار ولكن هذا المكان ليس للحوار السياسى فهل فقد العالم العربى حتى حق أن يحدد أدبه.. هل أصبحنا بحاجة الى مؤسسات أخرى تعين لنا أدبنا وحدودنا فى حين أن فرنسا مثلا لاتسمح لأحد أن يفعل لها هذا. إننا نرحب بالصديق سامى ميخائيل لكن الجلسة الآن حول الأدب العربى والعالم العربى.

وأضاف الناقد السورى **كمال أبو ديب** أن الموقف الذى أبداه إلياس خورى ليس موقفا فرديا وإنما هو موقف الكتاب العرب والمشاركين فى الندوة

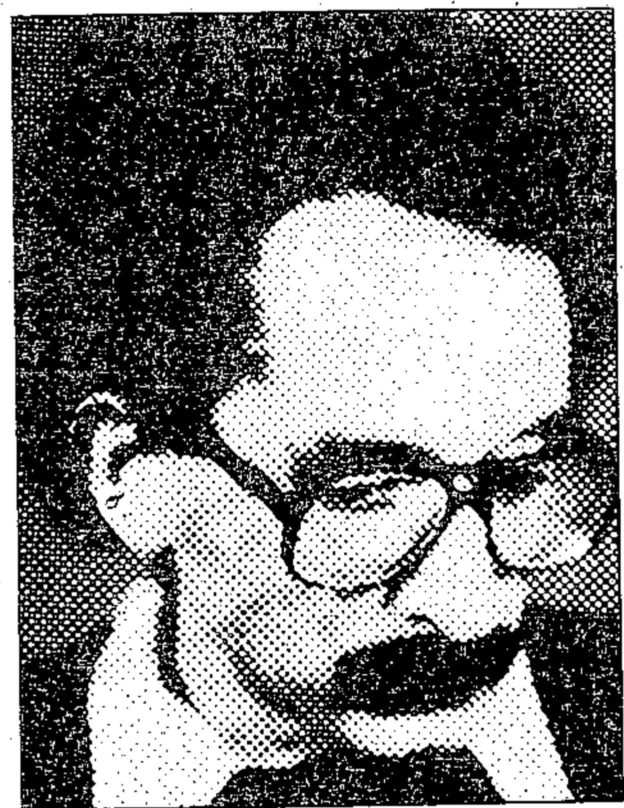
وهنا اعترض **إميل حبيبى** قائلا أنا لم أتفق مع أحد ولم يستشرنى أحد وأنا ضد كلام إلياس خورى الذى يزج بالقضايا السياسية بدون موجب.

السفير الإسرائيلى هو الذى طلب!

وأخذت ممثلة المدير العام لليونسكو الكلمة فقالت أنها مع حق الكتاب العرب فى أن يساهموا و يحددوا حدود وثوابت الأدب العربى. أما دعوة سامى ميخائيل فكانت بطلب من سفير إسرائيل فى باريس وقد قبلنا طلبه فى ضوء الظروف الحالية.

وطلب رئيس المنصة، وهو الشاعر اللبنانى **صلاح ستيتية**، من مقرر الجلسة أن يسجل تصريح ممثلة اليونسكو.

ثم تحدث **سامى ميخائيل** وقال أنه يحترم رأى الكتاب العرب ورغبتهم فى أ لايشارك فى الندوة وهو على استعداد للإجابة على أى سؤال طالما أن الكتاب العرب لايرغبون فى مشاركته. وعندما لم يوجه إليه أى سؤال تم تجاوزه ومنحت الكلمة للكاتبين المعروفين باسم واحد هو **محمود حسين (عادل رفعت وبهجت النادى)** فدافع عن اليونسكو مذكرا أنها منظمة عالمية ومن حقها أن توجه الدعوة لمن تريد. وهنا قاطعه **صلاح ستيتية** وطلب منه أن يقدم



صنع الله ابراهيم

جمال الغيطاني

مداخلته فقط لأن الموضوع حسم.

إميل حبيبى مرة أخرى

وتفجر النقاش من جديد فى الجلسة الختامية عند قراءة التقرير النهائى الذى أعده **محمد برادة** والذى أشار فى مقدمته الى موضوع الكاتب الإسرائيلى إذ اعترض **إميل حبيبى** بشدة وقال أن هذه الحادثة إذا زردت فى التقرير ستكون فضيحة وأنها تتعارض مع موقف القيادة الفلسطينية (!!!) وأنه لا داعى لأي تقرير بالمرة.

وحاولت ممثلة اليونسكو إيجاد مخرج فاقترحت أن يتم تسجيل اعتراض إميل حبيبى، فاشترط صنع الله ابراهيم أن تذكر كل التدخلات والاعتراضات ومن بينها تصريح ممثلة اليونسكو بشأن دور السفير الإسرائيلى.

والقلم الدولى أيضا!

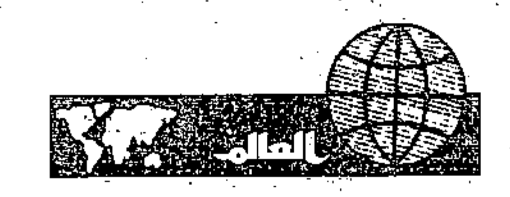
المواجهة الثانية أثارها رئيس القلم الدولى رونالد هاروود، الذى تحدث مرتين داعيا الى حرية التعبير والتسامح والإنفتاح على الآخر. ضاربا المثال بنفسة إذ قال أنه ولد يهوديا فى جنوب افريقيا لكنه لم يسجن نفسه فى هذا الإطار. وتمنى أن يتخلص المثقفون العرب من إصرارهم على إلحاق صفة «العربى» بكل شئ وأن يهتم المبدعون بالذات الفردية. وهنا طلب **جمال الغيطانى** الكلمة واستنكر اللهجة الابوية التى استخدمها المتحدث الذى اعتذر على الفور وابدى صنع الله ابراهيم عجبه من أن يطلب من الانسان أن يخلع جلده، ذكرر رئيس القلم اعتذاره.

وأخيرا: أدونيس!

ولم يكد المؤتمر يختتم عمله، حتى صعد الشاعر السورى **أدونيس** والكاتب التونسى المقيم بفرنسا و الذى يكتب بالفرنسية **عبد الوهاب مؤدب** الى المنصة وقال الأول أنه سيقرأ بيانا سيعرض على كل الكتاب العرب للتوقيع عليه وذكر أن هناك من الكتاب المشاركين من رفض التوقيع وكان يقصد جمال الغيطانى وصنع الله ابراهيم.

وقرأ البيان الذى يستنكر الممارسات الدموية للحركات الأصولية التى تشوه الوجه الحقيقى للإسلام ويطالب بتحكيم العقل وإرساء الديمقراطية والحوار الحقيقى عوضا عن العنف والغاء الآخر.

وبعد أن انتهى من قراءة البيان أعطى الكلمة **لعبد الوهاب مؤدب** لقراءة نسخة فرنسية منه ورفض أن يمنح الكلمة **لصنع الله ابراهيم** الذى أصر على الكلام وانفعل قائلا أن البيان مضلل وموجه أساسا للغرب لأنه لايذكر غير جانب واحد من القضية ويغفل العوامل الأساسية التى أفرزت ومازالت التطرف والعنف وهى التراث الاستعمارى والهيمنة الغربية ومخططات استنزاف الشعوب العربية واستمرار الاحتلال الإسرائيلى وفساد الأنظمة وغياب الديموقراطية. وأضاف **جمال الغيطانى** أن بيانا مثل هذا لابد أن يندد بالدول الغربية التى تحتضن التيارات المتطرفة وتأوى زعماءها وتمول الحركات الأصولية. وتحدث **إلياس خورى** فقال أنه قد وقع على البيان لكنه مازال يراه قاصرا او كان لابد من أن يتضمن إشارة لخلفيات التطرف والعنف.





الرئيس كلينتون يودع الرئيس الهايتى قبل عودته الى بلاده

الاحتلال الأمريكى

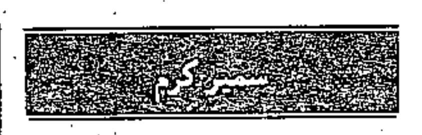
سبق الثورة الى هايتى

فى أزمة طاحنة -سياسية واقتصادية واجتماعية - ليست الأولى من نوعها فى تاريخه، بل لعلها العاشرة منذ بدايات القرن الحالى، وجد شعب هايتى نفسه مخيرا بين الخضوع لمجموعة من الحكام العسكريين تفرضها عليه ارستقراطية ثرية تسيطر على الأرض ،ومن عليها.. وبين الاحتلال الأمريكى الذى سبق أن جرى من قبل.. وكان الاحتلال الأمريكى نفسه هو الذى مكن الارستقراطية المستبدة من أن تهيمن على هايتى قبل أكثر من ستين عاما.

أما لماذا لم يجد شعب هايتى خيارا آخر غير هذين الخيارين فلأن الخيار الذى يفضلون والذى يكمن فيه خلاصه من الارستقراطية المستبدة وأداتها فى جيش هايتى كما يكمن فيه تخلصه من خطر الاحتلال الأمريكى، هو خيار مصادر من البداية.

لهذا فان آخر من يمكن أن يصدق شيئا من الصورة الاعلامية الأمريكية عن الاحتلال العسكرى الأمريكى لهايتى هو شعب هايتى نفسه.

قد يصدق الرأى العام الأمريكى أن قواته



رسالة واشنطن

ذهبت الى هايتى لدعم الديمقراطية وتخليص البلد من حكامه العسكريين القساة.. أى أن القوات الأمريكية هى فى **«مهمة تحرير»** وليست فى **مهمة احتلال** ، وأن هذا الاحتلال لايرمى الى تدعيم المصالح الأمريكية ، انما يرمى الى توطيد دعائم الديمقراطية والرخاء وتحقيق مصالح شعب هايتى.

لكن الشعب فى هذه الجزيرة يدرك بخبرة التاريخ، وبالاحتكاك المباشر بالاحتلال الأمريكى، والاحتكاك المباشر بالمصالح الأمريكية فى بلاده، يدرك تماما أن الراجهة الديمقراطية ليست أكثر من واجهة. هناك أسباب عديدة نظرية وعملية تحول دون اعتبار القوات الأمريكية فى مهمة تحرير فى هايتى.

كل ما فى الأمر أن هذه الأسباب خافية بالذات على الرأى العام الأمريكى.. غارقة تحت أمواج وأمواج من المعالجات الاعلامية التى لاتخرج عن أحد خطين رئيسيين: خط يذهب باتجاه معارضة مهمة القوات الأمريكية باعتبار أن هايتى لاتشكل فى ظل حكامها العسكريين أى خطر على المصالح الأمريكية، وأن رئيس هايتى الشرعى ارستيد لايؤمن على الديمقراطية ،خاصة فى نصف الكرة الغربى.

السبب الحقيقى لإقدام الولايات المتحدة على احتلال هايتى بهذه السرعة بعد تردد طويل .. وبعد أن بدا أن غزوها بالقوة كان أمرا لا مفر منه.. هو قنبلة اخبارية ذات دوى هائل .. لو انها فجرت أمام الكونجرس فى واشنطن، أو فى ميدان **«تايمز سكوير»** أمام مبنى صحيفة **«نيويورك تايمز»** أو فى مانهاتن أمام مقر الأمم المتحدة. أما تفجيرها تحت الأرض فإنه يحولها الى صيحة غير مسموعة وسط صخب الخلاف بين مؤيدى سياسة الرئيس كلنتون ومعارضيه.

السبب فى جملة واحدة أن واشنطن **أقدمت عندما أدركت أن تحرك الهايتيين بأنفسهم للتخلص من حكامهم العسكريين وشيك الوقوع.**

بل أن خطة الغزو- التى أصبحت خطة «الدخول»- العسكرى الأمريكى أعدت قبل شهور على أساس تحقيق هدف منع القوى الشعبية الهايتية من الاستيلاء على السلطة وخلع العسكريين .. لأن ذلك كان معناه **التخلص أيضا من النخبة التى تشكل قاعدة النفوذ الأمريكى الاقتصادى والسياسى فى هايتى .** كان معناه قيام حكم مناهض للولايات المتحدة، مقاوم للخطط الأمريكية فى هايتى.

بتعبير آخر فإن التدخل العسكرى **الأمريكى تم استباقا لتحرك شعبى عارم يأخذ السلطة بيديه ويقيم «نظاما متطرفا» حيث لايمكن كبح جماح رغبات الانتقام وبالتالى إراقة** الدماء فى هايتى. وبهذا المعنى فأن الاحتلال الأمريكى يتجه نحو هدف أساسى هو **احتواء** ثورة **شعب هايتى ضد حكامه العسكريين ومؤيديهم من الأغنياء** الذين يستندون الى حماية أمريكية أكيدة سواء كان الحكم للجنرال **سيدراس** او الرئيس **اريستيد.**

ولدى القوات الأمريكية تعليمات واضحة باستخدام كل الوسائل- بما فى ذلك نيران الأسلحة الخفيفة والثقيلة- لاحتواء «تمرد الجماهير» الهايتية. التعليمات التى زود بها

القادة العسكريون لعملية «دعم الديمقراطية» تقضي «بعد السماح للهايتيين بتكوين فكرة في رؤسهم بأن باستطاعتهم أن يفعلوا ماشاءوا».

لاتستند هذه المعلومات الى مجرد الشواهد التي تتضح من نصوص الاتفاق الذي توصل اليه الرئيس الأسبق كارتر وحكام هاييتي العسكريين، والتي تتضح من ملامح التعاون بين القيادة الامريكية وقادة جيش هاييتي وأيضا قادة الشرطة.. انما هي تستند أساسا الى الاحياء الفوري للتنسيق بين عمليات المخابرات الأمريكية ومخابرات هاييتي (وهي جزء مهم من جهاز الحكم العسكري الذي يفترض أن القوات الأمريكية دخلت لاقصائه).

لقد بدأت القوات الأمريكية فور «دخولها» هاييتي في فتح ملفات للمعلومات عن الجماعات والأفراد، لكنها بالطبع ليست ملفات ورقية. هذه فات بياناتها. انما ملفات داخل «الكومبيوتر». وفي الوقت نفسه بدأت على الفور اقامة مراكز اعتقال للمدنيين تحت اشرافها.. شبيهة بتلك التي أقامتها القوات الأمريكية. اثر غزو بنما في ختام عام ١٩٨٩.

وقد رافق القوات الأمريكية الى داخل هاييتي عدد من عناصر وكالة - المخابرات المركزية المتخصصين في أساليب كشف التنظيمات المدنية المعادية وقمعها وجمع عناصرها وجمع المعلومات عن نشاطاتها. وأول المصادر التي يتم جمع هذه المعلومات منها هي العناصر العسكرية التي يتزعمها الجنرال راؤول سيدراس. ولكن هذه المصادر تشمل ايضا التنظيمات اليمينية المتطرفة التي يرلها أغنياء هاييتي والأقلية الضئيلة من الأقلية الارستقراطية التي اعتادت على حماية نفسها من الغوغاء باقامة حلقات من الجماعات المسلحة لهذا الغرض. وقد أطلق على هؤلاء في هاييتي وصف «الملحقين» أو «حاملي الحقائب»، لأنهم يحملون حقائب أنيقة يبدون بها كالدبلوماسيين .. في حين أن هذه الحقائب تحمل بداخلها أسلحة الاغتيال.. من المسدسات كاتمة الصوت والقنابل اليدوية ، وحتى الخناجر..

وقد أكد مسئول في «شعبة العمليات السيكولوجية» في الجيش الأمريكي لآلان نيرن الباحث المتخصص في شئون أمريكا اللاتينية - قبل وقت قصير من دخول القوات الأمريكية هاييتي- أن هذه القوات ستقوم بعملية ، احتواء للحركة الشعبية. وسيتطلب ذلك منع المظاهرات العامة وأشكال الاحتجاج الأخرى.

ويقول نيرن - في بحث نشرته أسبوعية «ذي نيشن» (الأمة) الأمريكية اليسارية (٣/١٠/٩٤) - أن واشنطن سبق أن تدخلت الى جانب انقلاب عسكري لخلع دكتاتور هاييتي السابق جان **كلود دوفالييه** عندما أدركت أنه يمكن أن تسبقها الى ذلك «انتفاضات شعبية هائلة»... مع أن المخابرات الأمريكية غضت الطرف لعدة سنوات عن نشاطات دوفالييه قبل ذلك، وحتى بعد أن اكتشفت أن إحدى المزارع التي يملكها كانت تستخدم كقاعدة لتهريب الكوكايين الى الولايات المتحدة.

وكان مسئول كبير في «البنتاجون» ممن تقع على عاتقهم مسئولية رسم سياسة قوات الاحتلال الأمريكية في هاييتي قد صرح- في حديث «ليس للنشر» وفقا لقواعد العلاقة بين المسئولين الأمريكيين والصحافة- بأنه من المرجح أن يتم تسيير «دوريات مشتركة من الجنود الأمريكيين ونخبة قوات الشرطة الهاييتيه لحفظ النظام في حالة ما إذا حاول أحد أن يبدأ ثورة» . وقال أيضا أن المتمردين الذين يحتمل أن يتحركوا يشملون الأشخاص الذين يعملون في إطار تنظيم لافالاس».. «ولافالاس»هو الائتلاف السياسي الذي تمكن من تحقيق صعود الرئيس اريستيد الى السلطة بالانتخاب.

والأمر الذي ينبغي ملاحظته أن تصريحات هذا المسئول الكبير كانت في أول شهر سبتمبر الماضي . قبل فترة من دخول القوات الأمريكية هاييتي «بلاغزو».

وقد توقعت شعبة العمليات السيكولوجية في الجيش الأمريكي- قبل دخول هاييتي بأسابيع قليلة- أن «يهلل الهاييتيون لدخول القوات الأمريكية لخلع الجنرال سيدراس ، ولكن المشاعر المعادية لأمريكا وبعدها مباشرة الهجمات ضد القوات الأمريكية تصبح متوقعة في غضون عدة أسابيع. قد يقل هذا الاحتمال بعد أن عاد أريستيد سريعا الى الرئاسة في هاييتي، لكن حتى في هذه الحالة **فإن خطر حدوث انتفاضة خطيرة سيمضي إذا لم تتحقق لتطلعات الشعبية سريعا. لهذا لابد من أن ننشر على أوسع نطاق أننا لن نسمح بأي شئ من هذا القبيل».**

ونقل الباحث آلان نيرن عن مسئول في مخابرات الجيش الأمريكي قوله أن القوات الأمريكية المرابطة على سفن في مواجهة شواطئ هاييتي (أي قبل دخول هذه القوات الى هاييتي) كانت قد استبدلت ماتحمله على هذه السفن من أسلحة مضادة للمدرعات وما الى ذلك «بأسلحة السيطرة على الجموع» مثل الدروع وأقنعة الغاز«والهروات».

ونقل نيرن أيضا عن ضابط مخابرات أمريكي مخضرم في سلطة الكاريبي قوله «ان الأولوية المبكرة لقوات لاحتلال تتمثل في توفير الأمان لأولئك الذين تلقوا تعليمهم في الولايات المتحدة. ورجال الأعمال الهاييتيين .. ذلك أن ثمة حاجة لمنع الطبقة المتوسطة من الفرار تحت وطأة الخوف من أن يتمرد عليهم خدمهم ، أو الخوف من أن يعودوا يوما الى بيوتهم ليفاجأوا بأن العامة قد انتقلوا اليها.. أو أشعلوا النار فيها».

وعن دور أريستيد في المرحلة المقبلة. يقول هذا الضابط المخضرم في المخابرات الأمريكية أن أفكار أريستيد الاصلاحية وبرنامجه الاقتصادي قد أصبحا من ماضي التاريخ ينبغي أن لايتوقع أحد إحياءها. ولعله (أي اريستيد) يعرف الآن أنه لو جرؤ بيل كلنتون نفسه على تقديم اقتراح بزيادة الحد الأدنى للأجور الى الضعف (كما كان اريستيد يعد بالنسبة لهاييتي)، «ولعلقوه (أي كلنتون) على المشنقة داخل الكونجرس»..

ضابط مخابرات آخر- من قلة لم تمانع في ذكر إسمها- هو الميجور **لويس كيرتيمان**، وكان ملحق «وكالة المخابرات الدفاعية» (التابعة للبنتاجون) في هاييتي خلال الفترة

***القوى الشعبية في الجزيرة لاتخدعها شعارات «دعم الديمقراطية».**

*** عودة الرئيس المنتخب اريستيد ليست أكثر من فترة انتقالية قصيرة.**

*** قبل دخول القوات الأمريكيين هاييتي مباشرة تم تبديل اسلحتها بأسلحة لقمع «الاضطرابات» والسيطرة على الجموع.**

من ١٩٨٩ الى ١٩٩١- يقول أن وقوع انتفاضات عامة أمام أعين عدة آلاف من «المراقبين الدوليين» (يقصد القوات الأمريكية والقوات الرمزية المساندة لها من عدد من الدول) أمر مشكوك في حدوثه. إن هذا النوع من السلوك القذر ممكن فقط حين لا يكون هناك من يراقب.. وعلى أي الأحوال فلقد حاولوا ذلك في هاييتي من قبل فكان أن نالوا سنتين من الحظر (يقصد العقوبات الاقتصادية) ونالوا ذهاب رجلهم الضئيل (يقصد ارستيد) الى المنفى الذهبي في الولايات المتحدة».

ويضيف **كيرنيسان** أن **أريستيد** «متطرف خارج التيار لرئيس في هاييتي.. لاشك أنه كان يحظى بشعبية .. خاصة بين المسحوقين ، الا أنه لم يأخذ احتياجات الطبقة المتوسطة والجيش والقطاعات الأخرى ذات النفوذ في الاعتبار».

كيرنيسان هو الآن واحد من الشخصيات الرئيسية في سلطة لاحتلال التي تقوم القوات الأمريكية بفرضها تدريجيا على هاييتي. وقد عهد اليه بمهمة إعادة بناء شرطة هاييتي. وهو يؤدى هذه المهمة في اطار شعبة متفرعة عن المباحث الجنائية الأميركية (إف. بي. أي) وهي شعبة أنشئت عام ١٩٨٦ في عهد ريجان لتدريب قوى الأمن الداخلي في بلدان مثل جواتيمالا والسلفادور.. وها قد جاء دور هاييتي.

***

ماهي خطة قوات الاحتلال الأمريكية في هاييتي في ضوء هذه المعلومات التي لو نشرت دون أن تنسب إلى مصادرها لأتهم أعداء أمريكا بترويجها؟.

* نقض المرحلة الأولى بأن تبذل هذه القوات كل مابوسعها لمغادرة هاييتي خلال أشهر قليلة. وإن كان وزير الدفاع الأمريكي وليام بيرى قد حذر أخيرا من تحديد مهلة لقواته في هاييتي تنسحب قبلها واصفا ذلك بأنه خطر على هذه القوات وعلى الوضع في هاييتي . وقد فهم تحذير بيري بأنه موجه الي الرئيس كلينتون الذى لا يزال يبدو اشد الاطراف رغبة في الخروج من هذه «الورطة» التي دفع اليها دفعا باسرع ما يمكن.

* أما المرحلة الثانية فتتولى الأمور فيها قوات الأمم المتحدة .، وتبقى معها أعداد كبيرة من رجال المخابرات الامريكية والمستشارين العسكريين والمدنيين الامريكيين، ويقدر لهذه المرحلة ان تستمر حتى شهر فبراير ١٩٩٦.

* تستمر المرحلة الثالثة بعد ذلك زهاء ثلاث سنوات وخلالها يبقى الخبراء والمستشارون العسكريون والمدنيون الأمريكيون في هاييتي ، وتنضم اليهم مجموعة من عدة مئات من المدنيين الامريكيين لخلق قوة امنية هاييتية قوامها ٥ آلاف رجل ، بعد أن يكون قد تم حل جيش هاييتي ، وتوضع القوة الامنية الجديدة تحت ادارة امريكية تراقبها عن كثب ، ولفترة غير محدودة.

وتسمح الخطة الامريكية بالاستعانة بعدد لا يتجاوز ١٥٠٠ عنصر من عناصر القوة العسكرية الأمنية الحالية في هاييتي ليصبحوا جزءا من القوة الأمنية الجديدة . ويقول الباحث الامريكي نيرن أن هذا الجانب من الخطة يقصد به أن يبقى في الخدمة كل اولئك الذين سبق أن دربوا على ايدي الجيش الامريكي أو السي . أي . أي أو وكالة المخابرات الدفاعية .. ومعظم هؤلاء مدرجون منذ سنوات على قوائم مرتبات امريكية باعتبارهم «مخبرين» ومصادر معلومات.

أما كيف ستتعامل قيادة قوات الاحتلال الامريكية في هاييتي مع الاشخاص المعروفين بأنهم مارسوا طوال السنوات الماضية أبشع الانتهاكات ضد حقوق الانسان ، ضد المعارضة وضد العمال والفقراء بشكل عام .. فإن المسؤول الكبير في «البنتاجون» يقول «سيتم» عزلهم، ومع ذلك سيتعين علينا بشكل ما أن نعتني بهم ، سوف تجرى لهم عملية اعادة تدريب وتوفر لهم الوظائف. تدفع لهم مرتباتهم من اعتمادات وكالة التنمية الامريكية .. اي من المبالغ التي ستخصص لمساعدة هاييتي اقتصاديا وتقنيا ، ولكننا ستتجنب منحهم سلطة تكفي لكي يمارسوا اساليبهم السابقة مجددا مع أحد.

ويقول خبير امريكي اخر بنوع العمليات التي تجرى في اطارها عملية احتلال هاييتي المسماه «عملية دعم الديمقراطية» - وهو الكولونيل ستيفن باتلر رئيس إدارة التخطيط السابق للقوات الامريكية في منطقة الكاريبي «ان من الضروري الحفاظ على المؤسسة العسكرية في هاييتي كمؤسسة ، وهو ما فعلناه من قبل عندما تطلب الامر التخلص من دوفالييه.

ويذكر الكولونيل باتلر بأن وكالة المخابرات المركزية ساعدت في انتشار وتعزيز ادارة المخابرات القومية في هاييتي على اثر انتشار موجه الحريات العامة والنشر والتنازل الديمقراطي التي أعقبت الاطاحة بالدكتاتور دوفالييه، وكان الهدف من انشائها ملء الفراغ الأمني ، وعلى الرغم من أن مهمة ، هذه الادارة التي تعرف بالحروف الأولى « سي . ي . ن » صورت في البداية بأنها مكافحة مهربي وتجار المخدرات ، إلا أنها اطلقت طاقاتها وعملياتها ضد كل من اعتبرتهم « منشقين» . وعندما تولى **اريستيد** الرئاسة حصل على وعد من المخابرات الامريكية بالعمل على اصلاح ادارة مخابرات هاييتي ، لكن شيئا من ذلك لم يحدث . وعندما اراد الرئيس المنتخب حل هذه الادارة تماما انتهى الأمر بعزله.

والآن تعد في مقدمة المهام التي تؤديها قيادة قوات الاحتلال الامريكية في هاييتي تعزيز محطة المخابرات الامريكية في الجزيرة، ويتم ذلك عن طريق تجنيد أكثر العناصر فاعلية من الهايتيين.

وعلى رأس الأهداف الأساسية « تجنب الأعمال والاجراءات التي كانت قد أدت الى الانقلاب الذى أخرج **أرسعيد** من السلطة ويعني هذا تجنب اثارة آمال شعب هاييتي الى حد يستفز النخبة الغنية التي كانت دائما قاعدة التأييد التي يستند اليها العسكريون .. مع كل ما يتطلبه ذلك من ،تحمل المحتل مسؤوليات الاحتلال على حد تعبير كولونيل امريكي ، بما في ذلك ادارة اعتقالات جماعية للمدنيين ، والتعامل مع النخبة نفسها التي كانت سند النظام الدكتاتوري العسكري : «**العائلات الخمس التي تملك البلد وتدير شئونه ومعها العسكريون والشريحة العليا من الطبقة المتوسطة**... هولاء بالتحديد هم الذين نعرف أن الأمر سينتهي بنا الي التعامل معهم، لأنهم يتحدثون لغتنا ويفهمون نظامنا لقد تعلموا في بلادنا، وليس سكان مدن الصفيح والطين الذين يتحدثون لغة **الكرويل** التي لايفهمها غيرهم». (الكرويل مزيج من لغاتهم الأفريقية الأصلية.. والفرنسية).

هذا ماقاله بالحرف الواحد وبصراحة الميجور **لويس كيرنيسان** الأمريكي من أهل هاييتي.. وهو واحد من النخبة التي تحدث عنها حديث من يعرف من يخدم الآن في صفوف الخبراء الذين يرافقون قيادة قوات الاحتلال ، مثل كثيرين غيره.. يعرفون هاييتي جيدا جغرافيا وسياسيا واجتماعيا ولغويا.

***

ويبقى سؤالي هل يعني إستباق الثورة في هاييتي باحتلال عسكرى أمريكي يستند

الى ضمان كاف بقتل كل مقاومة ودون التعرض لأي خسارة في الأرواح بين قوات الاحتلال- كما حدث حتى هذه اللحظة؟ أم أنه حينما كان هناك احتلال كانت هناك مقاومة ، ولاتوجد ضمانات مطلقة لأرواح المارينز؟

وهذا هو السؤال الذي يؤرق الرئيس **كلنتون** ووزير الدفع بيسري وقائد قوات الاحتلال **الجنرال هنري شيلتون**.. وكل ضابط وكل جندي في هذه القوات.

عند هذا المنعطف الخطر في تاريخ هايتي الدامي يتذكر كل مثقف في هايتي تدخل القوات الأمريكية لاول مرة، مكن بالتأكيد ليس لآخر مرة، لاخماد الثورة قبل قرنين.

لم تكن ثورة العبيد شيئا يمكن لأمريكا **توماس جيفرسون** مالك العبيد وثالث رؤساء أمريكا أن تسكت عنه. لقد بدأ واحد من أقل التدخلات العسكرية الأمريكية ذكرا في التاريخ الأمريكي.. وكأنه سر يحرص المؤرخون على الاحتفاظ به لأنفسهم . مامن مرة حكى فيها تاريخ التدخل الأمريكي في هايتي، في كتاب أو محاضرة- الاوغاب عن الذكر هذا التدخل الأول. ربما هو انعكاس شعور بالذنب.. لأن رئيس أمريكا وفيلسوف حريتها الأول- الرجل الذي صاغ بنود أول دستور أمريكي بقلمه- لم يطق أن يثور العبيد في الجزيرة الصغيرة التي لا تربطها أي حدود مع المياه الأقليمية الأمريكية.

لكن ماأثر الأمريكيون نسيانه لم يكن يمكن أن ينساه قادة هايتي على الرغم من مرور مئتي سنة. ولايزال محفورا في ذاكرة القلة القليلة من مثقفي هايتي مشحونا بالمرارة، يغذي الشعور لدفين والدائم بعدم الثقة براشنطن .. الذي لايزال يؤرق حتى رئيس هايتي الشرعي **جان برتران أريستيد** وهو يحتمي بادارة كلنتون.

يقول أريستيد - في حديث أجراه ليذاع ضمن برنامج تسجيل تليفزيوني عن أزمة هايتي الأخيرة- «كانت هايتي أول بلد أقام جمهورية مستقلة للسود.. ولم يكن هذا أمرا سهلا على الأمريكيين أو الفرنسيين أو الاسبان.. وبالنسبة للأمريكيين أكثر من الآخرين ، وهم الذين كانوا قد نالوا استقلالهم قبل ذلك بوقت قصير للغاية.. في أواخر القرن الثامن عشر، اجتاحت ثورة العبيد بقيادة بطلهم **توسان أو فيرتير** كل انحاء «**سان دومنيك**» (كما كانت تسمى هايتي آنذاك) حتى سيطر على كل المزارع المملركة للفرنسيين وغيرهم من الأوروبيين. ونالت تأييد وعطف الحزب الفيدرالي الأمريكي.. حتى أن زعيمه **الكسندر هاملتون** (وكان هو نفسه من أصل كاريبي) وهو من قادة الثورة الأمريكية التي حققت الاستقلال، ساعد أوفيرتير في وضع دستور للجمهورية الجديدة».

لكن عندما تولى **جيفرسون** رئاسة الأمريكية كان له رأي آخر في «ثورة العبيد» في الجزيرة .. وكان قد كتب في عام ١٧٩٧ عن مخاطر امتداد انتفاضات العبيد قائلا «إذا لم نفعل شيئا وبصفة عاجلة فاننا سنكون قتلة ابنائنا»، ولم يكن غريبا أن يتلقى **جيفرسون**، مجرد توليه الرئاسة في عام ١٨٠١ رسالة من نابليون يسأله فيها اذا كانت أمريكا ستساعد فرنسا إذا أرسلت جيشها إلى سان دومنيك لسحق ثورة العبيد.. ورد **جيفرسون** «لن يكون أيسر علينا من أن نزود جيشكم وأسطولكم بكل شيء وأن نفرض على **توسان أوفيرتير** الموت جوعا...»

وعلى الرغم من أن **جيفرسون** أدرك أن خطة نابليون الأوسع تقضي باعادة احتلال «سان دومنيك» واتخاذها نقطة وثوبا للاستيلاء على **نيوأورليئز** في لويزيانا الأمريكية وعلى مناطق أوسع في غرب نهر الميسيسبي.. الا أنه لم يتخذ أي اجراء لوقف حملة نابليون ضد «ثورة العبيد» في هايتي.

أمام حملة نابليون القوية حاول أوفيرتير التفاوض لانهاء الحرب وتبول وعد الامبراطور الفرنسي بأن العبودية لن تعود فسلم نفسه للقوات الفرنسية . وهكذا تحقق الهدف الأول لحملة هذه القوات. لكن الهدف الثاني، وهو اعادة فرض نظام العبودية لم يتحقق . فقد تضافرت قوى «جيش العبيد» مع الأمراض الاستوائية وفقد نابليون في الجزيرة ٢٤ ألف جندي قبل أن يقرر التخلي عن هذا المهمة. كانت تلك بداية الاخفاقات الفرنسية في الكاريبي وفي العالم الجديد كله. اضطر نابليون لبيع لويزيانا لأمريكا **جيفرسون**.. وهي الصفقة التي يعتبرها المؤرخون الأمريكيون أكبر انجازات رئيسهم الثالث، لأنها ضاعفت مساحة الولايات المتحدة وقتها.

أما مافعله **جيفرسون** مع «**ثورة العبيد**» بعد ذلك فكان أنه فرض حصارا قاسيا على الجزيرة هدم برنامجها لاعادة بناء الاقتصاد وزاد من المصاعب التي يعانيها شعب جمهورية السود الكاريبية. وكان فقد قائد الثورة ذا وقع بالغ الأثر على النفوس على الرغم من استمرار المقاومة.. حتى بعد أن قتله الفرنسيون وهو في أسرهم.

ويقول **بول فنكلمان** أستاذ التاريخ الأمريكي في جامعة فيرجينيا والمتخصص في فترة رئاسة **جيفرسون** أنه لو عاش أوفيرتير لكان الأرجح أن يبقى طويلا في الرئاسة وأن يجعل بلاده تقف على قدمها بقوة وأن يقيم نظاما لانتقال السلطة يضمن استمرار الاستقلال. كان سيصبح لهايتي تاريخ مختلف عن ذلك الذي فرض عليها حتى اليوم».

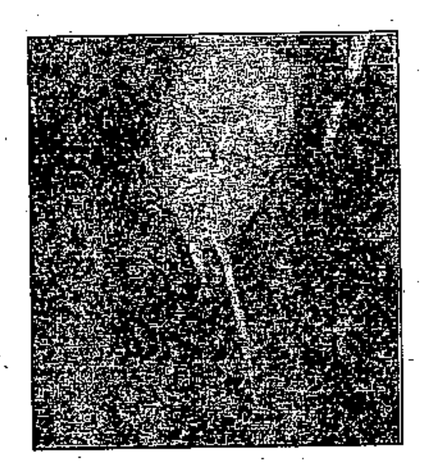
يقول **روبرت بيرس** الباحث الذي كتب البرنامج التسجيلي عن أزمة هايتي الراهنة: «أن مافعله **جيفرسون** قبل مئتي عام كان وصمة عار على جيش الرجل الذي يربط التاريخ اسمه بالحرية والمساواة وكرامة الفرد.. وأنا على يقين من أن الرئيس **كلنتون** الذي يعد من أشد المعجبين **بجيفرسون** لايعرف أبدا ذلك الجانب المظلم من تاريخه ومن المؤكد أنه لايعرف أيضا أن **جيفرسون** في أواخر حياته في عام ١٨٢٠ وقد أصبح رئيسا سابقا»، أقترح جمع كافة الأطفال الذين يولدون لأسر السود الأمريكيين وشحنهم إلى هايتي.

وقد ظلت أمريكا تحجب اعترافها الدبلوماسي عن هايتي حتى أعلنه الرئيس لنكون في عام ١٨٦٢.. ولكن الحروب وأشكال الحصار كانت قد حطمت كل شئ في هايتي الا الدكتاتورية.

ليس خافيا أن تردد **كلنتون** في غزو هايتي قد رافقه من البداية حتى اللحظة التي نجح فيها الرئيس الأسبق **جيمي كارتر** في التوصل الى اتفاق مع الثلاثي العسكري الحاكم في هايتي بالتنازل عن السلطة ومغادرة البلاد.

وعلى غير ما توقع العالم الخارجي.. فان الاتفاق لم يلغ «الغزو»

أن الاتفاق الذي وقع عليه الحكام العسكريون غير اللافتة من «غزو» الى «انتشار»... ولم يغير شيئا من خطة التدخل العسكري الأمريكي لاقامة سلطة جديدة تحل محلهم. هي اليوم سلطة أريستيد. لكن هذه لن تستمر لأكثر من شهور وتشرف القوات الأمريكية بعد ذلك على انتخابات عامة جديدة في هايتي لانتخاب رئيس آخر. ومعنى هذا ضمنيا أن الجنرال سيدراس حصل على تأكيد أمريكي بأن أريستيد سيكمل مابقي من فترة رئاسته (ولايتعدى ذلك شهورا) ويتعهد بعدم خوض انتخابات الرئاسة القادمة.. وأي انتخابات تالية..



المستشار هلمرت كول يدلي بصوته

بعد الانتخابات الألمانية
التغيير تأجل بسبب تردد المعارضة وحيرة الناخبين..



رسالة ألمانيا

في نهاية سنة كاملة من المعارك الانتخابية المتواصلة في المقاطعات والمحليات جاء يوم الحسم وادلى ٤٧ مليون ناخب من ٦٠ مليون باصواتهم لانتخاب البوندستاج الالماني الثالث عشر، وهي أول انتخابات برلمانية تجرى بشكل موحد في كل المانيا منذ الحرب العالمية الثانية. وانتهت الانتخابات بدخول ٦ احزاب (٥ كتل برلمانية) الى البرلمان. ورغم ان اغلبية الناخبين قد صوتت لاحزاب المعارضة(٦ر٥١٪) كسب المستشار كول مع حلفائه من حزب الاحرار اغلبية المقاعد البرلمانية. والى جانب الوجود القوى للحزب الاجتماعي الديمقراطي في البرلمان نجح الخضر كما نجح حزب الاشتراكية الديمقراطية في العبور الى بون.

ولكن انتخابات البوندستاج تركت علامات استفهام كثيرة. صحيح ان الاغلبية التي اصبح كول يملكها (١٠ نواب فقط بعد ١٣٤ نائبا في البوندستاغ السابق) تكفى لانتخابه مستشاراً بالاغلبية البسيطة. ولكن هل ستكون هذه الاغلبية الهشة كافية لكى يقود كول حكما مستقرا لمدة اربع سنوات؟ هذا السؤال يشغل السياسيين من كافة المعسكرات كما يشغل وسائل الاعلام، وقد طرحه ايضا رئيس وزراء ساكسونيا في اجتماع رئاسة الاتحاد المسيحي الديمقراطي.

مشاكل المانيا كبيرة.. واغلبية كول هزيلة.

الدورة التشريعية الجديدة تأتي في فاصل زمني حساس للغاية بالنسبة لاي حكومة المانية. اذ فضلا عن مهمة اخراج المانيا من الازمة الاقتصادية ومعالجة الاوضاع التي تقيم سورا اجتماعيا وسياسيا خطرا بين شطرى البلد في الغرب والشرق، يواجه المجتمع الالماني، حسب التصريحات المتكررة لأقطاب الحكم طوال السنوات الماضية، مهمة رفع كفاءته لجعله اقدر على المنافسة الاقتصادية، وعلى ممارسة التأثير السياسي، كشرط لا غناء عنه لبلد يطمع قادته في قيادة أوروبا والمشاركة في قيادة العالم.

لم يقنع كول الصحفيين الذين سألوه عن مستقبل الاغلبية البرلمانية الهشة برده ان الاغلبية هي الاغلبية. والقضية ليست قدرة الحكم على اصدار قرارات باغلبية يكفي لها النصف زائد واحد. لان التحديات والمشكلات الداخلية والخارجية الكبيرة والمعقدة التي تواجهها المانيا، وتصفها جريدة دي فيليت المحافظة(١٨-١٠)بانها في ارتفاع جبل الهملايا تتطلب مضمونا واسلوبا للحكم يختلف عن شعارات مواصلة المسيرة. هناك على سبيل المثال مشكلة جبل المديونية الداخلية وارتفاعه ٢٠٠٠ مليار مارك، ويهدد استمراره بفقدان استقرار العملة، وهناك مشكلةالبطالة الجماهيرية التي تمارس تأثيرا سياسيا واجتماعيا ونفسيا سيئا على المجتمع كله، والرقم الرسمي (٥ر٣ مليون عاطل) لا يعبر عن الحجم الحقيقي للمشكلة اذ يوجد في الواقع ٦ ملايين مواطن يبحثون عن عمل. كما تكمن المشكلة في ان هذه الظاهرة ستواصل وجودها في ظل استمرار التوجهات الاقتصادية الاجتماعية الراهنة بغض النظر عن الرواج المتوقع. كما تواجه المانيا الغنية قضايا التطوير الاجتماعي والثقافي والحقوقي والتي تتطلب القيام باصلاحات واسعة وعميقة تحتاج اغلبيات سياسية واضحة. من هنا تمثل المرحلة المقبلة فترة انتقال بالغة الحساسية في السياسات الداخلية والخارجية الالمانية.

وقد اصبحت الحكومة تحت ضغط الزمن بسبب ان كول قد جاب المانيا في حملته الانتخابية مبشرا بان الازمة الاقتصادية انتهت وان الازدهار الاقتصادي بدأ فعلا وان البطالة في انحسار. اعطى هذا للنقابات حجة قوية لطرح المطالب المؤجلة الخاصة بتحسين الاوضاع المادية في مفاوضات عقود العمل الجماعية لعام ١٩٩٥. الامر الاخطر كثيرا هو حكم اصدرته المحكمة الدستورية الاتحادية في العام الماضي ويقضي بان تحصيل ضريبة الدخل من ذوي الدخل المنخفض امر لا يتفق والدستور، وامهلت الدولة لايجاد حل لوضع حتى الأول من يناير ١٩٩٦. هذا يعني بلغة الارقام ان اى حكومة المانية عليها الآن ان تباشر باصلاح النظام الضريبي والمالي للبحث عن تعويض عن ٥٠ مليار مارك ستفقدها الدولة سنويا نتيجة الحكم المذكور. وبمتابعة عمل الدورات التشريعية السابقة يمكن توقع صراعات شديدة في البوندستاغ بسبب تباين المصالح فيه خاصة بسبب الوجود القوى لممثلي فئات الملاك. ومن الصعب تصور أن يتمكن المستشار كول ان يفرض نهج تحالفه المحافظ-

الليبر الى اعتمادا على اغلبية بهذه الهشاشة . ولهذا الاستنتاج ايضا سبب واضح لا يستبعد ان يلعب دورا دراماتيكيا في تطور اوضاع الحكم.

حليف كول يسارع من أجل البقاء

الموضوع هو الوضع الحرج للغاية لحزب الاحرار الديمقراطي ، حليف كول والذي بدونه لا يملك اغلبية للحكم.

الخسائر التي منى بها هذا الحزب في انتخابات المقاطعات وآخرها في ٧ مقاطعات على التوالي ، والتي جعلته غير ممثل في برلمانات ١٠ مقاطعات (من ١٦ مقاطعة) تعني ان جزءا اساسيا من جمهور ناخبيه لم يعد مستعدا لمنحه ثقته بما جعله مهددا بالاختفاء من شارع السياسة . ويصرح قادة الاحرار نفسهم ان قوة حليفهم كول غطت على دورهم الخاص.

الآن تلوح في الافق معالم معركة داخلية قادمة في هذا الحزب. ويدور الصراع بين طرفين احدهما يرى أن الحزب سيفقد مستقبله لو لم يصنع سياسة مستقلة يستعيد فيها وجهه الليبرالي الذي حافظ عليه فقط في السياسات الاقتصادية (بما افتقد فرصة مد جذور باقية في شرق المانيا) ، ونفقده في كل المجالات الأخرى بسبب الوزن الاثقل لحليفهم المحافظ. ويطالب هذا الطرف بفرض مواقف على حكومة كول فيما يخص السياسات الحقوقية (منها اصدار قانون يتيح المواطنة المزدوجة) واعتماد مفهوم ليبرالي للدولة، ووقف الاتجاه لتقييد حريات المواطنين. جناح كينكل رئيس الحزب ، والذي يتحمل المسؤولية عن تراجع السياسات الليبرالية ازاء النهج المحافظ لا يقدم جديدا حتى الان ويواصل التأكيد على التحالف بين الليبراليين والمحافظين. وتتوقع الدوائر السياسية والاعلامية المطلعة ان يدور صراع حول موقع كينكل رئيس الحزب والذي كان مساعدا لوزير الخارجية السابق جينشر ورئيسا لجهاز المخابرات، ولم ينضم لهذا الحزب القديم الا قبل سنوات قليلة. هذا الصراع سيشغل كما يتوقع المراقبون المؤتمر الاستثنائي الذي سيعقده حزب الاحرار قبل نهاية هذا العام ، وترى بعض الدوائر في حزب الاحرار الا يقتصر تفكير الحزب فقط على اقامة تحالف مع كول بل ينبغي بحث احتمالات تشكيل حكومة مع الاجتماعيين الديمقراطيين والخضر. وقد وجه رجل المحافظين القوى شويبله تحذيرا واضحا للاحرار حتى لا يفكروا في اللعب بذيلهم.

لماذا فشل الاجتماع الديمقراطي؟

يجمع المعلقون من مختلف الاتجاهات بمن فيهم عدد من قادة الحزب الاجتماعي الديمقراطي ان اكتشاف الفرق بين الحزب الاجتماعي الديمقراطي والمسيحي الديمقراطي كان صعبا على الناخبين . وقالت هذا صراحة السيدة ريجينا هيلدبراند من قيادة الحزب ووزيرة العمل في مقاطعة براندنبورج. هذا على الرغم من بعض جهود الاجتماعيين الديمقراطيين ليتميزوا عن الحزب الحاكم. المحاولة الاهم جاءت متأخرة في الاسابيع

ناخبو باللباس التقليدي في مقاطعة بافاريا..





كول يتلقى التهاني بفوزه

الاخيرة قبل التصويت وكان الحزب الاجتماعي الديمقراطي قد اعلن ما سماه برنامج المائة يوم الذي وعد فيه باجراءات ملموسة لتحسين دخول الفئات محدودة الدخل وتنفيذ سياسات لتشغيل ٢ر٧ مليون عاطل عن العمل في حال فوزه في الانتخابات . الا ان الاجتماعيين الديمقراطيين لم يعطوا طوال السنوات الاربع الماضية انطباعا بانهم يملكون بديلا عن السياسات التي يعاني منها الناس، وكانت سياسة قيادتهم التي يمكن ايجازها في (لا لا- نعم ولكن- نعم) من اهم اسباب حالة الاحباط السياسي العام التي مثلت موضوعا رئيسيا في الحياة السياسية الالمانية في العامين الاخيرين. ولان الحزب الاجتماعي الديمقراطي، بعد ان كان قد اعلن معارضة حاسمة في البداية، ايد في البوندستاغ القوانين التي قلصت حق اللجوء، وقيام المانيا بدور عسكري بما في ذلك العمليات الحربية، والقوانين التي تتيح مراقبة البيوت والتليفونات بحجة مكافحة الجريمة وكثير من السياسات المالية والضريبية لحكومة كول، ولانه في برلمانات المقاطعات والتي يقود اغلبها نفذ سياسات مشابهة بحيث بدا وكانه نسخة من الحزب المسيحي الديمقراطي ، بسبب كل هذا فضل كثير من الناخبين الاصل على الصورة، كتب المحلل السياسي يواخيم راشكه ان الحزب الاجتماعي الديمقراطي هو عامل تصحيح اجتماعي ، ولكنه ليس حزبا يقدم على استخدام ما يملكه من قوى ليحاصر غريمه المحافظ ، وهو يشير هنا الى احجام الاجتماعي الديمقراطي عن استخدام اغلبيته بشكل حاسم في مجلس المقاطعات في الماضي.. وهذا المجلس يمثل السلطة الثانية بعد البوندستاغ ولابد ان تحصل القوانين الهامة والميزانيات الحكومية على موافقته. وقد ازداد موقع الاجتماعيين الديمقراطيين قوة في هذا المجلس(يملكون الآن نحو ثلثي الاصوات) بعد الانتخابات الاخيرة في مقاطعتين في شرق المانيا والتي خسر فيها تحالف المسيحي الديمقراطي والاحرار اغلبيته.

ولا يجوز اغفال الدور الكبير الذي لعبته الشخصيات السياسية القيادية في التأثير على قرار الناخب الالماني في مجمل المسلسل الانتخابي الذي استمر سنة كاملة . وقد تبين ان الاتجاه السياسي المعلن عنه في القوائم الحزبية لا يكفي الناخب. وفي عدد غير قليل من الحالات صوت العمال لمرشحين محافظين ، وصوت الموظفون لليسار. ويرى الكثيرون ان شخصية المرشح الاشتراكي الديمقراطي شاربنغ كانت اضعف من أن تنافس كول. وهناك رأي منتشر بانه كان بوسع الاجتماعي الديمقراطي جير هارد شريدر رئيس وزراء مقاطعة نيدر ساكسن ان يكسب الجولة ضد كول.

من العوامل التي لعبت دورا في احجام جزء من الالمان الشرقيين عن التصويت للاجتماعي الديمقراطي سيره في ذيل المسيحي الديمقراطي خاصة في شنه الحرب ضد حزب الاشتراكية الديمقراطية، وبوسائل تتجاوز المتبول بين اطراف انتخابية متنافسة . وقد أكدت لغة المستشار كول الذي وصف اعضاء حزب الاشتراكية الديمقراطية بالفاشيست

رودلف شاربنغ

المصبوغين لونا احمر، كما اكد عدد من قادة الاجتماعيين الديمقراطيين ان زمن الحرب الباردة لا زال مستمرا فى المانيا . وتبين نتائج الانتخابات ان هذه الدعاية ارتدت لاصحابها فمن المؤكد ان اقسام من ناخبى واعضاء المسيحيين الديمقراطيين الاجتماعيين فى الشرق قد صوتوا لحزب الاشتراكية الديمقاطية.

عودة الخضر

من النتائج الهامة للانتخابات الاخيرة نجاح الخضر (الاسم الرسمى : تحالف ٩٠٪ الخضر) وقد حصلوا على ٤٫٣ مليون صوت . وهم اول حزب ينجح فى العودة الى البوندستاغ بعد ان كانوا قد خرجوا منه فى انتخابات ١٩٩٠ زعيمهم يوشكا فيشر الذى دعا بقوة الى تشكيل حكومة ائتلافية مع الاجتماعيين الديمقراطيين وصف اغلبية كول بانها اغلبية يمكن تحطيمها ، وقال ان اغلبية حكومة كول وكينكل المقبلة هشة وغير مستقرة الى درجة اجزم معها على التنبؤ بانها لن تصمد طوال الدورة النيابية المقبلة(صحف ١٨-١٠). والخضر يعتقدون ان تحالفهم مع الاجتماعيين الديمقراطيين ضرورى حتى لا يسقط الاخيرون فى هوة الائتلاف الكبير وهى التسمية التى تطلق على حكومة مشتركة محتملة بين الحزبين الكبيرين ، المسيحى الديمقراطى والاجتماعى الديمقراطى، وحزب الخضرى الذى مارس تأثيرا كبيرا على الفكر السياسى والاقتصادى فى المانيا خصوصا واوروبا عموما يواصل مطالبته بالانسحاب الكامل من خطط استخدام الطاقة النووية، وبوقف عسكرة السياسة الخارجية وبضمان الحقوق الاجتماعية والديمقراطية وتوسيعها ويطالب بنظام اقتصادى عالمى عادل . ولكن الخضر تلقوا هزيمة مرة فى شرق المانيا اذ خرجوا من برلمانات المقاطعات التى اجريت انتخاباتها مؤخرا، وكان وصولهم للبوندستاغ بفضل الاصوات التى حصلوا عليها فى الغرب. تفسر مصادرهم الحزبية القيادية تحول الناخب الالمانى الشرقى عنهم بسياسة حزبهم فى الشرق الذى يتشكل من بقايا حركات المواطنين السابقة والتى ركزت على قضايا التاريخ دون ان تعير هموم الناس ما تستحقه من اولوية ، ولا شك أن محاكاة الغربيين فى طرح قضية البيئة فى ظل اوضاع شرق المانيا حيث يهم الناس بالدرجة الاولى ان يجدوا عملا لم يساعد على كسب الناخبين.

حزب الاشتراكية الديمقراطية

الحزب الذى أهتمت معظم الصحف بابراز فوزه فى هذه الانتخابات الصعبة هو حزب الاشتراكية الديمقراطية، وقد صوت له اكثر من ٢ مليون ناخب(٤٫٤٪) ولكنه دخل البوندستاغ بالرغم من عدم تحقيق نسبة الخمسة بالمائة من خلال الفوز بأربع دوائر مباشرة فى برلين ، وقد فشل تحالف الجميع ضده (الاحزاب من اليمين الى الخضر مرورا بما يسمون حركات المواطنين السابقة فى الشرق وحتى اقصى اليسار، الاعلام ، والكنيسة الكاثوليكية والخ) فى الاجهاز عليه خلال فترة برلمانية واحدة وفشلت محاولة فرض الحصار عليه ، وتشويه سمعته ومصادرة امواله بما فيها اشتراكات اعضائه ومستحقاته القانونية، وتركه يموت بيولوجيا توقعا لان يذوى الحزب بسبب تقدم كتلة اعضائه فى السن.

سيمثل حزب الاشتراكية الديمقراطية بنحو ٣٠ نائبا. واصبح من المؤكد ان نائبة الكاتب شتيفان هايم (٨١) سنة أكبر اعضاء البرلمان سنا سيفتتح أولى جلسات البوندستاغ، ويذكر هذا الحدث النادر، مع الفارق، بالقاء كلارا تسكين الزعيمة الشيوعية وزميلة لينين لخطاب الافتتاح فى الرايخستاغ الالمانى سنة ١٩٩٣، وقد فاز حزب الاشتراكية الديمقراطية بنحو ٢٠٪ من الاصوات فى شرق المانيا وبواحد بالمائة من اصوات الالمان فى الغرب . ومن بين نوابه ٩ من الغرب منهم النبيل هايذريش جراف فون آينسيدل ، حفيد بسمارك موحد المانيا فى القرن الماضى ، وتضم كتلته البرلمانية الى جانب الحزبين عددا

انتخابات البوندستاغ ١٦-١٠-٩٤
النتائج الرسمية المؤقتة (١٧/١٠/٩٤)

اسم الحزب	١٩٩٤		١٩٩٠	
	نسبة الاصوات	عدد النواب	نسبة الاصوات	عدد النواب
المسيحى الديمقراطى والمسيحى الاجتماعى	٤١٫٥	٢٩٤*	٤٣٫٨	٣١٩
الاحرار الديمقراطى	٦٫٩	٤٧	١١٫٠	٧٩
الاجتماعى الديمقراطى	٣٦٫٤	٢٥٢	٣٣٫٥	٢٣٩
تحالف ٩٠٪ الخضر	٧٫٣	٤٩	٥٫٠	٨
حزب الاشتراكية الديمقراطية	٤٫٤	٣٠	٢٫٤	١٧
الجمهوريون	١٫٩	-	٢٫١	-
آخرون	١٫٦	-	٢٫٢	-

* كسب عددا اضافيا من المقاعد فى البرلمان بفضل نجاحه فى عدد من الدوائر الفردية

حسب المهن	
عمال	١٥٪
موظفون	٢٧٪
مزارعون	١٥٪
عاطلون عن العمل	٢٤٪

حسب السن	
اصغر من ٣٠ سنة	٢٤٪
٣٠ الى ٤١ سنة	٢١٪
٤٥ الى ٥٩ سنة	١٩٪
اكبر من ٦٠ سنة	١٧٪

من الشخصيات غير الحزبية من رجال الدين والنقابيين والكتاب.

والاهتمام بوجود هذا الحزب في البرلمان يعود اساسا للتأثير الذي يستطيع ان يمارسه على صغر كتلته الانتخابية ، وسر نجاحه في مواجهة حملة معادية متواصلة هو العمل اليومي الذي يمارسه اعضاؤه واصدقاؤه في المئات من الجمعيات التي تهتم بمساعدة المواطنين في شتى جوانب الحياة، من مساعدتهم في ملء الاستمارات البيروقراطية المعقدة، الى تقديم المشورة في الشئون القانونية ومساعدتهم في التوصل الى كسب حقوقهم، الى تنظيم توصيل الطعام للمسنين في بيوتهم .. الخ، فقط بهذا النشاط اليومي استطاع الاشتراكيون- بعد هزيمة تاريخية هائلة- ان يفكوا طوق العزلة وان يكسبوا مرة أخرى قبول جزء من المجتمع . ولا شك ان شخصية جريجور جيزي ، الوجه السياسي البارز للحزب ، قد لعبت دورا هاما يقوم بالاساس في ان يستعيد الاشتراكيون ثقتهم بالنفس ، ولهذا السبب بالتحديد تتركز ضده حملة لا تهدأ.

وقد عادت مجلة در شبيجل في عددها الصادر بعد الانتخابات مباشرة للقول بأن وثائق جديدة تدين جيزي كعميل للمخابرات الالمانية الشرقية رغم العديد من الاحكام المستعجلة التى اصدرتها المحاكم تمنع توجيه هذا الاتهام له ، والحملة ضد الحزب مستمرة في التليفزيون يوميا ويسعى ممثلو احزاب الحكومة للتسوية بينه وبين اليمين المتطرف طبقا للمعادلة القائلة كل الراديكاليين واحد.

كانت رسالة حزب الاشتراكية الديمقراطية الى المواطنين قبل الانتخابات ان التغيير ضروري وممكن ، وان المانيا الغنية قادرة على حل المشاكل الاجتماعية والبيئية لو توفرت الارادة لذلك. وقدم اقتراحات واقعية ومبتكرة في مختلف المجالات وهو يطالب بتخفيض جذري للانفاق العسكري ، وبانتهاج سياسة سلامية حازمة تطبق سياسات وقائية لمنع نشوء النزاعات العسكرية وفضها لو نشأت ، والامتناع عن التدخل ، ومساعدة دول العالم الثالث بتطبيق نظام اقتصادي عالمي عادل ومتضامن . وهو يدعو لمقرطة الأمم المتحدة والمنظمات العالمية ، ويقدم تصورا جديدا عن الممارسة الديمقراطية في المجتمع تقوم على اشكال جديدة من المشاركة الشعبية ، وقد برز هذا الحزب كمدافع عن مصالح الالمان الشرقيين أكثر من اية قوة سياسية أخرى.

جيزي يعتبر النجاح المحقق «انجازا تاريخيا» ويقال ان ال. ب د. س) (حزب الاشتراكية الديمقراطية) ليس من مخلفات المانيا الديمقراطية بل نتاج هذه الالمانيا الاتحادية ويقول زاد قبول ال ب. د . س. في الشرق وعلينا ان نكافح من اجل ان نصبح مقبولين في الغرب و يطالب الاجتماعيين الديمقراطيين بمراجعة موقفهم من الحزب ، وجود كتلة برلمانية من حزب الاشتراكية الديمقراطية في البوندستاج من فرص بناء الحزب لوجوده في مقاطعات الغرب ، وفي برلمانات المقاطعات الشرقية حيث اصبح الحزب القوة الثالثة في برلمانات ليس بها الاحرار نشأت معادلة سياسية جديدة على المانيا . هي ان الطرف المرجح للكفة في البرلمان من خارج المعسكر البرجوازي.

الهوة تتسع بين الشرق والغرب.

شرق وغرب المانيا يتباعدان عن بعضهما سياسيا والفضل في نجاح كول يعود عمليا لاقليم المانيا الغربية السابق فقط.

هذه خلاصة تحليل معهد Infas (معهد العلوم الاجتماعية التطبيقية) لنتائج انتخابات البوندستاغ والتي نشرت الصحف الكبرى مقاطع واسعة منها يوم ١٨- ١٠ حصلت احزاب الحكومة في الغرب على ٤٩.٩٪ وفي الشرق على ٤٢٫٥٪ فقط بما فيها حزب الاحرار الذي حصل فقط على ٤٪ . وكانت خسائر معسكر الحكومة في الشرق ٢٫٥ مرة أكبر من خسائره في الغرب(في الشرق-١٢٫٦٪ وفي الغرب-٤٫٨٪) . يقول التحليل رغم كل التقدم في تحقيق الوحدة الداخلية لما بناء على ذلك التباعد بين الثقافة السياسية في شرق وغرب المانيا ، ويلاحظ معهد اينفاس بالنسبة لسلوك الناخبين في دوائر برلين الانتخابية الاربعة التي انجحت نواب حزب الاشتراكية الديمقراطية تان خمس ناخبي الاجتماع وربع ناخبي الخضر اعطوا صوتهم الاول لمرشحي حزب الاشتراكية الديمقراطية. هذا يعتبره معهد اينفاس تحالفا انتخابيا يساريا يعبر عن الرغبة في وجود حزب الاشتراكية الديمقراطية في البوندستاغ كممثل سياسي لمصالح الالمان الشرقيين وكتعبير عن الرغبة في التغيير.

الرأسمال يقدم مطالبه

في ممارسة صريحة للضغط على حكومة لم تتشكل بعد، ولكن ضعفها في مواجهة الضغوط المتوقعة للنقابات والاحزاب المعارضة واضح للعيان ، اعلن رئيس اتحاد الصناعات ورئيس مؤتمر الصناعة والتجارة مطالب اتحاداتهما ، وهي تشمل تخفيض الضرائب على اصحاب الاعمال، وتقليص قطاع الدولة بتحويل مؤسسات أكثر الى القطاع الخاص ، وتقليص المديونية ، وخفض الاعتمادات الاجتماعية بتحميل العاملين نسبة من تكاليف العلاج، واعادة بناء نظام الرعاية الاجتماعية)، وتخفيض معاشات المتقاعدين بنسبة ٥٪ وهلم جرا! ومن الواضح ان ممثلي الرأسمال في عجلة من امرهم لان مشاورات تشكيل الحكومة والتي قد تسير في اتجاهات عدة يمكن ان تخرج المستشار كول في قضايا هامة ، ولو مؤقتا، عن النهج الذي يتمناه منه الرأسمال الكبير ، وقد لعبت الهيئات الرأسمالية المذكورة دورا كبيرا في جذب ناخبين الى المعسكر المحافظ بان حذرت صراحة وفي تدخل واضح من قدوم حكومة من الاجتماعيين والخضر . ومطالب ممثلي الرأسمال واضحة وقاطعة هذه المرة وهي ليست اقل من هدم الدولة الاجتماعية ، هذا الوصف لم يذكره سياسي اشتراكي او نقابي ، بل صرح به نائب من الحزب المسيحي الديمقراطي يوم ١٩- ١٠- امام التليفزيون.

لماذا نجح كول؟

كتب كلاوس ليجيفي في صحيفة تاتس» لعام الانتخابات السوبر جانب خارجي وجانب داخلي نحو الخارج في المجال الاوروبي والعالمي ، تكشف المانيا الموحدة عن استقرار فريد من نوعه ، ويكاد كول يكون الحاكم الوحيد في الثمانينات الذي لا يزال جالسا على السرج ، بوش وجورباتشوف يكاد يطويهما النسيان ، جون ميجور متخلف بثلاثين نقطة عن المعارضة ، ميتران يودع في ايطاليا وقعت ثورة ذات خاتمة غير مؤكدة .. في كل مكان ، وحتى في قلب اوروبا تحلل تيار المسيحية الديمقراطية هذا النتاج للحرب الباردة، ولكنها في المانيا وحدها تظل متماسكة وعلى مستوى عال.

في الخارج لا زالت المانيا تبدو كالتلميذ المثالي : ماكينة النمو بدأت تدور احسن من اي مكان اخر ، وهي اقل من غيرها اضطرابا بسبب فضائح الدولة الفساد ، والمشاركة في الانتخابات لا زالت عليه ونظام الاحزاب الشعبية (مقصود الكبيرة) متماسك ، والسؤال ان كان ذلك من أفضال الحكومة ام ان افضل الحكام يكمن بالاحرى في انهم لم يعرقلوا كثيرا عملية التجديد الذاتي للانظمة . ان مشكلة المانيا ليست تحلل الدولة او عدم قابليتها للحكم بل الاستقرار المتورم للمجتمع والذي لا يريد الاقدام على اية مخاطرة. ولكن نقص المرونة يحمل في باطنه اخطار».



فتيات محجبات في فرنسا

مرة أخرى .. فرنسا في مواجهة الحجاب

د. مجدى عبد الحافظ

رسالة باريس

عادت مرة أخرى على سطح الأحداث ظاهرة تحجب بعض فتيات الثانوى فى أعقاب العودة للدراسة فى أوائل شهر سبتمبر الماضى، مجددة المشكلة القديمة الجديدة، ومثيرة فى نفس الوقت جدلا كبيرا على كل المستويات، وفى جميع وسائل الاعلام التى شغلها هذا الموضوع، إذ عالجت المجلات الكبرى الظاهرة على صفحاتها الأولى، وتصدرت الظاهرة وتحليلاتها الجرائد اليومية، وبدأت النقاشات، ونظمت البرامج واللقاءات لمناقشة الموضوع فى الإذاعة المرئية والمسموعة.

والسؤال لماذا هذا الاهتمام الكبير بظاهرة تكاد تكون عادية- فى أذهان البعض-، أو يمر عليها مر الكرام فى بلداننا؟

الجواب يتحدد فى أن فرنسا دولة علمانية، وهناك مبادئ جمهورية تنظم مناحى الحياة، وتنأى بالمواطنين الذين هم على قدم **المساواة مهما اختلفت آرائهم وأجناسهم واعتقاداتهم الدينية والفلسفية والسياسية من الوقوع فيما يخلق بينهم صراعا على أساس** دينى. ومع ذلك فأحد أسس العلمانية هى الحرية (حرية الرأى والتعبير، والمعتقد، والملبس.. الخ)، **فكيف تتعارض إذن العلمانية التى تكفل الحريات للجميع مع إرتداء بعض فتيات المدارس للحجاب؟**

الاجابة على السؤال تتحدد فى المكان: أى المدرسة العلمانية المفتوحة للجميع، ويكفل فيها حق التعلم للجميع. فهى المدرسة التى تكفل فى أروقتها تحقيق العدالة والمساواة بين الجنسين، وبما أن فيها تتشكل عقول ملايين التلاميذ، وتلتزم الدولة فيها بتوفير المدرسين، وأدوات التعليم، بالإضافة للمنهج الواحد، ولا يعلم فيها أى دين، فالخروج عن هذه القاعدة يشكل خطورة كبيرة فى تحوير دور المدرسة الى ماليس لها، فبدلا من أن تكون هى البوتقة التى تنصهر فيها الاختلافات العرقية والدينية، ستصبح مرتعا لإثارة النعرات الدينية، وهذا معارض لمبادئ العلمانية والجمهورية الفرنسية.

فدور المدرسة هو زرع وتغذية مبدأ المواطنة المدنية فى أفئدة الصغار، وتهديد هذا المبدأ يشكل خطورة كبرى على مستقبل الدولة الفرنسية ذاتها، اذ أن القانون نفسه يكفل حرية العبادة، وأماكنها خارج النطاق الرسمى، بل ولا يعارض فى بناء المدارس الخاصة للأديان المختلفة، بل أكثر من ذلك يمد لها يده بالمعونة المادية سنويا. **وخارج إطار** المدارس الحكومية **ليس هناك أى قانون يمنع** إرتداء أي زى، **وكثيرا مانشاهد متحجبات** فى **الجامعات أو الشوارع أو وسائل النقل** العامة.

وهناك أسباب كثيرة، خلقت من هذه المشكلة حدثا إعلاميا من الدرجة الأولى سنوضحها فيما يلى.

كما قلنا من قبل أن مسرح الظاهرة بدأ فى أهم معامل بناء المواطن الفرد وهى المدرسة التى تشكل فى وجدان الجميع رمزا للمواطنة التى تحميها أسس العلمانية.

وثانيا **أن تلك الظاهرة قد جاءت فى ترتيب تصاعد العنف الدينى،** وربط الرأى العام الفرنسى ووسائل الإعلام بشكل مباشر أو غير مباشر هذا التصاعد العنفى بالإسلام، على الرغم من تحذير العقلاء، لآثار ذلك مستقبلا، ومع ذلك أصبح أى مظهر من مظاهر هذا الدين يشكل حساسية بالغة، **وهكذا غدا الحجاب مرتبطا بالتطرف الدينى وغير منفصل عنه.**

وثالثا أن تلك الظاهرة جاءت عقب مرسوم من وزير التعليم **فرانسوا بايرو** وقبل بداية العام الدراسى موجها لمدراء المدارس ونظارها

فى مسألة إرتداء بعض الطلاب لرموز دينية تفاخرية. وعلى الرغم من أن المرسوم الوزارى يقصد فعليا ظاهرة الحجاب، إلا أنه أتى بصيغة عامة وغير محددة ، بها مرونة كبيرة بحيث تعطى لمدير كل مدرسة قدرا كبيرا من حرية اتخاذ القرار الذى يتواءم مع الموقف، وقد أنتقد القرار مرارا بسبب تلك المرونة.

ورابعا اتخذت الظاهرة هذا العام منحى جديدا، فهى **أكثر تنظيما عن السنوات الماضية، بالإضافة الى طابعها الجماعى**، حيث كانت الظاهرة فى السابق تأخذ طابعا فرديا، ولم يزد عدد الطالبات فى كل مدرسة عن ثلاث بل وأقل، هذا العام **شكلت لجان أيضا من الطلبة والطالبات لمساندة المحجبات والسماح لهن بحضور الدروس، وذلك بالتظاهر والإضراب عن الدراسة.**

وخامسا ظهرت لأول مرة حركة مضادة من المسلمات غير المحجبات للوقوف ضد هذه الظاهرة بتوزيع المنشورات ، والرد على المطالبين بالحجاب، حيث أن هناك طالبات تفرض عليهن أسرهن الحجاب، وهذه الأسر فى **الغالب واقعة تحت تأثير ، بل وأحيانا ضغط ممثلى جبهة الإنقاذ الجزائرية فى فرنسا.**

وسادسا أرتبط الحجاب برفض بعض الطالبات المحجبات القيام بالأنشطة الرياضية المختلطة المقررة، بل وأكثر من ذلك، رفض **حضور حصص البيولوجيا والثقافة الجنسية**، مما يشكل خطرا على تساوى الفرص، ويجعل هناك تفرقة فيما بين الطلاب وبعضهم، بل أن البعض طالب بتوفير أماكن للصلاة فى المدرسة.

وسابعا يرتبط الحجاب فى الغالب لدى الأسر المسلمة المهاجرة خاصة هذه الأيام بتدنى وضع المرأة التى تصبح تحت إمرة الأب أو الأخ مما يقطعها من مجتمعها المحيط، وكنا قد قرأنا منذ ثلاثة أشهر عن الأخ الذى جلب لأخته شيخ مسجد فى الشمال ومساعده ليقوما بعلاجها من مرض عصبى معروف طبيا ، وأصيبت به عقب عملية جراحية، وقرر الشيخ ومساعده أن بها أرواحا شريرة ينبغى طردها من جسدها **بطريقتهما التى أودت بحياة المريضة، وبهما الى المحاكمة.**

وثامنا القبض على ثلاثة من الشباب الفرنسى ذا الأصل المغاربى، وذلك فى الهجوم على فندق فى مراكش (المغرب) ، وكشف البوليس الفرنسى عن كم من الأسلحة فى حوزة البعض من هؤلاء الشباب ممن يشكلون فى ضواحى المدن الفرنسية.

كل هذه الاسباب مجتمعة ساهمت لحد كبير بأن يحتل هذا الموضوع واجهة الأحداث هذه الأيام. وتحاول الحكومة الفرنسية امتصاص ذلك المد، بالوقوف فى بعض الأحيان مواقف تتسم بالمرونة وعدم المواجهة، **ففرنسا الرسمية تود خلق إسلام فرنسى وجمهورى، فعدد المسلمين يصل الى خمسة ملايين مسلم، ويعتبر الإسلام هو الدين الثانى فى الدولة من حيث عدد معتنقيه بعد الكاثوليكية.** لهذا الاعتبار يرى الرسميون الفرنسيون أنه على الأرض الفرنسية يمكن للإصلاحيين المسلمين كسب رهانهم، حيث يستطيعون أن يكونوا مواطنين أحرارا فى أمة حرة، تجعل من الدين شأنا شديد الخصوصية، وشديد- الاحترام فى نفس الوقت، بل ويقول البعض منهم لايزيد من خمسة ملايين مسلم أن يتحولوا الى الالحاد أو الى عدم الايمان فى عصر أفلست فيه الإيديولوجيات، وأتسم باخفاق النزعة الليبرالية والعودة للأديان. ولهذا السبب يجئ مرسوم وزير التعليم وفى نفس السياق ترفض الحكومة منح الكاتبة البنجلاديشية **«تسليما نسرين»** تأشيرة دخول تسمح لها بالبقاء، أكثر من ٢٤ ساعة تحضر فى أثنائها برنامجا تليفزيونيا وترفض الكاتبة التى تقيم بالسويد هذه الإهانة، وتثار فضيحة سياسية. إلا أن الحكومة لاتريد أن تدخل فى صراع مع ظاهرة الحركات الإسلامية المتطرفة التى حكمت على الكاتبة بالإعدام. وتبدت هذه السياسة أيضا فى مشاركة وزير الداخلية والأديان **شارل باسكوا** بنفسه فى أفتتاح ثانى أكبر مسجد بفرنسا بمدينة ليون والذى تكلف ملايين الفرنكات دفعت الجزء الأكبر منها العربية السعودية.

لكن ماذا يقول المرسوم الذى أصدره وزير التعليم فى العشرين من سبتمبر الماضى؟

يقول المرسوم «فى فرنسا يختلط المشروع الوطنى بالمشروع الجمهورى ويتمحور حول فكرة المواطنة. هذه الفكرة الفرنسية عن الأمة وعن الجمهورية، هى بالطبيعة تحظى بإحترام جميع الإعتقادات وعلى الأخص الدينية والسياسة والتقاليد الثقافية، وهى تعمل على إستبعاد أن تتفرق الأمة لمجموعات شتى لكل منها أنظمتها وقوانينها الخاصة. لهذا السبب لايمكن القبول فى المدرسة بظهور عديد من الرموز التفاخرية جدا، والتى لامعنى لها ، سوى عزل بعض التلاميذ عن قواعد الحياة العامة للمدرسة. هذه الرموز فى حد ذاتها هى عناصر للتبشير، خاصة عندما يصاحبها وضع بعض الحصص أو بعض المواد موضع أتهام ، مما يعرض للخطر سلامة التلاميذ، ويسبب إضطراب الحياة العامة فى المدرسة. أطالبكم إذن بأن تقترحوا على مستشارى الادارة فى كتابة الأنظمة الداخلية، منع هذه الرموز التفاخرية ، آخذين فى الاعتبار أن وجود رموز بطريقة أقل وضوحا تترجم فقط الإرتباط بعقيدة شخصية، وليست مجالا لنفس التحفظات كما ذكر من قبل مجلس الدولة والفقه الادارى»

وفى لقاء **جريدة الليبراسيون** بوزير التعليم دافع عن مرسومه الذى لاقى معارضة من جانب اليسار، كما فى معسكره فى اليمين، سنسوق من هذا اللقاء أهم ماجاء فيه.

عندما سئل الوزير بأن مرسومه لم يحقق المرجو منه، ولم يعالج المشكلة، أجاب بأن هذا الموضوع مطروح منذ سنوات وأن مرسومه يظل هدفه هو الخروج من هذا الوضع، وليقول لأول مرة بوضوح ماهى مبادئ خياراتنا. وأنه لم يعتقد أبدا أنه يمكن أن تحل هذه النوعية من المشاكل فى ٢٤ ساعة. ومن يختار الشدة المطلقة كأسلوب للتعامل مع المشكلة فأن هذا يبعد عن سلوكنا واهدافنا كمربين. وفى المرسوم نحدد موقفنا الصادر عن مبادئنا فى ثلاثة لاءات: **لا الى التطرف، لا الى منطق كل وحالة وكل وقانونه** حيث سيؤدى هذا الى إنفجار المجتمع المدرسى، ولا **الى التفرقة فيما يتعلق بالفتيات.**

ويضيف **بايرو** كان لدينا ثلاث أو أربع حالات من الحجاب منذ خمس سنوات ، وصل عدد الحالات فى يونيه الماضى الى **ألفى حالة** واليوم وصلنا الى **١١٤٣** حالة أى الى النصف تقريبا ، لقد رفضنا سياسة النعامة.

ولتنظروا لما يحدث فى الجزائر ومصر وفى ترنس وتركيا لنأخذ احتياطاتنا ففى الجزائر نتيجة الأمس تعلن عن إحراق ٦١٠ مدرسة منذ ثلاثة أشهر، لأنهم حاولوا الدفاع عنها ضد التطرف، وعن فكرة ما عن الرجل وعن المرأة.

وحتى فى فرنسا تتزايد هذه الدلالات. ليس فقط الحجاب ولكن **رفض بعض الحصص، ورفض بعض أجزاء من المنهج.** وقد أبلغنى بعض النظار أن بعض الطلاب كانوا يرفضون حضور حصص اللغة الفرنسية لأنهم يدرسون رونار ronsard ورابليه roblais وهما كاتبان كافران من وجهة نظرهم.

وردا على سؤال عما إذا كان موقفه هذا سيؤدى الى أن تتخذ الفتيات موقفا أكثر راديكالية، حينما سيكون عليهن الاختيار

بين المدرسة وعائلاتهن، أجاب أنه لهذا طلب ترك الوقت لهن لنشرح لهن ماسيجنوه من المدرسة ومن العلمانية، ولانهامهن مع الإحترام الواجب لماذا **لايمكننا أن نقبل فى فرنسا التمييز الذى يهدف الى إنغلاق الفتيات داخل أدوار ليست لهن**.

وردا على سئل آخر بخصوص نظار المدارس الذين أكدوا أنهم ذهبوا فى حوارهم مع المحجبات وأسرهم حتى نهاية إمكانياتهم فى الإقناع وإذا ماكان سيجبرهم، أعلن بايرو فلنأخذ مثال ليسيه فيدرب faidherb بمدينة ليل lille فى الشمال. حيث بدأ الحوار منذ ١٨ شهرا، وقال أقدر مخاوف المعلمين، إلا أنه على النظار ومعاونيهم إتخاذ القرار حسب الحالة ولدى فيهم جميعا الثقة وسأساندهم دون تحفظ.

وعندما سؤل أنه فى مرسومة أستند على التمييز بين علامة غير ظاهرة، وعلامة تفاخرية وكيف يمكن وضع الحدود بينهما أجاب بأن هذا التمييز ليس من صنعه، إنه من صنع القانون الفرنسى ومجلس الدولة. إذ أن ماهو تفاخرى هو مايتباهى به كما هو، ويخص كما هو، وهو فى الغالب ما يثير الإضطراب، والموقف ليس كذلك مع الحلى التقليدية، كالميداليات، ونجمة داود، وذراع فاطمة.. الخ **فالعلمانية ليست إزالة للأديان، ولكنها إحترام لها**. ولكن أولا إحترام لمبادئها.

وسئل عما إذا كان مجلس الدولة لايعتبر الرمز فى حد ذاته تفاخريا، أجاب الوزير بأن رأى مجلس الدولة الذى أدخل مفهوم التفاخر هذا قد لامسة ببعض الإعتبارات: **فهو يدين ماهو تبشيرى.. وهذه الرموز هى فى حد ذاتها بداهة عناصر للتبشير، بحيث من يدافع عنها يؤكد أن المرأة لايمكن أن تكون مسلمة حقيقية** دون **لبس الحجاب**.وسوف أضيف مفهوم غير محتمل بالنسبة لنا- أضاف الوزير- وأنه قد حان الوقت لتذكره وهو الخاص برفض التميز الذى يستهدف الفتيات ويمنعهم من أن يأتين بسلوك مسار لسلوك الفتيان.

وطرح سؤال آخر حول اذا ماكان يعتبر الطاقية اليهودية تفاخرية، أجاب أن هذا الرسالة موجهة للجميع، دون هذا ستكون غير ذات معنى. **موجهةللشباب المسلم، وموجهة للشباب اليهودى وموجهة للشباب المسيحى.**

وعما اذا لم يخش بعد الإستبعاد الأول تطور حركة التضامن فأجاب إذا مادا فعنا عن المثال أو تخلينا عنه حسب **ماسنفعل سيتحدد** على وجه فرنسا فى العشر والعشرين سنة القادمة موقع الإسلام، وموقع المرأة المسلمة.فى الجزائر خاطر مئات الألوف من الفتيات عندما رفضوا العودة للمدارس بالحجاب فى حين كن مهددات بالموت، إنه مهم علينا أن نظهر تضامننا. إذ أن عدم الإكثرات شكل من أشكال الجبن، وبدون شك فهو منتشر،ولا أستطيع الإلتحاق به.فأنا مؤمن أحترم بالطبع المؤمنين. ولكن علينا أن نظهرأننا أيضا مؤمنون بحقوق الإنسان، وبفرنسا وبالجمهورية. وعندما سئل عن المهلة النهائية المحددة للفتيات لخلع الحجاب، أجاب طلبت أن يترك الوقت للمربين ليشرحوا، والوقت للإقناع، وأن نتركهم يحكمون بأنفسهم على الأرض، للوقت الذى سيستنفذون فيه كل منابع الحوار.

لكن ماهو الموقف الفعلى لمجلس الدولة، ومن المعروف بأنه قد ألغى فى ١٩٩٢ قرار فصل فتاتين بسبب الحجاب وأعترض على اللائحة الداخلية للمدرسة، وذلك فى اعقاب إشكال الحجاب الذى أندلع فى مونفرمى الضاحية الباريسة؟

مرسوم وزير التعليم يستند على ماجاء فى هذا القرار الذى يقول « **يفرض مبدأ العلمانية فى التعليم العام الإحترام من جهة حيادية البرامج ومن جهة** حرية الاعتقاد للتلاميذ.. **إذ ممنوع التمييز الذى يستند على اعتقادات وعقائد التلاميذ ويغلق السبل بينهم وبين المدرسة.. ارتداء التلاميذ فى المدراس لرموز يرمون من خلالها إظهار إرتباطهم لديانة معينة ليس** فى حد ذاته غير متفق مع مبادئ العلمانية **طالما يشكل ممارسة لحرية التعبير وإظهار** الاعتقادات الدينية ، ولكن.. **هذه الحرية لاتسمح للتلاميذ بالتباهى برموز ارتباطهم** الدينى ، **والذى بطبيعته وبالشروط التى** يرتدى فيها فرديا أو جماعيا، **أو بطبيعة هذه** الرموز التفاخرية أو **المطلبية** (الادعائية) بشكل فعل ضغط،وإثارة، وتبشير أوبروباجندا، **ينال من كرامة أو حرية** التلميذ أو أى أعضاء آخرين من المجتمع التعليمى، ويعرض للخطر صحتهم أو سلامتهم ويثير إضطراب سير **أنشطة التعليم** والدور التربوى للمعلمين، وأخيرا **يخل بنظام المؤسسة التعليمية والعمل المعتاد للقطاع** العام».

كان هذاهو رأى مجلس الدولة منذ سنتين والذى حاول وزير العليم أستيحائه عندما أصدر مرسومه الا أن هذا لم يهدأ من الموقف بين الطرفين على الأرض بين مؤيدى الحجاب ومعارضيه فالطرف العلمانى يؤكد أن رفض الرموز الدينية التفاخرية هو مبدأ من مبادئ الجمهورية، بينما يرد الطرف الآخرأن تلك تظاهرة لعدم التسامح وللعنصرية. هذا وقد انتشرت الظاهرة فى عديد من المدارس **فيجرسينفيل** goussainill وكرى creil وناتنيا nantua وأماكن أخرى.. إلا أن مايز حالة المدرسة الأولى فى **جوسينفيل** هو سرعة التحرك والتجنيد التى قام بهما الطلاب الذين شكلوا لجنة لمساندة الفتيات المحجبات بالمدرسة، يضاف الى هذا مهارتهم ونجاحهم فى الوصول الى وسائل الإعلام، مما يجعل البعض يؤكد بأن هناك أصابع خفية لتحرك هؤلاء الطلاب، وخاصة أنهم من الطلاب الذين يتصلون بمنظمات معروفة إنتماءاتها وينقل أحد الصحفيين باندهاش مادار بينه وبين أحد الصبية فى الضواحى حينما قال له: **«من يعرف ربما سيأتى اليوم الذى ستضعون فيه أنتم أيضا الحجاب»** ثم ينبرى الصبى فى تبرير اغتيال الصحفيين الفرنسيين فى الجزائر، وقوله أن الفرنسيين قد دمروا ١٧ مسجدا، وينقل إحساسه بأنه غير مفهوم، ومتجاهل، بل ومرفوض من قبل المجتمع. ولعل اللافت للنظر الى جانب هذا الخطاب الجديد الذى لم يكن أحد يسمعه من قبل هو الطريقة التى بدأ يأخذها الخطاب حينما يتنادون فيما بينهم « بالآخ والأخت»، مما يرى المعترضون معه بأنه يعمق الهوة بين الطلاب وبعضهم، عندما يصبح مقدمة للغة طائفية لم يكن أحد يسمعها منذسنوات قريبة، مما يخلق معه مناخا ترسم فيه سريعا حدود بين المسلم وغير المسلم، والتخوف هو **أن يتطور ذلك ويصبح- فى نظر المتشائمين- نوعا من التهديد باللبننة**. إلا أن الغريب هو غياب العدد الأكبر من الفتيات المسلمات عن الساحة فيما عدا بعضهن، وتتصدر الفتيات فى الأغلب للدفاع عن الحجاب، والحقيقة هو أن هناك جوا عاما يشيعه أنصار الحجاب، وهو منتشر بين الفتيات، **وهو أن الحجاب جزء من الاسلام الصحيح. وكثيرا ما يقوم الفتيان بمراقبة الفتيات وكأنهم مخولون** ومصرح لهم ذلك، **ويصل الأمر الى حد الارغام، كما حدث فى الربيع الماضى حينما أدانت محكمة** **بوبينى أحد الفتيان وقد أتهم بضرب**

أخته.

حتى الآن فالظاهرة تختفي - في منطقة سان ديني وحدها وعلى سبيل المثال - ١٧ مدرسة فقط من مجموع ١٧٨ مدرسة موجودة بالمنطقة، وعلى وجه التحديد بها ٤٣ فتاة محجبة، وتعتبر هذه النسبة عالية بالقياس للمناطق الأخرى نظراً لتركز عدد كبير من الأسر المهاجرة من أصل مغاربي في هذه المنطقة.

وفي إطار الاهتمام المتزايد بالظاهرة خرج أخيراً نتيجة لقياس الرأي حول موضوع الإسلام في فرنسا بشكل عام، نقتطف منه ما هو خاص بظاهرة الحجاب، ففي الاجابة على سؤال إذا كنت مع أو ضد الحجاب جاءت الإجابات على النحو التالي:-

وقياس الرأي هنا يوضح لحد كبير تراجع المؤيدين للحجاب، ليس في أوساط الفرنسيين فقط بل أيضاً في أوساط من هم من أصل إسلامي. وعلى الرغم من هذا التراجع والذي يشكل ظاهرة جديرة بالتحليل في ظل تصلب مواقف مؤيدي الحجاب، بالرغم من ذلك لجذآن الفتيات ممن يرتدين الحجاب، وهن في الغالب بين السادسة عشرة والتاسعة عشرة من العمر، هن ممن ولدن في فرنسا ويمثلن الجيل الثالث من المهاجرين، ويحملن الجنسية الفرنسية. كانت جداتهن اللاتي وصلن مع أجدادهن لايرتدين حجاباً بل يلبسن مناديلهن الشعبية المعروفة، وأمهاتهن لم يلبسن يوماً هذا الحجاب، ومع ذلك كن يشعرن دائماً بأنهم مسلمات، ولم يشكك أحداً في إيمانهم اذن ما الذي حدث؟

يحاول عديد من المختصين أن يجد إجابة شافية، فعندما سئل مدير مسجد باريس الكبير دليل بوبكير إذا ما كان يرى المنديل رمز الإسلام الغزو أجاب أبداً، إنه ببساطة التعبير عن إيمان حي، وأكثر إلزاماً، اذ عندما نجد أنفسنا أمام أكثر من أربعة مليون شخص، ينبغي قبول أن البعض يختار أن يعيش إسلام أكثر صرامة. ينبغي أن يجد مكاناً له في فرنسا.

وعندما سئل **برونو إسعين** مدير معهد الدراسات السياسية **بأكيس أن بروفانس** أكثر المتخصصين معرفة بالعالم العربي الإسلامي، إذا ما كان الإرهاب والمنديل يعنيان نفس الشيء، سخر من صاحب السؤال وبادر «**هكذا يهذي الفرنسيون** بخصوص الموضوعين»، واستطرد «بأن إذا قمنا بجدية بحصر حصيلة الإرهاب الدولي سنجد أن أكبر نسبة من العمليات الإرهابية هي من عمل المنظمات المحترفة المرتبطة بالدول. أن يكون هناك شباب وراءهم من يحركهم، فهذا موضوع قديم قدم العالم، وإذا **كانت فرنسا قد أصبحت قاعدة للتدريب فينبغي معرفة أنها أيضاً قاعدة للانفصاليين الباسك، والكورسيكيين، والايرلنديين وللإسرائيليين وللآخرين» وأتهم الغربية السعودية، وكل الدولة الإسلامية الحليفة لفرنسا بالتمويل**، وتساءل عما بنى مسجد ليون. وأخيراً طالب بالأيضع الفرنسيون بأنفسهم الكوابيس مثل المنديل الإسلامي، والتطرف الديني والإرهاب لكي يتفادوا **المشاكل الوحيدة الحقيقية للضواحي وهي البطالة والمخدرات**.

وفي هذا السياق أجاب الباحث الشاب **جيل كيبل** مدرس الأبحاث في المركز القومي الفرنسي للبحوث، على إذا ماكان الحجاب هو حصان المعركة مع الأصوليين، وإذا ماكانوا ينوون الدخول في مواجهة مع الدولة الفرنسية، أجاب بأن الحجاب مجرد علامة ظاهرة لأزمة بين منطقين منطق دمجي للجمهورية، ومنطق طائفي يدعو الى إعادة الأسلمة، وقد تغير كثيراً موقف الإسلاميين إذ في حين كانوا يطالبون في الماضي فقط بالسماح للفتيات بأن تكون صورتهم الشخصية بالحجاب، بدون ضغط أصبحوا يرون اليوم أ هذا النوعية من المطالب ليست قابلة للنقاش، وأن ما يعلمه القرآن يمر قبل اللائحة الداخلية للمدرسة. وعلى سؤال إذا ماكانوا يودون تصدير الشريعة الإلامية لفرنسا، ردكيبل أولاً **لاتجعلون من الإسلام شيطاناً، لأن البعض يحاول أن يجعل من امبراطورية للشر لتحل محل الإتحاد السوفيتي السابق إذ ليس هناك كومنترن لآيات الله، ولاحركة دولية لأصحاب الزقون**، يصبح كاريكاتيري تصور أن وراء كل إسلامي يختفي وراءه مؤيد لجبهة الإنقاذ.

وعن سر احتمامهم بالإسلام على الرغم من نفورهم منه في الثمانينات يقول نخطأ عندما نعتقد أن هذه الحركات تبدو قاسية ورثة رجعية، فالحقيقة أن هذه الحركات الجديدة البعض منها غاية في التطور، فالبعض يستخدم أجهزة الفيديو في الشرح، كما بدأ البعض يستخدم طريقة الراب rap الغنائية لتوصيل رسائلهم خاصة في الولايات المتحدة، حيث أن أكبر الفرق الغنائية public eneny قريبة من حركة إسلامية متشددة مثل أمة الاسلام أو المسلمون السود وهي التي شملت في صفوفها قديماً مالكوم أكس، وكما في البلدان الإسلامية فقادة هذه الحركات في أغلبهم يحلمون عديد من الشهادات الجامعية والتي تعطيهم نفوذاً في صفوف الشباب والذي في غالبيته يعاني من الفشل المدرسي.

في بعض الضواحي حيث يتقابل في الغالب العنف والشك يصبح هؤلاء القادة نقاط يرتكز عليها. إعادة التأكيد على الاسلام تميز النظام، وتعطيهم مرة أخرى معنى، وإحساس بالفخر. إذ تخلق تضامنات جديدة. إنه أولاً طريقة للدفاع ضد محيط معادي، ويضيف كيبل أن هذا الجماعات تعمل الآن في أغلبها في العمل الاجتماعي مثل المساندة المدرسية، ومساعدة العائلات المحتاجة، ومقاومة الادمان.. الخ وهذا يعتبر إعادة للإسلحة التي تبدأ من القاع، وتدفع للأمام المطالب الطائفية، وهي أيضاً حديثة.

ويلح كيبل على إختلاف النظامين الأمريكي والبريطاني الذي يعتمدان على التقسيم العرقي الطائفي، وبينما يعتمد النظام الفرنسي على فكرة المواطنة ويرى لهذا السبب كثيراً مايلجأ الاسلاميون في فرنسا الى الحديث عن النموذج الأمريكي أو البريطاني وربط مطالبهم بالحجاب في المدرسة بمحاولة الوصول الى شكل من الشكلين السابقين اذ الكفاح من أجل إرتداء الحجاب هو كفاح من أجل نوعاً من «الحكم الذاتي» الذي يفضي في وقت ما الى إختلاف في الحقوق والقوانين.

مازال الاشكال قائماً، ووزير التعليم مازال يتشبث بشعرة معاوية، لكي يتفادى أسوأ الأمور وهي فصل الطالبات، وبالتالي يمكنهم مواثلة تعليمهن عن طريق المراسلة، والفتيات المحجبات يناقش هذا المسألة فيما بينهن على إفتراض الاسوأ لكن التساؤل الهام هل حقاً يمكن التضحية بالتعليم والمعرفة وبالتالي المستقبل من أجل إرتداء الحجاب. لفتيات كانوا بالأمس القريب يرتدين الميني والميكروجيب، ولايعرفون شيئاً عن بلدانهم الأصلية سوى حكايات الاباء والأمهات؟

وهل يصبح هذا الإشكال درساً لاسلاميينا في بلداننا العربية، لكي يعرفوا احساس الأقلية في بلد ما، فيغيروا من نبرة الاستعلاء على الأقليات في بلداننا، هذا ودائماً في حالة غياب مبدأ المواصلة والذي يعتبر المبدأ الحقيقي لتجاوز قبل هذه الأزمات..

المؤتمر السنوى لحزب العمال البريطانى ببلاكبول :

حزب العمال يتحرك الى الوسط

رسالة لندن

★ التغييرات التى أجراها زعيم الحزب الجديد بلير جعلت الحزب مقبولا من الطبقة الوسطى

★★ «الجناح اليسارى» يخسر الأرض ولكن نوابه مازالوا متواجدين

★★★ أصبح اللون «الاخضر الفستقى» هو لون الحزب لكنه احتفظ بالوردة الحمراء

صدرت مجلة **«الايكونوميست»** البريطانية فى نفس اليوم الذى انتهى فيه المؤتمر السنوى لحزب العمال البريطانى ببلاكبول وعلى غلافها الرسم الشهير للينين وخلف رأسه علم الثورة البلشفية ومن ورائه الجماهير. وبدلا من **لينين** ، وضع رسم تونى بلير الزعيم الجديد لحزب العمال البريطانى والعنوان **«ثورة اكتوبر بزعامة بلير»** إشارة للتغييرات التى حدثت فى حزب العمال البريطانى وتوج فى المؤتمر السنوى فى الاسبوع الأول من اكتوبر ١٩٩٤.

ويعتبر مؤتمر بلاكبول هذا العام انطلاقة جديدة للحزب الذى **فشل** فى **أربعة** انتخابات عامة متتالية منذ عام ١٩٧٩. وقد حدد زعيم الحزب الجديد تونى بلير الذى انتخب بعد وفاة زعيم الحزب السابق **جون سميث**، اتجاه الحزب الجديد للفوز فى الانتخابات العامة القادمة التى تجرى فى غضون عامين.

ويختلف حزب العمال البريطانى عن معظم -، إن لم يكن كل-، الأحزاب الاشتراكية الأخرى. فلم يكن الحزب موجودا قبل هذا القرن، وله جذور فى الحركات العمالية والنقابية والتعاونية التى ازدهرت فى القرن التاسع عشر. فقد تجمع العمال فى كل هذه المنظمات لحماية أنفسهم من ظروف العمل الصعبة التى بدأت فى بزوغ أول ثورة صناعية فى العالم. وتأسست «لجنة تمثيل العمال» عام ١٩٠٠ وكانت عبارة عن تحالف بين النقابات والمجموعات الاشتراكية، وكان من بين هذه **«حزب العمال المستقل»** **و«جمعية الفابيان»** التى كونها بعض المثقفين اليساريين. ثم أعلن **«حزب العمال»** من كل هذا الخليط عام ١٩٠٦، وخاض المعركة الانتخابية فى نفس العام، ففاز ٢٩ نائبا من مرشحيه استطاعوا دخول «مجلس العموم» البريطانى.

وفى عام ١٩١٨ اعلن عن دستور الحزب الجديد، فاستطاع «حزب العمال» أن يتبنى الاشتراكية رسميا، وجاء هذا فى البند الرابع الشهير لدستور الحزب والذى تم التصويت عليه بعد أن اقترح انتونى **بلير** إسقاطه، لكن اعضاء الحزب فى المؤتمر صوتوا على إبقائه، وينص هذا البند على التزام الحزب بالملكية العامة «لوسائل الانتاج والتوزيع والتبادل» وتمت طباعته على بطاقة العضوية والانتماء للحزب.

ونمت شعبية «حزب العمال» بسرعة. وفى الانتخابات العامة سنة ١٩٢٢، جاء ترتيبه الحزب البريطانى الثانى فى مجلس العموم، وبعد سنتين ، شكل **رمزى ماكدونالد** أول حكومة عمالية، لكنها لم تكن حكومة اغلبية، فلم تستمر كثيرا، واستطاع المحافظون إزاحته فى نفس العام. وتشكلت حكومة عمالية ثانية عام ١٩٢٩ وظلت فى السلطة هذه المرة حتى عام ١٩٣١، لكنها

سقطت لأنها فشلت في علاج «الكساد العظيم» الذي اجتاح العالم الرأسمالي. واستمر تحالف اليمين في السلطة منذ عام ١٩٣٩ وحتى قيام الحرب العالمية الثانية ثم انتهائها عام ١٩٤٥. واثناء الحرب دعي العمال لدخول حكومة «وحدة وطنية».

وتمكن حزب العمال من تشكيل حكومة عمالية في انتخابات مابعد الحرب العالمية الثانية، حيث اكتسح وكانت له أغلبية مطلقة في «مجلس العموم». فكانت يده مطلقة للقيام بإصلاحات اجتماعية واقتصادية، **فأممت الصناعات الرئيسية، وعلى رأسها صناعة الصلب والسيارات ومناجم الفحم، كما تأسست «الخدمات الصحية الوطنية» nhs.** وقد أطلق على هذه الفترة «إجماع ما بعد الحرب العالمية»، لأن الأحزاب السياسية كانت كلها موافقة على هذه الاجراءات.

لكن حزب العمال هزم عام ١٩٥١، وظل في المعارضة ١٣ عاما متتالية، وإن ظل يحصل رغم هزيمته في الانتخابات، على ٤٠٪ من أصوات الناخبين. وظلت **الاصلاحات التي قامت بها حكومة كليمنت آتلي لاتمس لشعبيتها، فلم تجرؤ حكومات المحافظين على المساس بها.** لكن حزب المحافظين تسلم «إدارة «دولة الرفاهية» التي اقامها حزب العمال.

وفاز زعيم حزب العمال هارولد ويلسون في الانتخابات العامة التي جرت سنة ١٩٦٤، ولكن بهامش ضيق. ومنذ ذلك التاريخ **لم يعد «التأميم» هو قلب سياسة العمال،** واعلن الحزب أنه يمكن إدارة اقتصاد البلاد، وهو مكون من الصناعات المؤممة والقطاع الخاص. أنه يمكن السير بهذا **الاقتصاد المختلط،** في الوقت الذي يمكن فيه **الاحتفاظ بالعدالة الاجتماعية، والعمالة الكاملة** منذ ذلك التاريخ بدأ حزب العمال يماثل الأحزاب الاشتراكية — الديمقراطية الأوروبية، وإن لم يكن بشكل كامل.

وكان إضراب عمال المناجم ١٩٧٤/٧٣، هو واحد من آخر الانتصارات العظيمة للحركة النقابية البريطانية. ذلك انه أدى إلى إسقاط حكومة المحافظين التي أسقطت العمال سنة ١٩٧٠. لكن ثمن النجاح كان باهظا بالنسبة لحزب العمال، كحزب سياسي لكل الأمة. فمنذ ذلك الحين **أخذ الناخبون ينظرون الى حزب العمال، كحزب النقابات** والعمال وحدهم. وقد شعرت حكومة جيمس كالاهان بهذا اكثر من غيرها، عندما حاولت فرض قيود على المرتبات، وأجتاحت البلاد موجة من الاضرابات، أدت في النهاية الى تركيع حكومة كالاهان، وكانت أحد العوامل الهامة في وصول **السيدة مرجريت تاتشر** على رأس المحافظين الى السلطة واستمرارهم لأربع فترات متوالية ابتداء من عام ١٩٧٩.

واذا كانت حكومة آتلي راديكالية في تنفيذها للبرنامج العمالي، فقد كانت رئيسة وزراء بريطانيا وحكوماتها المتتالية، راديكالية يمينا. فقد ركبت موجة سخط الطبقة المتوسطة والصغيرة على النقابات وموجة الاضرابات وعدم الكفاءة في إدارة الصناعات البريطانية المؤممة والمؤسسات والشركات التي تملكها الدولة. **فقامت بعملية خصخصة واسعة النطاق للقطاع الذي تملكه الدولة، ووصلت بالخصخصة الى قطاع المواصلات والمياه، وهيئة البريد التي تحقق أرباحا طائلة.** وتمت استقطاعات هائلة في المصروفات العامة، كما صدرت قوانين لتحكم سلطات النقابات، **وكانت هزيمة إضراب عمال المناجم عامي ٨٤و١٩٨٥ بقيادة نقابة عمال المناجم التي يتزعمها أرثر سكارجيل هي نهاية عصر هيمنة النقابات على العمل السياسي. وكان ذلك معناه قبول العمال لسيادة«السوق الحر».**

فترة أزمة

كانت الثمانينات هي مرحلة أزمة لحزب العمال. ففي انتخابات عام ١٩٨٣، وصل نصيبه من أصوات الناخبين الى ٢٨٪، وهذا أسوأ أداء انتخابي له نهاية الحرب العالمية الأولى (١٤-١٩١٨). وخاضت زعامة **نيل كينوك** للحزب صراعا مريرا بين جناحي الحزب اليميني واليساري. وانقضت هذه الفترة في محاولة طرد الجناح اليساري- المتطرف «**اتجاه المناضلين**» الذي يمثله ايضا عدد من النواب.

لكن كل ما أحدثته قيادة **نيل كينوك** من تغيرات، لم تكن كافية للفوز، وفشل الحزب للمرة الرابعة على التوالي في انتخابات عام ١٩٩٢. واستقال **نيل كينوك،** ليتولى جون سميث القيادة فاستمر في إجراء إصلاحات هامة في الحزب لعل أهمها هي **إصلاح «النظام الانتخابي» للحزب الذي كان يعتمد اساسا على تصويت النقابات،** وانتزع النظام الجديد من النقابات هذا الحق. لكنه مات فجأة في اوائل هذا العام (١٩٩٤) وانتخب اعضاء الحزب الزعيم الجديد **توني بلير،** انتخابا مباشرا، حسب النظام الانتخابي الجديد.

التغيير

كان من المهم تغيير الحزب بعد تغير الظروف الدولية والبريطانية ليتحول حزب العمال الى حزب سياسي **تقبل عليه عدة طبقات- الصغيرة والمتوسطة- الى جانب الطبقة العاملة.** لكن الجناح اليساري والعناصر الراديكالية في الحزب كانت تعارض هذا الاتجاه، وتقول عنه أنه اتجاه نحو اليمين، وخيانة للطبقة العاملة. اتهمت العناصر الراديكالية **توني بلير** بأنه يبعد الحزب عن جذوره الاشتراكية. كان حزب العمال طوال تاريخه يعكس هذا الصراع الذي نشأ عن تكوينه، هؤلاء الذين يريدون تغييرا المجتمع تدريجيا، وهؤلاء الذين يريدون تغيير سريعا في المجتمع. ولذا يكتب **جريجوري البرت** في كتابه «حزب العمال والعبقرية الانجليزية» الذي صدر العام الماضي ١٩٩٣- "THE LABOURISM AND THE ENGLISH GENIUS" **«كان حزب العمال طوال تاريخه، حلا وسطا بين إصلاحيين اجتماعيين، وإصلاحيين اشتراكيين الذين كانوا دائما أقلية بين اعضاء الحزب عموما، والنقابيين، ونواب الحزب. وكما يظهر من اسم الحزب، لقد تأسس ليحسن من الرأسمالية (بتحسين ظروف العمل ومعيشة الطبقة العاملة). لا أن يقضي عليها.».**

وحدد **انتوني بلير** هدف حزب العمال في خطابه في المؤتمر «أن المبدأ الأساسي ليسار - الوسط.. أن المجتمع ينبغي أن يعمل أفراده جنبا الى جنب لكي ينجحوا».

وحددت قيادة بلير في المؤتمر السنوي بأن الحزب ستكون له روابط اضعف بالنقابات العمالية، وأقل رغبة في فرض الضرائب من الحكومات العمالية السابقة. وقد ظهر هذا جليا أثناء إضراب عمال إشارات السكك الحديدية، فهو لم يؤيد العمال المضربين، هذا رغم أنه أبدى تعاطفه معهم وفي المؤتمر السنوي لاتحاد النقابات الذي انعقد في شهر سبتمبر، دعا الى تحكيم حيادي» للإضراب،

وكان من الواضح انه يبحث نفسه عن نقابة عمال النقل.

وعندما كان **تونى بلير**، وزيرا لداخلية الظل العمالية، قبل انتخابه زعيما للحزب بعد وفاة **جون سميث**، تحدى دعاوى المحافظين بأنهم حزب القانون والنظام، وأكد أن حزب العمال سيكون «حازما في حربه ضد الجريمة، حازما مع اسبابها». ولم يكن بلير وحده هو الذى يعلن عن السياسات الجديدة، وزير خزانة الظل العمالية **جوردون براون** قطع علاقة حزب العمال بسياسات الماضي عندما أعلن بدوره في المؤتمر: «أن الحزب لن يغامر بإحداث تضخم، ونحن نرفض الحلول الارتجالية في فرض الضرائب والصرف والاقتراض». وتتضمن استراتيجية حزب العمال الآن خططا طويلة المدى للضرائب والاستثمار في الصناعة، وتدريب الشباب. كذلك ستكون هناك حوافز لتلك الشركات التي تقوم بتعيين العمال العاطلين لمدد طويلة.

لكن اعضاء الجناح اليسارى لحزب العمال يرون أن بلير ذهب بعيدا في التجديد والاصلاح، عن سياسات إعادة توزيع ثروات البلاد من خلال التأمين وفرض نسبة ضرائب عالية على الأغنياء. لكن هذا أصبح بعيدا عن برنامج حزب العمال. وحقيقة الأمر أن سياسة حزب العمال ذهبت بعيدا في هذه المجالات لدرجة أنه أصبح من الصعب التفرقة بينها وبين سياسات المحافظين.

لكن القيادة الشابة- الجديدة تأمل في أن تجذب الشباب، فهؤلاء كبروا في ظل حكومات محافظة لايعرفون غيرها، وقد شبوا على التصويت لحزب المحافظين. ولقد كان بلير نفسه مسئولا على مدى السنوات الثلاث السابقة عن «شباب العمال». وبلير نفسه في الواحد والاربعين من عمره، ومتوسط السن بين اعضاء العمال ٤٨ عاما. لذا تريد القيادة ضم الجيل الجديد الاصغر مستغلا «الكاريزما» التي تتمتع بها القيادة الشابة.

ويذكر تقرير حديث أن الشباب تحت سن الخامسة والعشرين لم يصوت نصفهم في الانتخابات العامة الاخيرة التي جرت عام ١٩٩٢. والسبب أنهم لم يشعروا أن الأحزاب السياسية تهتم بالقضايا السياسية التي تهمهم مثل العنصرية في بريطانيا، وبالاضافة الى ذلك فإن ٦٢٪ من السيدات والفتيات بين سن ١٨ و٢٤ لم يدعين الى المشاركة في أي نشاط سياسي. ويصحح حزب العمال الآن هذا الوضع بزيادة عدد السيدات المشاركات في قيادته وفي الترشيح للنيابة في «مجلس العموم».

أخضر فستقي

في المؤتمرات السنوية السابقة لحزب العمال، كانت قاعة المؤتمر الرئيسية تغرق في **اللون الأحمر الفاتح. اليوم تغير هذا الى اللون الأخضر الفستقي** المريح للعين. ولم يبق الا **الوردة الحمراء رمز الحزب.** كانت هذه أول ملاحظة اثناء متابعة خطاب الزعيم الجديد **انتونى بلير**. ويهمنى هنا التركيز على الجزء الاقتصادى، عندما قال: **«لاسباب تاريخية معروفة، صور حزب العمال، على أنه الحزب المعادى للسوق، فبرز اليمين كحزب السوق، دون حد من المعارضة العمالية. كان معناه أن يكون اليمين حزب الصناعة والأعمال والتضخم المنخفض، والضرائب المنخفضة، والإقلال من الصرف، وكل هذا لأن يسار- الوسط يؤمن بالاستثمار اكثر في «البضاعة الاجتماعية» مثل التعليم والصحة. ومعنى هذا مصروفات أكثر مما سيؤدى الى فرض ضرائب أعلى».**

وتحدث بلير عن الفروق بين اليسار واليمين في هذا المجال فقال: «فاليسار واليمين مع الادارة، لكن الفارق أن حزب العمال يريد قوة عمل تتمتع بالكفاءة وبالتالي متعلمة ومدربة، وتعامل على أنها شريكة في الانتاج. ويختلف حزب العمال مع المحافظين الذين يصرفون على البطالة المتزايدة (بصرف إعانات البطالة)، ويريد حزب العمال أن يصرف أكثر على الموضوعات الاقتصادية والاجتماعية المنتجة أما المصروفات والضرائب فيرى حزب العمال انها لاتنفصل عن وضع الاقتصاد والقضية هي عدالة الضرائب، فمقياس كبرها أو صغرها نسبي.

«والقضية الأساسية في هنا كله هي التزام اليسار بالعدالة الاجتماعية التي ينبغي أن تسير جنبا الى جنب مع الكفاءة».

ويظهر وعي **انتونى بلير** بما يحدث من تغيرات سياسية واقتصادية في العالم عندما قال:

«ليس هناك بديل لبريطانيا إلا أن تضع في اعتبارها التغيرات الهائلة التي تحدث في الاقتصاد العالمي، بما في ذلك العالمية GLOBALISM ونهاية الهيمنة الاقتصادية الامريكية، والتغيرات التقنية».

ونبه بلير الى خبرة نجاح الاقتصاديات الاخرى، بما في ذلك تكاتف القطاعين العام والخاص، وأهمية المؤسسات والشركات المتوسطة والصغيرة في عملية النمو الاقتصادى».

النقاط الاربع الأساسية

وحدد وزير خزانة الظل جوردون براون في خطابه امام المؤتمر السنوى، التفكير الاقتصادى الجديد لحزب العمال البريطاني، في أربع مجالات رئيسية:

الأول: الاستثمار في الصناعة: حوافز ضرائبية جديدة مقابل اتفاقيات استثمارية طويلة الأمد. الزام المستثمرين في الشركات بميزانيات مقابل خطة استثمار متفق عليها، لتشجيع الاستثمار والنمو.

والثانية: الاستثمارات في الناس: برنامج تدريب تقوم به الإدارة، وإذا لم تقم الشركة بالصرف على هذا النوع من التدريب، فإنها تدفع في «صندوق وطني» يقوم بالتدريب. وتتأسس «جامعة الصناعة» هدفها تدريب العاملين بمشاركة وطنية.

والثالثة: الاستثمار في البناء التحتى: وتوسيع مفهوم شراكة القطاعين العام والخاص في التدريب وصناعة الدفاع، وفي سياسات المدن- الداخلية والأقاليم، وتطوير التعليم العالي والاضافي، وتقديم المساكن الخاصة.

والرابعة: الاستثمار في فرص العمل

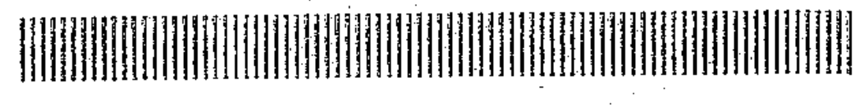
تتخذ إجراءات سريعة ومباشرة لدفع عجلة النمو، ولتخفيف البطالة الطويلة- المدى:

* أن يصل الشباب بشكل افضل الى التعليم والتدريب، ويكون الشباب «قوة المهام البيئية» ليقترن تدريبهم بمشروعات بيئية.

* صرف تأمين وطني مؤقت لصاحب العمل الذى يوظف عمالا من ذوى البطالة الطويلة المدى.

* تقديم الإعانة مباشرة للعمال الذين استغنت عنهم شركاتهم ويعاد تدريبهم من **اللحظة التي يخرجون فيها من وظائفهم.**

مجدى نصيف





لاهوت التحرير الآن

بشرى مصطفى

كانت مجلة النيوزويك فى عددها الصادر بتاريخ ١٩٩٤/٦/٢٧ قد نشرت مقتطفات من حوار أجرته مع أحد قادة لاهوت التحرير فى أمريكا اللاتينية، وهو القس الكاثوليكى **جوستاف جوتييريز** بوصفه واحدا من أبرز رموز هذه الحركة التى انطلقت من داخل الكنيسة الكاثوليكية، معلنة عن أهدافها المتمثلة فى الدفاع عن مصالح الفقراء والنضال من أجل التحرر الوطنى.

وكما هو معروف فإن **حركة لاهوت التحرير قد تأثرت منذ نشأتها بالأفكار الماركسية**، ليس فقط من الناحية السياسية، وإنما من الناحية المعرفية أيضا. ولأن هذه الحركة ، شأنها شأن العديد من الحركات الاجتماعية، لها معاييرها الخاصة. فقد كان من الطبيعى أن تشتمل العلاقة بينها وبين الماركسية على نقاط التقاء ونقاط افتراق. ففى حين رفض لاهوتيو التحرير الماركسية فى صورتها الاقتصادية والمادية الديالكتيكية، نجد أنهم قد تواصلوا مع تقاليد ماركسية أخرى، أى تلك التى أولت اهتماما أكبر للمعايير السياسية والثقافية.

والواقع أن تواصلهم مع المفاهيم الماركسية قد ساعدهم الى حد كبير فى فهم واستيعاب **منطق الصراع الاجتماعى**، وكشف آليات الإفقار والاستغلال التى تتعرض لها الشعوب والطبقات الفقيرة. وبهذا المعنى فإن الطابع الروحى للاهوت التحرير لم يقف حائلا أمام استخدام المفاهيم الماركسية كأدوات لفهم الواقع، وبالتالى لم يكن حائلا دون **رؤية الصراع الاجتماعى من منظور علمانى، أى بوصفه صراعا اجتماعيا وسياسيا**.

وربما يعبر ذلك أيضا ، بدرجة أو بأخرى، عن وعى بمنطق التاريخ. فتقبل الانحياز «الأخلاقى» لمصالح الفقراء، ثمة ضرورة لفهم آليات الافقار ووضعها فى سياقها التاريخى والاجتماعى. **فالفقر الذى يجب محاربته ليس شيئا آخر سوى الفقر فى مجتمع رأسمالى**. وهكذا تكف ثنائية الفقر/ الثراء عن أن تكون ذات طابع سرمدى، كما تكف عن أن تكون مجرد نتيجة لإرادة القدر.

وكانت أفكار جوتييريز قد عبرت عن هذا النمط من التفاعل بين اللاهوت والماركسية، فقد تأثر، شأنه فى ذلك شأن رفاقه، بعدد من المفكرين الماركسيين أمثال **جرامشى، ألتوسير، لوكاتش، وكذلك ماركس** وغيرهم. وجاء التقاؤه بالماركسية بطريق غير مباشر، من خلال التعامل مع العلوم الاجتماعية كأداة لتشخيص الفقر، ومن أجل رسم الخطط الملموسة للتحرر منه (إنريك دوسيل، الطريق/ ١٩٨٩)

ومن المؤكد الآن، وبعد كل هذه التحولات والاختلالات التى شهدها العالم فى السنوات الأخيرة ، من المشروع أن نتساءل عن مستقبل مثل هذه الحركات، خاصة تلك التى ارتبطت أيضا بأيديولوجيات التحرر الوطنى. كأن نتساءل عن موقفها الراهن مما يمكن تسميته بـ «أيديولوجيات التنمية» التى تصوغها وتروج لها الدوائر والمؤسسات الغربية؟ وماهى قدرتها على الاستمرار والتعبئة؟

بالطبع، وبالنسبة للاهوت التحرير، فإن السطور المقبلة، وهى مجرد إجابات قصيرة وسريعة **لجوستاف جوتييريز**، ليست كافية لإيضاح ذلك، ولكنها بدرجة ما ذات دلالة فى هذا السياق.

*** كيف ولد لاهوت التحرير؟**

جوتييريز: بالنسبة للعديد من المسيحيين فى أواخر الستينات ، كان من الصعب عليهم رؤية كيف يمكن أن يرتبط الايمان بالنضال من أجل تحقيق العدالة. لاهوت التحرير كان مسعى لايضاح أن المسألتين ليستا فقط متساوقتين ولكن، أيضا، لايضاح أن المسيحية تطلب عقدا اجتماعيا.

*** إن العالم قد مر بتحولات عديدة منذ ذلك الحين.**

جوتييريز: لقد تغير كثيرا ومن نواحى عدة. فمعظم أقطار أمريكا اللاتينية تحكمها الآن أنظمة ديموقراطية. وقد رأينا أيضا ، انهيار التجارب الاشتراكية فى أوروبا الشرقية. **ولكن الذى لم يتغير، أو بالأحرى ماصار أكثر سوءا، هو تفاقم فقر الغالبية العظمى فى أمريكا اللاتينية**. إن لاهوت التحرير مسعى، يرتكز على الايمان، لمحاربة الفقر. ومادام الفقر موجودا فى أمريكا اللاتينية، فسوف يظل لاهوت التحرير له معنى.

*** لكن العديد من الناس يربطون بين لاهوت التحرير والماركسية؟**

جوتييريز: الناس يتعاملون بقسوة عندما تتحدث بوضوح عن أسباب الفقر. ولكن الاطروحة المركزية للماركسية هى أن الدين ، وخاصة الايمان المسيحى ، يسهم فى الظلم الاجتماعى، لاهوت التحرير يرى العكس تماما. فهو يرى أن الايمان ومحبة الرب والارادة كلها تعمل ضد الظلم. وربما يساعد انهيار التجارب الاشتراكية الناس على فهم حقيقة لاهوت التحرير.

*** كثيرون يرفضون فكرة أن الدولة بمقدورها القضاء على الظلم**

الاجتماعي.

جوتييرز: لايستطيع لاهوت التحرير أن يقول أن على الدولة أن تتدخل في الاقتصاد بنسبة ٢٠٪ أو ٥٠٪ أو ٨٠٪. ومع ذلك إذا لم يعمل الاقتصاد على أن يكون الانسان في مركز اهتماماته، كما هو الحال الآن في بلدان أمريكا اللاتينية، فسوف نرفضه سواء كان ليبراليا أو أي شئ آخر.

*** يبدو أن شباب بيرو في هذه الأيام، وربما نتيجة لهذه الليبرالية، يرفضون النشاط الاجتماعي.**

جوتييرز: أنا لا أعم، ثمة انحسار حقيقي في النشاط السياسي، ولكن العديد من الشباب مشغولين جدا بمشكلة الفقر. أنت تذهب الى مدن الصفيح في ليما، ستجد أن مئات الشباب منخرطين في الصراع من أجل الحفاظ على حد أدنى من مستويات المعيشة. إن المسيحية والكنيسة، سيجدان قبولا كبيرا في أوساط الشباب إذا ماتحدثا إليهم بلغة تلتقي مع شواغلهم اليوميه.

*** هذا يثير الدهشة، لان هناك قلة من الشباب هم الذين يستجيبون للنداء الديني.**

جوتييرز: ثمة أسباب عديدة لذلك، فرغم أن دعمنا التبشيري من الخارج ذو قيمة كبيرة فهو يعطي لبعض الشباب فكرة عن أن القس غالبا مايكون مرادفا لشخص ما غريب. وأيضا، لكي تكون هناك نداءات يجب أن تكون الغالبية على درجة من النضج، وكذلك المسيحيون الذين يأخذون على عاتقهم المسئوليات الكنسية

. وإذا استقبل الناس الاشياء ببساطة فسوف تظل علاقتهم بالكنيسة أكثر سلبية. إن الافراد يمكنهم أن يستقبلوا الوعظ الكنسي المنفصل عن مجرى حياتهم اليومية، ومع ذلك لن يجدوا فيه ماهو حقيقي وحي.

***هل نمو الكنائس الانجليكانية يعني أنها اكثر حيوية للناس؟**

جوتييرز: أعتقد أنه يجب دراسة عدد منها عن كثب. فهناك العديد من الناس الذين يمكنهم الذهاب الى احتفال ديني في كنيسة أنجليكانية أو مجموعة دينية أخرى، بينما هم، وفي ذات الوقت، مرتبطين بالكنيسة الكاثوليكية.

***ومع ذلك فإن نمو الانجليكانيات في أمريكا اللاتينية واضح؛**

جوتييرز: اقليات يميلون الى النمو أستطيع أن أتحدث عن نمو الكنيسة الكاثوليكية في الاقطار الآسيوية، حيث أن الكاثوليكيين يعدون أقليه. وأيضا شعبنا يعاني من الجوع والتهميش،إنها حياة شاقة، لذلك إذا ماقالت لهم مجموعة دينية جديدة، ليس الكنيسة البروتستانتينية التاريخية: «انظروا، إن العالم ينتهي لذلك لاتبالوا بالحياة الدنيا واستعدوا للآخرة»، حسنا، إن هذا سوف يمدهم بنوع من الهروب الروحي.

*** لقد كتبت أن اللاهوت يحقق دورا نبويا. والذي يقوله نبي عن بيرو الآن؟**

جوتييرز: الوظيفة النبوية، بتعبيرات الكتاب المقدس، تعني الحديث من منظور الرب وتفضيله للفقراء. وبهذا أنا أعبر عن وجهة نظر الغالبية العظمى. إن الناس يتعرضون للافقار كل يوم، فإذا كان الاقتصاد المعطى سوف يقودنا الى وضع جديد، فسوف أكون سعيدا بذلك. ولكن حتى الآن، من الواضح جدا أن الناس مازلوا في معاناة. اللاهوت في قطر ليس فقيرا تماما، ولكن الفقر يزداد، وعلى اللاهوت أن يعبر عن ذلك ويكرره.

AN INTERVIEW

Keeping the Faith

GUSTAVO GUTIERREZ IS A PERUVIAN Roman Catholic priest who is widely recognized as the father of liberation theology. Since the 1960s, he and his followers have insisted that the church apply its teachings on love and brotherhood to the fight against poverty and oppression in Latin America. The liberation theologians' enthusiasm for radical politics—many of them embraced Marxism—has drawn censure from local governments and the Vatican. As democracy has grown in the region, the movement has shed its Marxist rhetoric, but its adherents continue to lobby for antipoverty programs. Gutiérrez spoke in Lima with NEWSWEEK's Corinne Schmidt-Lynch. Excerpts:

SCHMIDT-LYNCH: How was liberation theology born?

GUTIERREZ: For many Christians in the late 1960s, it was difficult to see how faith and the struggle for justice fit together. Liberation theology is an effort to make them see that not only are the two compatible but Christianity demands social commitment.

The world has gone through many changes since then.

In many ways it has changed a lot. Most Latin American countries are now under democratic regimes. We've also seen the collapse of socialism in Eastern Europe. But what hasn't changed, or what has gotten worse, is the poverty of the immense majority of Latin Americans. Liberation theology is an effort, based on our faith, to reject poverty. As long as poverty exists in Latin America, liberation theology makes sense.

But many people associate liberation theology with Marxism.

People react harshly when you speak clearly about the causes of poverty. But a central thesis of Marxism is that religion, specifically Christian faith, contributes to social injustice. Liberation theology says exactly the opposite. It says that faith and God's love and will oppose injustice. Maybe the collapse of socialism will help people understand what liberation theology is really all about.

Many have rejected the idea that the state can eliminate injustice.

Liberation theology can't say that the state should intervene in 20 or 50 or 80 percent of the economy. But if an economy doesn't make human beings the



Gustavo Gutiérrez

Liberation theology makes sense as long as poverty exists in Latin America

center of its concerns, as is the case today in Latin America, as Christians we reject it, whether it's liberalism or anything else.

Maybe as a result of that liberalism, young Peruvians seem to reject social activism these days.

I wouldn't generalize. There's a real loss of interest in partisan political activity. But many young people are very concerned about poverty. You go to the shantytowns in Lima and you find hundreds of young people involved in the struggle for minimum standards of living. Another concern is for Christian issues. Christianity and the church have great attraction when they speak to young people in a language that corresponds to their daily life.

It's surprising, then, that so few young people opt for a religious vocation.

There are several reasons for that. Though our missionary support from overseas has been and continues to be extremely valuable, it has given some young people the idea that a priest is almost synonymous with someone who is foreign. Also, for there to be vocations, there has to be a mature laity, Christians who take on ecclesiastical responsibilities. If people simply receive things, their relationship with the church is more passive. People may accept a Christian message that remains distant from their daily lives, but they don't see it as something really alive.

Does the growth of the evangelical churches mean that they are more "alive" for people?

I think we have to study the numbers on this more closely. Many people can go to a religious celebration at an evangelical church or a new religious group while simultaneously remaining within the Catholic Church.

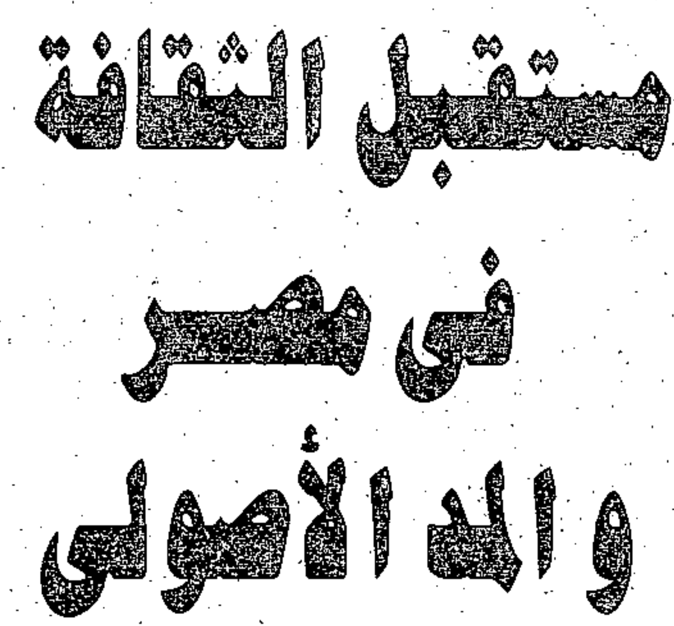
Yet the growth of the evangelicals in Latin America is clear.

Minorities tend to grow. I could talk about the growth of the Catholic Church in Asian countries where Catholics are a minority. Also, our people are suffering. Hunger, marginalization—it's a very difficult life. So if a new religious group—not a historical Protestant church—tells them, "Look, the world is ending, so don't worry about the here and now, but prepare for the end," well, that provides a kind of spiritual escapism.

You have written that theology fulfills a prophetic role. What would a prophet say about Peru today?

A prophetic function, in Biblical terms, means speaking from the viewpoint of God and of God's chosen, the poorest. By this I mean from the viewpoint of the immense majority. People are poorer every day. If a given economic measure will one day lead us to a different situation, I'm glad. But for now, it's very clear that people are suffering. Theology in a country that's not just poor, but increasingly poor, must say this and repeat it.





محمود أمين العالم

بعد نقاش مع زملاء أفاضل حول موضوع «مستقبل الثقافة فى مصر والمد الاصولى اتجه مباشرة إلى مكتبى لأسحب كتاب «**مستقبل الثقافة فى مصر**» للدكتور **طه حسين**. وهو كما نعرف ليس كتابا فى الثقافة بقدر ماهو كتاب فى تخطيط التعليم والتربية كمنطلق للثقافة بالطبع. ورحت أقرأ الفقرة الأخيرة من الكتاب التى هى أقرب الى الحلم والتى يقول فيها الدكتور طه:

«أرسل نفسى على سجيتها فى هذا الحلم الرائع الجميل، فأرى مصر وقد بذلت ما دعوتها الى بذله من جهد فى تعهد ثقافتها بالعناية الخاصة والرعاية الصادقة، وأرى مصر قد ظفرت بما وعدتها الظفر به، فانجاب عنها الجهل وأظلها العلم والمعرفة وشملت الثقافة أهلها جميعا».

واسمحوا لى أن نتساءل بعد أكثر من خمسين عاما على نشر هذه «الكلمات الحلم» ، أين نحن اليوم منها؟!

وأعود إلى بداية هذا «الكتاب الحلم» لأحدد بعض معالمه ومفاهيمه الأساسية ألخصها فى الآتى:

- العقلانية هى ماينبغى أن يكون عليه منهجنا فى التحليل ورؤية العالم.

- حاجتنا الى الرؤية التاريخية للظواهر المختلفة.

- هناك عقل إنسانى واحد، وحضارة إنسانية واحدة اليوم، دون أن يتناقض هذا مع وجود خصوصيات قومية وثقافية.

- لاسبيل الى تحقيق الاستقلال السياسى والاقتصادى بغير الاستقلال العلمي والأدبي والفنى والثقافى عامة ولاسبيل لتحقيق الابداع الثقافى بغير أكبر قدر من الحرية والعدالة الاجتماعية واحترام إنسانية الانسان.

- التعليم كالماء والهواء.

- الدين الاسلامى بعد من أبعاد ثقافتنا القومية. ولكن يجب على رجال الدين العمل على الملاءمة مع التطور، ولاينبغى أن يقوم خلاف بين المسلمين والأقباط، وأن قام خلاف، فيكون أشبه بالخلاف بين النغمات الموسيقية. على أن الدين شئ والسياسة شئ آخر. فنظام الحكم وتكون الدول إنما يقوم على المنافع العملية.

- الفكر هو ثمرة من ثمرات الواقع الموضوعى وهو فى الوقت نفسه قوة للتغيير ونقل الأشياء من طور الى طور.

هذه بعض الملامح الأساسية للمشروع-الحلم الذى تقوم عليه رؤية **طه حسين** الثقافية. وهو تعبير عن ثقافة الطبقة الوسطى المصرية الصاعدة المتطلعة الى الاستقلال والحرية والتقدم، وخاصة بعد حصول مصر على استقلالها السياسى الشكلى عام ١٩٣٦.

ويكاد هذا المشروع فى تقديرى أن يكون المقابل الثقافى لمشروع **طلعت حرب** الاقتصادى رغم أن مشروع **طلعت حرب** كان سابقا زمنيا، فكلاهمايعبر عن هم واحد ورؤية واحدة متشابكة فكل رؤية ثقافية - فى الحقيقة- تتضمن رؤية تنموية ، وكل رؤية تنموية تتضمن رؤية ثقافية.

وأتساءل مرة أخرى.. أين نحن اليوم من المشروع الثقافى التنموى لتلك المرحلة الصاعدة من الليبرالية المصرية؟

إننا بعد أكثر من خمسين عاما لا ندرس ماتحقق من حلم طه حسين، بل لنعود إلى سؤاله: ما مستقبل الثقافة فى مصر؟ وإذا كنا نضيف إلى السؤال الإشارة الى المد الأصولى، فلقد كان هو الموقف نفسه إبان صدور كتاب **طه حسين، فلقد هاجمه حسن البنا** وحركة الإخوان المسلمين آنذاك هجوما شديدا..

وإذا تحدثنا عن الثقافة فنحن لانتحدث هنا عن تجلياتها فى أدب أو فن أو علم أو فكر أوفلسفة. فتفصيل ذلك حديث يطول، وإنما نتحدث عن الثقافة فى بنيتها العامة، وعن حقيقة رؤيتها التى تتجلى فى هذه الأمور، بل تتجلى كذلك- كما أشرنا- فى خطة التنمية الشاملة سواء فى المجال السياسى أو الاقتصادى أو الاجتماعى أو التعليمى أو الإعلامى عامة. وبهذا المعنى يتسع مجال الثقافة من المعرفة إلى مجال الايديولوجيا. وبهذا تدخل الثقافة فى أشد المعارك الاجتماعية والسياسية والفلسفية حتى فى المعارك العلمية الخالصة. فالثقافة -بهذا المعنى وكما نعرف هى بعد أساسى من أبعاد السلطة، كل سلطة. **فالسلطة لاتحكم فقط بالجيش والقضاء والبوليس والسجون والقمع الإدارى بل تحكم بالإيديولوجيا أى بالقمع المعنوى، بتسييد ثقافتها المعبرة عن مصالحها وخطتها التنموية، والتى تتيح إعادة انتاج سلطتها باستمرار.** وقد

تسمح بالاختلاف عنها ولكن فى حدود مالايمس هذه السلطة على حد تعبيرمعاوية بن أبى سفيان: «لا أحول بين الناس وألسنتهم، مالم يحولوا بيننا وبين **ملكنا»**! بل قد يكون فى ترك حرية الألسنة أحيانا - كما نشاهد فى بلادنا - مايحقق نوعا من التنفيس وإحساسا شكليا بالحرية.

ونعود للإجابة على السؤال الذى بدأنا به: أين موقع ثقافتنا الراهن السائدة من مشروع طه حسين؟

فى تقديرى أن هناك قطبين أساسيين يسيطران اليوم على الساحة الثقافية والإيديولوجية المصرية اليوم هما:

القطب الرأسمالى الكومبرادورى **المتمثل فى السلطة**، والقطب **الأصولى الاسلامى السياسى**. هناك بالطبع أقطاب أخرى، إما متفرعة من هذين القطبين الرئيسيين أو تتحرك فى سياقهما أو متميزة عنهما مثل القطب الرأسمالى المستقل لوضح التعبير والقطب اليسارى بفرعيه: القومى والماركسى.

«اللى تكسب به العب به..»

ولنبدأ بالقطب الليبرالى الكومبرادورى: ولست فى حاجة الى أن أفصل القول فيه، مكتفيا بالتذكير بملامحه العامة فى مجالين:

١- المجال السياسى - الاقتصادى.

٢- المجال الثقافى والاعلامى والتعليمى.

أما فى المجال السياسى - الاقتصادى فحسبنا أن نشير الى مايتسم به هذا القطب من انعدام توفر خطة تنمية شاملة فى سياساته وممارساته، والتخلى عن المشروع القومى والاجتماعى، وتفكيك القطاع العام وخاصة فى مجال الانتاج والخدمات، وسيادة قانون السوق بغير ضوابط، وسيادة الاقتصاد الريعى والسمسارى، والتبعية للرأسمالية العالمية وبخاصة الأمريكية، وخدمة مشروعاتها والمشاركة المجانية فى ادارة أزمتها فى المنطقة العربية وتعميق التعاون مع اسرائيل والتواطؤ على الحقوق الفلسطينية، وتشكيل قوة دفع فى المشروع الشرق أوسطى على حساب التكتل القومى العربى ولمصلحة الرأسمالية العالمية عامة واسرائيل خاصة الى غير ذلك.

واذا انتقلنا الى الجانب الثقافى الاعلامى التعليمى، وجدنا **أن الثقافة قد أصبحت سلعة للمتاجرة والربح**، وساد الطابع المهرجانى السياحى الاعلامى عليها، **وانتشرت قيمه الرؤية الأمريكية للحياة، وتفاقمت روح الاستهلاك والبذخ والمظهرية وغلب التغبيب والتغريب والفكر اللاعقلانى الخرافى على الرؤية الموضوعية للحياة. وأصبح الاعلام فى أغلبه إعلانا سلطويا للإلهاء والتسلية المسطحة وتنمية روح العنف الى جانب تفكيك التعليم القومى الموحد، وتسطيحه وتحويله الى تجارة، وتسليم جانب منه الى المراكز الأجنبية وتوجيهه لخدمة السوق الحرة، وانتهاء - تقريبا - مجانية التعليم.** وفقدان الجامعة لوظيفتها التنويرية البحثية العقلانية الابداعية، وتهميش الفكر العلمى وتقليصه الى تكنولوجيا مستوردة واحتكار وسائل الإعلام الأساسية لخدمة السلطة وشغل الجماهير عن قضاياها الأساسية إشاعة الدياجوجية السياسية والثقافية، وتحويل الديمقراطية إلى مظاهرشكلية تنفيسية، وسيادة الرؤية الجزئية النفعية الربحية (اللى تكسب به تلعب به)، ومحاولة استيعاب المثقفين وتحويلهم إلى أدوات تقنية فى خدمة السلطة وأبواق دعائية تغييبية أو توظيف الطاقات الثقافية فى خدمة أهداف مراكز الأبحاث الأجنبية والمجلات والاذاعات والتليفزيونات التى تسيطر عليها الأنظمة النفطية. **والحرص فى الوقت نفسه على دعم مشروعية السلطة بالدين، من خلال مؤسسات الأزهر وهيئة الافتاء لمواجهة القطب الأصولى وأن كان الدين دائما بعدا أساسيا من ابعاد الايديولوجية السلطوية.** حقا، هناك حركة، تنويرية رسمية علوية، تكاد تكرر وتعيد انتاج ماسبق أن أنتجته وقدمته الحركة الثقافية المصرية منذ عصر النهضة الا أن هذه الحركة **تفتقد الموقف النقدى الجذرى للواقع السائد الراهن، اكتفاء** بالدعوة التنويرية.

العقلانية المجردة. **فلا تنوير حقيقيا بدون ارتباط بعملية تغيير اجتماعى جذرى.** إنها حركة تحديثية ثقافية معنوية لاتمس التخلف والتبعية فى البنية الاجتماعية والاقتصادية.

والى جانب هذا كله فالأمية ماتزال ٥٠٪ وقد تكون أكبر من ذلك فى بعض المناطق وبعض الفئات الاجتماعية. والمرأة ماتزال محاصرة بالمحرمات والقيود القانونية والعرفية. فضلا عن سيادة العلاقات الطائفية العنصرية واستمرارها فى التشريعات القانونية والعرفية والممارسات الادارية، ولاتقوم الدولة بحسمها بل لعلها تحاول أن تستفيد منها دعما لشروعيتها.

وتنعكس كل هذه الأوضاع والسياسات فى التجليات الثقافية المختلفة من مسرح تجارى وأفلام مبتذله وقبح معمارى واسمنت زاحف على الخضرة، وتلويث للبيئة، وموسيقى زاعقة إثارية مسطحة إلى غير ذلك.

ونستطيع أن نقول فى النهاية، **أن الايديولوجية الرسمية السائدة والتى تسيد ويعاد إنتاجها دائما اليوم هى الإيديولوجية النفعية الوضعية البرجماتيه اللاعقلانية التى تتسم بالرؤية الفردية والجزئية، وذات البعد الدينى المسطح، وهى إيديولوجية تحديثية هشة تغلب عليها التبعية للثقافة الغربية فى جوانبها المسطحة والمبتذلة والنفعية الفردية، فضلا عن افتقادها وافتقادها الهوية القومية العميقة المنطلقة الى التجدد.**

أسلمة المعرفة

إذا انتقلنا بعد ذلك إلى **القطب الأصولى الاسلامى السياسى**، فاسمحوا لى، منذ البداية أن أقول إنه برغم تناقضه الذى يصل الى حد التناحر والإبادة المتبادلة أحيانا مع السلطة، فإنه جزء منها وامتداد لها. لقد نشأت حركة **الإخوان المسلمين** عام ١٩٢٨ فى إطار السلطة الملكية وفى أحضان أحزاب الأقليات وفى ظل الاحتلال البريطانى، وكانت ترفع أعلام التأييد لهذه البنية العامة للسلطة، إلى أن نمت قوة الأخوان فى حرب ١٩٤٨ فحدث الاصطدام، ثم كانت حركة الإخوان جزءا من حركة الضباط الأحرار ثم تعالت عليها وأرادت السيطرة عليها، فكان الصدام الدموى. ثم أصبحت حركة الأخوان والجماعات الاسلامية فى مرحلة أولى **الحليف الأول للسلطة الساداتية** فى مواجهة خصومها، ثم كان مصرع السادات على يد أحد قادة هذه الجماعات ثم الصدام الذى مايزال مستمرا مع السلطة الراهنة، وأزعم أنه ليس صداما اقتصاديا تناحريا، الا **من حيث أسلوب العمل والتطلع إلى السلطة**، وليس صداما لا من حيث

البنية الايديولوجية الجوهرية ولا من حيث الفلسفة الاقتصادية.

والأصولية الاسلامية السياسية، تستند أساسا الى الجذور الدينية الشعبية التلقائية وهي بهذا حركة شعبوية عميقة الجذور في الوجدان الاجتماعي، وهي تستفيد لتقوية ونشر حركتها وفكرها من هشاشة التحديث القائم، والتخلف الاجتماعي، والفروق الطبيعية الهشة والفساد والقمع والتبعية. ولكن دون أن يكون لها بدائل موضوعية اللهم إلا الجانب الأخلاقي الروحي ثم السعي الى السيطرة على السلطة باسم الدين، أي الحاكمية لله. وليس ثمة صراع بينها وبين السلطة القائمة حول السياسة الاقتصادية، كما ذكرنا- وانما حول القيم المعنوية أساسا ودعوتها الى التديين الشامل للسلطة والمجتمع، سلوكا وفكرا وعلما حتى في المظهر الخارجي للملابس وبخاصة للنساء. إلا أن الهدف الأكبر لها هو إقامة السلطة الدينية، واتخاذ النص الديني مرجعا أساسيا في كل شئ حتى في مسائل المعرفة العلمية، فضلا عن القيم الاجتماعية والأخلاقية والسلوكية عامة. والواقع أن محاولة تديين الثقافة والقيم عامة في المجتمع هي الطريق إلى تأسيس السلطة السياسية الدينية. إنه تحقيق للهيمنة الايديولوجية الدينية في المجتمع كقاعدة صلبة لإقامة السلطة السياسية الدينية. وليست الجلابيب البيضاء والذقون وحجاب المرأة والزي الاسلامي إلا مظاهر التعبئة الثقافية الاجتماعية لصالح الهدف السياسي.

على أن أبرز مظاهر هذه التعبئة بل السيطرة الثقافية هي المحاولة المسماة بأسلمة المعرفة أي إعادة تأسيس المعارف جميعا، النسبية والاجتماعية والعلمية والفيزيائية والاقتصادية وغيرها تأسيسا إسلاميا. فإسلامية المعرفة- كما يحددها د. محمد عماره في كتابه «إسلامية المعرفة» هو المذهب القائل بوجود علاقة بين الاسلام وبين المعارف الإنسانية والرافضة لجعل الواقع والوجود وحده المصدر للعلم الإنساني والمعرفة الانسانية... أي- كما يقول- إيجاد علاقة بين علوم الكون ومعارفه البشرية والمدنية وبين السنن الإلهية التي جاء بها الوحي. وتوظيف هذه العلوم والمعارف عن طريق أسلمة فلسفتها لتحقيق المقاصد والغايات الشرعية التي حددها الوحي».

وفي كتاب «الصياغة الاسلامية لعلم الاجتماع» لمنصور زويد الطيري يقول وأن الهدف الأساسي في الصياغة الاسلامية هو أن يكيف علم الاجتماع نفسه في ظل مبدأ الإيمان بالله تعالى، وبالغيب وبأن الله هو المشرع للإنسان وأن محمد خاتم النبيين». ولايقتصر الأمر على العلوم الانسانية بل قد يمتد الى العلوم الطبيعية كذلك بتغيير أسسها الابستمولوجية الغربية بأسس إسلامية على حد قول د. حسن حنفي في دراسة قديمة له.

ولايعني هذا- في تقديري- مجرد إهدار الحقيقة الموضوعية العلمية، وجعل النص الديني هو المرجع الأساسي لهذه الحقيقة فحسب، بل الهدف هو السيطرة على الوعي وتزييفه وتعبئته لإقامة السلطة السياسية الدينية، وأخشى أن أقول إن الحركة الأصولية قد نجحت الى حد كبير في إشاعة ونشر رؤيتها اللاعقلانية اجتماعيا. فلم يعد خطرها متمثلا في- أو قاصرا على- الإرهاب المسلح فحسب الذي يمكن السيطرة عليه سيطرة أمنية أو بالإجراءات الاجتماعية، وإنما في سيادة فكر لاعقلاني شبه أسطوري حتى بين أوساط الانتلجنسيا من غير المنتمين للحركة الأصولية. إنها التعبئة الاجتماعية الشاملة للفكر الأصولي المتعصب المتخلف تمهيدا- كما ذكرت -للسيطرة السياسية. أمر محزن ومؤسف أن ينشغل المجتمع ونحن على مشارف القرن الحادي والعشرين- كما حدث في مؤتمر السكان الأخير الذي انعقد في القاهرة. أن ينشغل بقضية حجاب أولا حجاب اجهاض أو لا إجهاض، سواء ممن وقفوا ضد الحجاب أو وقفوا معه، لأنهم على اختلاف مواقفهم يستمدون جميعا مواقفهم المختلفة هذه من النص الديني أساسا لامن الظروف والضرورات المجتمعية والتغيرات في الزمان والمكان والأحوال.

إن انتشار الفكر الأصولي، ليس مجرد نفي لامكانية الإجتهاد والتجديد في الفكر الاسلامي، بل هو نفي لكل عقلانية وإبداع فكري وأدبي وفني. وإذا كانت تتمثل في الإبداع والتجدد بمقتضى الخبرة الحية للواقع، فإن الاصولية الاسلامية السياسية هي نقيض للإبداع الثقافي. ولهذا يتجلى موقفهم لا في محاولة أسلمة المعرفة فحسب بل في الموقف من التجليات الثقافية المختلفة من عداء للمسرح والموسيقى والتشخيص في الفنون التشكيلية وتسفيه الإبداع والعمل على مصادرة القيم الأدبية والفنية والفكرية ففي كتابات سيد قطب ومحمد قطب وخليل عماد وغيرهم ممن تناولوا هذا الموضوع نجد أنهم يفرضون رؤية قبلية مسبقة للفن والأدب بمقتضى التصوير الاسلامي ومشروطة بها ولعلنا نتذكر كتابات محمد عماره ضد التشخيص والتجسيد في الرسم والنحت واعتباره أن الفن التجريدي غير التشخيصي هو وحده المعبر بحق عن الرؤية الاسلامية للفن، بل والمتأثر بها!!

وهكذا بهذه الرؤية الأصولية الاسلامية يصبح النص الديني بحسب فهم أصحاب هذه الرؤية وتأويلهم الخاص، هو المرجعية الأساسية لكل سلوك وقيمة وانتاج وإبداع، وبالتالي إقصاء وتكفير وإبادة كل مايناقض ذلك.

والخطورة كما ذكرت ليست في المنتسبين إلى الحركة الأصولية الاسلامية، وإنما في انتشار هذا الفكر في المجتمع، مما يصبح بشكل غير مباشر ركيزة تعبوية ثقافية للهيمنة المجتمعية تمهيدا للسيطرة السياسية مستفيدين بهذا من مفهوم الكتلة التاريخية والهيمنة عند جرامشي التي لم يحسن اليسار المصري للأسف الاستفادة منها!

وبرغم التناقض الذي يصل الى حد التناحر بين الرأسمالية الكومبرادورية السلطوية وبين الأصولية الاسلامية السياسية، فإن هناك أرضا مشتركة بينهما هي المشروعية الدينية التي يتنازعانها دعما لمشروعية كل منها. ولهذا يكاد الخلاف بينهما أن يكون خلافا على السلطة السياسية رغم الاختلاف في تعاملهما وتوظيفهما للدين، على أن صعود فكر الحركة الأصولية السياسية مجتمعيا، يفرض على السلطة تراجعات في بعض اتجاهاتها العقلانية الليبرالية التحديثية المحدودة التي تفرضها مشروعاتها الرأسمالية التابعة، مما يدعم الايديولوجية الأصولية نفسها، وأن تكن الحركة الأصولية الاسلامية تدعم بدورها السلطة الكومبرادورية بشكل غير مباشر بممارساتها الإرهابية التي تقلص جماهيريتها وتجعل الجماهير تميل أكثر الى السلطة طلبا للسلامة والأمن والاستقرار رغم ماتعانيه من سياسات السلطة وممارساتها.

ولاشك أن انحصار الحركة الأساسية

الإيديولوجية والسياسية فى بلادنا على هذين القطبين الكومبرادورى والإسلامى السياسى هو نتيجة لضعف وهشاشة الأقطاب الإيديولوجية والسياسية الأخرى.

ونحاول الآن أن نتناول أبرزها باختصار شديد، مكتفين بالفكر اليسارى متمثلاً فى **الفكر القومى والفكر الاشتراكى الماركسى**. فبقية الحركات والتوجهات السياسية والفكرية إما تنتسب بشكل أو بآخر للاتجاه الرأسمالى الكومبرادورى وإن كانت مستقلة عن السلطة، وتعارضه سياسيا كحزب الوفد مثلا، أو تنتسب بشكل أو بآخر للحركة الأصولية السياسية الاسلامية وإن كانت مستقلة عنها كذلك.

الفعل الايجابى

أما الحركة القومية فى مصر، فليس هناك جديد أضيفه الى مانعرفه جميعا. إنها امتداد للمرحلة الناصرية وهى تكاد تعيش على المنجزات الفكرية والعملية لهذه المرحلة، فضلا عن اسم عهد الناصر، أكثر مما تمثل كيانا متجددا لها، إنها ذكرى الماضى الجميل أو العمر الجميل على حد تعبير عبد **المعطى حجازى**. لاتضيف فى تقديرى جديدا أساسيا الى التجربة السابقة اللهم إلا قبولها التعددية الحزبية وموقفها النقدى للفكر الرأسمالى الكومبرادورى السلطوى السائد.

أما موقفها من الفكر الأصولى الاسلامى السياسى فموقف ملتبس فى تقديرى أو على الأقل هناك انقسام فكرى أو اختلاف فكرى شديد حول الموقف منها. فمن بين قياداتها من يدعو الى التحالف معها بل يتحالف بالفعل ويسعى لإقامة حركة موحدة معها، (**المؤتمر القومى الاسلامى الأخير فى لبنان**) وهناك من يتحفظ منها، وهذا مايثير التباسا وتميعا فى موقفها الإيديولوجى. إنها تخلط بين الإيديولوجية القومية والحركة السياسية الاسلامية السياسية على أساس أن الإسلام نشأ نشأة عربية. والعروبة بعد أساسى فيه، **بغير شك ولكن هناك فارقا بين أن يكون الاسلام بعدا ثقافيا فى الحركة القومية العربية بل اليسارية كذلك وبين أن يقوم تحالف بين الحركة القومية والحركة الأصولية الاسلامية التى تتبنى وجهة نظر فكرية متناقضة مع المشروع الناصرى سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وثقافيا!!**

والواقع أن الجماهير قد تتطلع الى الحركة الناصرية كنوع من الحنين للمرحلة الناصرية فى إجراءاتها الاقتصادية والاجتماعية ومواقفها السياسية المعادية للاستعمار والصهيونية، وارتباطها بمشروع قومى عام وخاصة فى هذه المرحلة التى يتفكك فيها النظام العربى وينسحب الفكر القومى والمواقف القومية فى أغلب البلاد العربية.

بل يتم الخروج على العديد من الثوابت والمبادئ القومية فى هذا الزحف غير المقدس نحو إلغاء المقاطعة مع اسرائيل، والاتجاه المهرول للصلح معها والتراخى فى الموقف المبدئى من القضية الفلسطينية بدون أى مقابل موضوعى.

إن الفكر القومى فى مصر يمثل بغير شك قوة نقد ورفض للأوضاع المتردية والتابعة الراهنة، أكثر منه صاحب رؤية عملية بديلة متكاملة تتفق مع الملابسات المستجدة عربيا وعالميا.

إن مواقفه من الناحية المبدئية سليمة وصحيحة عامة، ولكنها قد لاتقدم حلولا موضوعية محددة فى ظل الأوضاع وعلاقات القوى السائدة ولهذا قد تحتاج الحركة القومية الناصرية الى أن تتحول من رد الفعل النقدى الى الفعل الإيجابى على المستوى الفكرى والعملى وبما يستجيب مع ضرورات ومستجدات الأوضاع الراهنة.

وبرغم انتعاش الحركة الثقافية الابداعية فى المرحلة الناصرية فى الستينات، فى مجال الأدب والمسرح والسينما والفنون التشكيلية، فإن الحركة الناصرية الراهنة، لاتتمثل فى الحياة الثقافية القائمة ولاتلعب دورا إيجابيا فيها. إنما كذلك ماتزال تعيش على أمجاد ماضيها الثقافى كما تعيش على أمجاد منجزاتها السياسية والاقتصادية الماضية.

أين الفكرة الاشتراكية!

ولن أضيف كثيرا كذلك عن **الحركة الاشتراكية المصرية المتمثلة أساسا فى** حزب التجمع وفى الحركة الشيوعية. فلاشك أن تفكك المنظومة الاشتراكية السوفيتية، وفشل نموذجها التنموى، قد أضعف من مصداقيتها الفكرية والجماهيرية، فضلا عن انتعاش الحركة الأصولية الاسلامية جماهيريا والانقلاب على التجربة القومية الناصرية إلى جانب استمرار الانقسام والتشرذم بين تكويناتها وخروج **أغلب الكوادر الثقافية المهمة من صفوفها**، مما أدى إلى تهميشها وتقزيمها جماهيريا.

الاشتراكية الماركسية

والغريب أن الحركة الاشتراكية والماركسية تؤثر بفكرها وشعاراتها وخبراتها التنظيمية على الحركة السياسية المصرية عامة، فى مختلف أحزابها. أثرت فى الوفد، وأثرت فى **الحركة الناصرية**، وتكاد شعارات الجبهة والتحالف والتحليلات والصراعات الطبقية والرؤية الاجتماعية فى الأدب والفن والثقافة الثورية، ونظرية الاستعمار والامبريالية والصهيونية والرؤية الموضوعية للوحدة القومية ونقد الأفكار الشوفينية وربط القضية الوطنية بالقضية الاجتماعية والدعوة الى التنمية والتصنيع والتأميم والتوجهات العقلانية والعلمية عامة فى المجتمع، تكاد أن تكون وماتزال من ايجابيات وإضافات الحركة اليسارية المصرية الى تراث الفكر السياسى المصرى بل لعل أغلب المثقفين المصريين والمبدعين فى مختلف المجالات الأدبية والفنية والفكرية والعلمية أن يكونوا قد ارتبطوا بمستوى أو بآخر، وفى وقت من الأوقات بالحركة اليسارية المصرية، وتأثروا بها.

على أن هذا الحجم الكبير من التأثير السياسى والفكرى الإيديولوجى للحركة الاشتراكية لايتلاءم مع القامة التنظيمية الصغيرة لهذه الحركة اليوم. على أنى أستطيع أن أقول فى غير مغالاة، أن المثقف الاشتراكى المصرى سواء انتسب تنظيميا الى الحركة اليسارية أم لم ينتسب هو من أبرز وأشرف مايعبر اليوم تعبيرا ابداعيا فى مجال الرواية والقصة والشعر والدراسات وبعض الافلام السينمائية وندرة من المسرحيات والمسلسلات التليفزيونية عن القيم والأشواق الوطنية والاجتماعية لشعبنا وعن روحه الناقدة الرافضة والمقاومة.

ولكنى أخشى أن أقول إن الحركة الاشتراكية السياسية المصرية سواء بسواء كالحركة الناصرية السياسية فى وقتنا الراهن تعانى كذلك من التباس موقفها من السلطة الرأسمالية التابعة فى السلطة ومن الحركة الأصولية الاسلامية السياسية، مما يضعف من هويتها الفكرية والموقفية. ففى داخلها تختلف المواقف العملية - على الأقل - من السلطة، كما تختلف من الحركة الأصولية.

وكما غامت الفكرة القومية تكاد تغيم كذلك الفكرة الاشتراكية، ويلتبس الموقف من خصومها. فالذين يهادنون الحركة الأصولية من بعض القوى اليسارية **يفهمونها بأنها حركة متأسلمة**

أي ليس إسلامها إسلاما صحيحا، أي يقفون في نقدها على أرضية الدين. والذين ينقدون السلطة الرأسمالية الكومبرادورية في السلطة، ينتقدونها نقدا صحيحا، ولكنهم لايقدمون بدائل محددة ملموسة للقضايا الملحة والأساسية. بل لعل موقفهم المعادي للحركة الأصولية أن يضاف موضوعيا الى رصيد السلطة أحيانا. في هذا السياق من الالتباس والموقف النقدي الذي يكاد يقتصر على المواقف النبرية المجردة..وتكاد تتضاءل الهوية الفكرية لليسار، كما تتقلص فاعليته الجماهيرية. وتكاد تخلو عمليا ساحة الصراع للقطبين الكبيرين السلطة الرأسمالية التابعة والحركة الأصولية المتزمتة وبينهما تضيع الجماهير، أو تتمزق أو تقف سلبية صامته تنتظر، وتسعى للبحث عن حلولها العصية بأشكال مختلفة ماأشد مهارة شعبنا على ابتداعها. وبينهما وبهما تنتعش الثقافة النفعية المسطحة المهرجانية أو المبتذلة أو الثقافة الأصولية المتزمتة الجامدة اللاعقلانية، في الوقت الذي تحاصر الثقافة العقلانية والابداعية.

الكتلة الثالثة

حسنا.. هل أقدم صورة متشائمة تقول ألا مخرج عن هذين القطبين المتنازعين اللذين يتحركان في الوقت نفسه على أرضية مشتركة؟ قلها الحاضر والمستقبل؟

والحق أن الحديث عن المستقبل أمر معقد، ولايصلح إسقاط الأمنيات عليه، أو المطالبة بالتفتيش في رؤوسنا بحثا عن بدائل نظرية مجردة لاتنتهي في العادة إلا بأفكار مكتبية. والمستقبل لايصنع- كما أكرر دائما- في ملكوت الذهن، وإنما في ملكوت الواقع، دون أن ننفي دور الذهن الخلاق المشتبك مع الواقع والتطور بتطوره.

حقا، إنني في غير تزمت أو جمود فكري، أرى أنه لاسبيل للخروج من هذا الوضع المتخلف المتدني غير طريق التحول الاشتراكي العلمي، الذي يتمثل ببساطة في التخلص من التبعية، دون أن يعني هذا فك الارتباط مع النظام العالمي، إلى جانب القضاء على التخلف وتحقيق تنمية شاملة سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية متنامية تشارك فيها تخطيطا وتنفيذا ورقابة وتطويرا كل القوى الانتاجية والابداعية الحية في المجتمع.

وأن يتحقق هذا في إطار سياق قومي عربي، وسياسة أممية ودولية جديدة، تستفيد من كل الخبرات السلبية والإيجابية السابقة.

ولكن هذا الكلام العام لايكفي إلا في تأكيد هويتنا الفكرية والتخفيف من تشاؤم العقل وتجديد ومضاعفة تفاؤل الارادة على حد تعبير جرامشي.

على أن القضية في جوهرها هي تقديم بديل عملي في إطار مشروع لخطة تنمية شاملة.

فلاسبيل للجنوح نحو طرف من طرفي القطبين المتصارعين المتحالفين في العمق السلطة والأصولية الاسلامية. ولابد من بناء كتلة مجتمعية ثالثة بينهما متسلحة برؤية **عقلانية علمانية وبفاعلية** حركية. لابد من هاتين الدعامتين لبناء هذه الكتلة بناء تاريخيا مؤهلا لإقامة مجتمع جديد وسلطة جديدة. **الدعامة الأولى هي:**

الدعامة الثقافية العقلانية النقدية، تنشر النهج العلمي للتفكير ذي العمق الوطني والقومي والشعبي والانساني، وتتصدى لكل تصورات وأفكار ومناهج التبعية والجمود الأصولي والتزييف الفكري بحسم ولاتترك القطبين الآخرين يستوليان وحدهما على الساحة الثقافية رغم أنهما يملكان منابرها بالفعل. لابد من أن تتصدى الحركة الثقافية اليسارية والعقلانية والديمقراطية عامة لكل مايدور في المجتمع من حوار وآراء وأفكار، ولاتقف منها موقف الرفض المتعالي أو التفرج السلبي أو اليأس. إن معركة الثقافة والوعي من أخطر معارك مجتمعنا وعصرنا كله. لأن خصوم التقدم يستخدمون تزييف الوعي وتزييف الثقافة والوسائل التكنولوجية والعلمية لتحقيق أهدافهم.

أما الدعامة الثانية لبناء الكتلة الثالثة: فهي الفاعلية الحركية الجماهيرية، السياسية والاقتصادية والمطلبية، وتنشيط حركة الجماهير للتصدي بأشكال مختلفة ممكنة ومتنامية لكل مايهدد مصالحها، ولن يتحقق هذا الا بما يمكن تسميته بهيكلة الحركة المجتمعية، أي تحويل المجتمع الى أبنية وهياكل ومؤسسات مختلفة ومتنوعة، وعلى مستويات أفقية ورأسية للدفاع عن مصالح مختلف الفئات الاجتماعية قوميا وانتاجيا وثقافيا وسياسيا واقتصاديا. **وليست هذه دعوة الى مايسمى بالجمعيات غير** الحكومية، فما أكثر ماتستخدم للأسف بعض هذه الجمعيات لأهداف ربحية خاصة، بل ما أكثر ماتستخدم لتتغلغل الأصابع الأجنبية في نخاع المجتمع من خلال الدولة أو من خلف ظهرها. لست أدعو إلى مقاطعة هذه الجمعيات، وإنما أدعو الى أمر آخر هو قيام الجمعيات والهيئات والتجمعات والاتحادات الديمقراطية الشعبية المستقلة عن وصاية السلطة وعن تمويل وتدخل هذه الأصابع الأجنبية، للدفاع عن المصالح الاجتماعية المختلفة.. والخروج بالحركة السياسية والاجتماعية من أوضاعها الشعبوية والسلبية الى وضع شعبي منتظم نشط على أساس المصالح المختلفة. هذا في تقديري العمق الحقيقي للمجتمع المدني وللديمقراطية القاعدية. وهو ليس بديلا عن النضال من أجل توسيع آفاق العمل السياسي والديمقراطية البرلمانية الصحيحة وحق تداول السلطة والغاء كافة القوانين المقيدة للحريات. وإنما هو القاعدة التي تتأسس عليها هذه الديمقراطية تأسيسا قاعديا عميقا.

بدعامة العمل الثقافي ودعامة الفاعلية الجماهيرية يمتد الطريق الشاق من أجل بناء هذه الكتلة الثالثة- وسيتدعم ويقوى هذا العمل بمقدار مايتحد اليسار بمختلف فصائله حول الحد الأدنى من التوجهات العملية وينجح في توسيع آفاق عمله لمختلف القوى المنتجة والمبدعة والحية في المجتمع بما في ذلك التيارات الدينية العقلانية الديمقراطية غير المتزمتة القابلة للعمل المشترك واحترام الاختلافات الفكرية، فضلا عن الصناعة بصلة خاصة بالقوى الانتاجية الجديدة في مجال التكنولوجيا الحديثة.

(المهم هو حسن اقتراح الحلول العملية وأساليب العمل الملائمة لحل القضايا الملحة وبناء الثقة في الحركة السياسية والاجتماعية والثقافية للجماهير).

هل أقدم بهذا حلا؟.. ماأعتقد ذلك؟ ولكنني لعلي أشرت فقط الى طريق شاق تعرفونه جميعا، ولكنه يحتاج الى تضافر وتكثيف كل الجهود والطاقات الوطنية والديمقراطية والتقدمية للممارسة والمواصلة النضالية مع الناس ولأجلهم.

الثورية .. والعسكرة

د. محمد عصفور

ربما كان من أشد المفارقات في الحياة السياسية أن السلطة أو الدولة تمارس ارهابها من خلال ظاهرتين متناقضتين: هما العكسرة والثورية.

أما العسكرة فتسندها في الحكم القوة المادية

وأما الثورية فتسندها التمرد على السلطة

جمال عبد الناصر..شخصية الحاكم تميز منهجه



القائمة غير أنها ما أن تصل الى الحكم حتى تمارس القهر الذي تمردت عليه!

ورغم الاختلاف العميق بين الظاهرتين المتناقضتين (العسكرة والثورية) الا أنهما تنتهيان في التطبيق الى ذات النتيجة وهي **القهر او إرهاب الدولة**. كما وأن هذا القهر أو الارهاب يتم في الحالتين **بذات الاساليب** وهي تتراوح في الواقع بين: **العنف المادي أو العنف بالقانون أو بالتزييف المعنوي (تزييف الوعي) أو بالغواية والرشوة**.

وإذا كان العنف المادي أو تزييف الوعي (من خلال السيطرة على الاعلام الموجه أو السخاء السفيه والرشوة الفاضحة لشراء الولاء.... إذا كانت هذه الصور واضحة كل الوضوح، فإن **الإرهاب بالقانون هو أشد الصور خفاء، رغم أنه أكثر الصور شيوعا الآن**.

وإذا كانت الثورات قد احتلت موقعا بارزا في تاريخ البشرية حتى بداية القرن العشرين (الثورة البلشفية)، فإنها كمقدمات أو انتفاضات أوهبات شعبية قد أصبحت شبه مستحيلة بعد السيطرة المعلنة أو الخفية للمؤسسة العسكرية على الدولة الحديثة.. ولم يعد باستطاعة الشعوب أن تغير نظم الحكم بالثورة. **فقد صار الانقلاب العسكري هو الاسلوب الوحيد للقيام بهذا التغيير**. وفي ظل هيمنة القوى العظمى والعظيمة على دول العالم الثالث لم يعد **متاحا لأي أنقلاب عسكري أن ينجح بدون مساندة من إحدى هذه القوى**.

وهو مايؤدي حتما الى أن تغدو دول العالم الثالث ساحة صراع بين القوى العظمى!

وعلى الرغم من أن الغالبية الساحقة من الانقلابات العسكرية فاشية التوجه الا أن بعض المنتمين الى المؤسسة العسكرية يحاولون إسباغ الصفة الثورية على بعض هذه الانقلابات! واذا كان **جاك ووديز** قد أشاع وصف بعض الانقلابات العسكرية بأنها انقلابات تقدمية (تمييزا إياها عن الانقلابات الرجعية)، فإن **أحمد حمروش** في كتيبه عن الانقلابات العسكرية. لم يأخذ بهذا التصنيف فقط في التمييز بين إنقلابات الجنرالات (الرجعية) وأنقلابات الضباط صغار الرتب **(التقدمية)** ولكن قرر أن حركة يوليو العسكرية قد تحولت الى ثورة جماهيرية (ص ٥٧).

غير أن الملفت للنظر أن **هذا التحول الخطير** مرده الى شخصية

عبدالناصر... واعتبر هذه الشخصية «من أبرز دلائل إمكانية التطور للضباط رغم عيوب المهنة التي لايمكن أن يخلو منها انسان.. فانتقل من مرحلة الضابط المتفوق الى مرحلة السياسي القدير، والزعيم المرموق قوميا وعالميا دون أن يشعر الجماهير بأنه يفتعل شيئا ليس منسجما مع شخصيته ولكن **جمال عبد الناصر** ليس هو القاعدة، بل هو الاستثناء فعلا بين قادة الانقلابات العسكرية! فليس هناك زعيم انقلاب عسكري استطاع أن يحول حركته الى ثورة جماهيرية ضاربة الجذور في أعماق المجتمع، مؤثرة أعظم التأثير في نفوس الملايين- ليس في الدول العربية وحدها! وانما في النطاق العالمي أيضا!. حتى أصبحت ثورة يوليو موضع اهتمام ودراسة معظم الباحثين في تطور العالم الثالث!..» ص ٥٧

وهذا التشبث بالتفسير الشخصي أو الشخصاني للسلطة أو الحياة السياسية، هو التفسير الذي اعتنقه **أحمد حمروش** في دراسته ومقالاته عن تطور حركة الجيش خلال عهودها الثلاثة ابتداء من **جمال عبد الناصر** ومرورا **بالسادات** وانتهاء **بمبارك** فقد اعتبر أن **السمات الشخصية للحاكم هي التي تميز منهجه في الحكم عن قرنائه**، على الرغم من اعترافه بما أسماه عيوب مهنة الضباط أو العسكريين! فهو يقول «ورغم ما وصل إليه جمال عبد الناصر فإنه **ظل يمارس الحكم بأوتوقراطية نابعة من حياته العسكرية**، ومعظم ماحدث خلال عهده من انحرافات انما يعود الى سيطرة فئة من الضباط أخلصوا لثورتهم بأسلوب الضباط ومايتطوى عليه من عيوب !!» ص٥٧.

ونحن نستطيع أن نلاحظ أن أحمد حمروش وإن كان قد فسر حركة يوليو ومنهجها تفسيرا شخصيا ناسيا طبيعتها الثورية الى سمات ناصر الشخصية، إلا أنه نسب انحرافات الحركة الى مرؤوسيه من الضباط بسبب عيوب المهنة! وقد كان تفسير تطور حركة يوليو الشخصي أو المؤسسي محور الخلاف بيني وبين أحمد حمروش..

الموتى لايحكمون.. فهل حكمنا الأحياء بأشخاصهم؟!

وقد نشر أحمد حمروش (ابن المؤسسة العسكرية ومؤرخ حركة يوليو) مقالا بمجلة روز اليوسف (٣ أكتوبر سنة ١٩٨٣) تحت



أحمد حمروش التفرقة بين انقلاب (رجعي) وانقلاب (تقدمي)

عنوان «**الموتى لايحكمون**» جاء فيه أنه بعد وفاة الرئيس **عبد الناصر والسادات** قامت محاولات لإعادة تقييم فترة حكم كل من الرئيسين، غير أن هذا التقييم لم يجر بعيون مصرية ترى الحاضر والماضي والمستقبل معا.. وانما صدر هذا التقييم عن مقارنة بين ناصر والسادات، وانقسم الناس الى أنصار لكل منهما، يحاول كل فريق أن يكون منتصرا، ويترك الآخر مهزوما، ويكاد يصبح هناك دراويش للطريقة الناصرية، ودراويش للطريقة الساداتية، ويشير الصراع بين الفريقين، وكأن الحياة قد انتهت أو توقفت بموت الرئيسين.

ويقول حمروش إن كل حاكم في مصر منذ بداية القرن التاسع عشر رسم لعهده طابعا مميزا يتفق وشخصيته ومعتقداته.. ولذلك فإن مما **يتعارض مع حركة التاريخ تصور أن خلفاء أي حاكم امتداد لهذا الحاكم الذي مات، أو أن يكونوا صورة مكررة لمنشئ النظام! فالحياة لاتعرف الجمود. والموتى لايحكمون! ويستند الكاتب على ذلك بسياسة السادات**

مؤسستان حكمتا مصر.. المؤسسة العسكرية.. والمؤسسة الدينية

المناقضة لسلفه ناصر، وأن يحاكم بعد موته شقيقة عصمت بقانون العيب فالسادات وضع مواثيق ثورة يوليو في أرشيف المحفوظات وغير اتجاه التحرر الوطني ضد الامبريالية والصهيونية، وأهدر مبادئ عدم الانحياز، وأعاد فتح البنوك الأجنبية، وأهدر تجربة تحقيق العدالة الاجتماعية. وما كان يتوقع أحد أن تنطلق سهام الهدم على فترة حكم ناصر مباشرة بعد موته وفي مقعد الرئاسة عضو في مجلس قيادة الثورة، ويقول حمروش لو كان هذا التغيير قد حدث نتيجة انقلاب لكان الأمر مفهوما ومقبولا، ولكن ماحدث في مصر كان نتيجة فقط لانتخاب رئيس جديد، وهذا دليل على أن الموتى لايحكمون». ويقول حمروش: «إن ماينطبق على **جمال عبد الناصر**» ينطبق أيضا على أنور السادات وما أظن أن السادات كان يتوقع أن يكون شقيقه عصمت من أول الذين يطبق عليهم قانون العيب، فيقف هو وأسرته خلف قفص الاتهام لتحكم عليه محكمة القيم بأقصى العقوبة، والشعب فاغر فاه دهشة لأن شقيق الرئيس المؤمن قد امتلك ثروة قدرت بمائة وثمانين مليونا من الجنيهات. وما أظن أن السادات كان يتوقع أن تفتح ملفات حكمه قبل أن تنقضي شهور على وفاته».

حكم أشخاص أم حكم مؤسسات؟

لقد حاولت في تقييمي لفترتي حكمي الرئيسين ناصر والسادات أن أكون بقدر ما أستطيع منصفا وموضوعيا ولهذا اتصور أن فكرة المؤسسة هي الأساس السليم لحكم منصف على انظمة الحكم فالمؤسسات وليس الحكام هي التي تحكمنا. والمؤسسات التاريخية معروفة فهي مؤسسات عسكرية أو دينية أو مالية او تكنوقراطية. لذلك فإنه رغم ماقد يكون من تفاوت بين اشخاص الحكام فإن انتماءهم لنفس المؤسسة ليؤدي حتما الى تقارب أو حتى تطابق في الاتجاه العام وبوجه خاص في معاملة المحكومين ولهذا السبب أؤكد أنه على الرغم من الاختلاف الجوهري والعميق بين شخصي الرئيسين ناصر والسادات، وبرنامجهما، فإنهما يتلاقيان في مجال معاملة المحكومين وبالذات في موقفهما الموحد من السلطة المطلقة والحرية الغائبة.

وقد اعترض أحد كتابنا على هذه النتيجة

حتى أنه اختار عنوانا لتعليقه «بل حكم أشخاص ومؤسسات معا» ويقول أنه «دون مساس بحقيقة تأثير المؤسسات على الحاكم.. إلا أنه يجب الاعتراف بتأثير الحاكم على هذه المؤسسات.. وأن التغيير سواء فى مواجهة الاستبداد أو مقاومة الانحراف يمكن أن يحدث نتيجة تغير الحاكم دون تغير المؤسسات وأنه لذلك لا يجوز أن تقلل من دور الحاكم فى طبع عهده بطابعه الخاص وعلى الرغم من اختلاف شخصيات الحكام (وهو اختلاف مؤثر بدون شك فى سياساتهم) إلا أن هذا الاختلاف الشخصى أو المزاجى لا يحجب حقيقة هامة هى أن هناك خطا عاما للتفكير والسلوك لابد وأن ينتظم كل الحكام الذين ينتمون الى مؤسسة واحدة فينبغى أن من يحكمنا ليسوا أشخاصا مطلقى الارادة وانما مؤسسات قوية تندب ممثلين لها. وهذه المؤسسات الضخمة معروفة منذ القدم، سواء **كانت مؤسسات دينية أو عسكرية واقتصادية أو سياسية**.. الخ وسواء اتخذت شكل البيروقراطية أو شكل التكنوقراطية.. وسواء كان اسلوبها متحررا واستبداديا. فهى فى جميع هذه الحالات والصور تحكم.. وهى حتى عندما تندب اقوى افرادها أو أضعفهم فإنها تطبع هؤلاء الممثلين بطابعها الخاص.. ولهذا السبب فإنه رغم كل التفاوت بين أشخاص الحكام وتفاوت سياساتهم، فإن انتماءهم لنفس المؤسسة يؤدى حتما الى تقارب او حتى تطابق الاتجاه العام بوجه خاص فى معاملة المحكومين. لهذا استطيع أن اقر اننا نظلم الرئيسين عبد الناصر والسادات لو أننا عبنا عليهما ما انتهيا اليه وتلاقيا فيه رغم اختلاف سبيلهما) **حكم استبدادى طوردت فيه الحرية وامتهن الانسان ولم يعامل كفرد له ذاتيته واستقلاله، وانما كحمل فى قطيع او جندى فى كتيبة**... وتفسير ذلك أن حكامنا منذ يوليه ١٩٥٢ ينتمون الى المؤسسة العسكرية، وهى مؤسسة تختلف فى عقليتها وسلوكياتها وقيمها عن المؤسسة المدنية التقليدية.

من الضرورى إذن فى تفسير ظاهرة السلطة المطلقة فى عهدى الرئيسين عبد الناصر والسادات أن لانلجأ الى تبسيط الامور او تسطيحها، فنرجع هذه الظاهرة الى صفات شخصية فى كل من الرجلين وإنما لابد وأن نردها الى طبيعة المؤسسة التى ينتميان اليها تربية وتوليه دون أن نغفل بطبيعة الحال- مايتميز به كل من الرجلين من صفات ذاتية وسمات مختلفة.

حكامنا ممثلون لمؤسسة.

ليس من حق الناس إذن أن يصبوا على حكامهم السخط واللعنات بسبب الخطايا التى ترتكبها سلطة الحكم. ذلك أن الحكام كأشخاص - بغض النظر عن حسن النوايا والمقاصد أو سوئها- لايتصرفون فى شئون الحكم بسلطة مطلقة، وإنما هم الآخرون - وليس المحكومون وحدهم- **محكومون بقوى قاهرة لابد وأن تحدد دستورا للتعامل معها**، وأن كان هؤلاء الحكام يتفاوتون فيما بينهم فى مدى قدرتهم على التعامل مع هذه القوى الخارجية وكذلك فى الاختيار فيما بينها فى حال تنوعها، وماهو أهم من ذلك كله أسلوب التعامل مع تلك القوى.

وفى اعتقادى أن الكثيرين يخطئون عندما يتصورون أن تقييم نظم الحكم وعهودها يمكن أن يقتصر على تقييم تصرفات الحكام كأشخاص مستقلى التفكير وكأنما هؤلاء الأشخاص أحرار حقيقة فى تصرفاتهم.. ولو أنصف الناس وتدبروا الامر لوجدوا أن الحاكم - أى حاكم- هو ابن مجتمعه وبيئته، وأن تفكيره وسلوكه هما ثمرة مهنته أو عمله الغالب، وأن لقيم المجتمع وتقاليده آثارها البعيدة فى هذا الشأن.. فضلا عن أن هذا المجتمع نفسه الذى يكون على رأسه شخص يتقلد سلطة حكمه، يواجه قوى خارجية وداخلية لابد وأن يحسب حسابها.. ولذلك فإن اعتقادى الخاص أن الحكام الحقيقيين للشعوب هى «المؤسسات»..

وإذا كانت المؤسسات هى التى تحكم فعلا وما الحكام سوى ممثلى هذه المؤسسات وحاملى نمطها فى التفكير ومنفذى أسلوبها فى التصرف.. فهل يعنى ذلك أن يكون حكم المؤسسة الواحدة نمطيا فى جميع الأزمنة والأمكنة؟ أم أن ظروف الزمان والمكان مؤثرة فى السلوك على النحو الذى تتفاوت فيه نظم الحكم المؤسسية تبعا لاختلاف الأزمنة والأمكنة؟.

مامن شك فى أنه يستحيل فى المجتمعات البشرية المتفاوتة زمانا ومكانا، أن توجد مؤسسة حكم نمطية. فحيث يسود نظام مؤسسة دينية أو عسكرية أو مالية او جماهيرية.. الخ.. او حيث تشترك أكثر من مؤسسة فى الحكم، فإنه لايتصور أن يكون حكم المؤسسة واحدا سواء بالنسبة للزمان او المكان. وإنما لابد وأن يكون هناك قدر من التفاوت فى النظام والأسلوب ليس فقط بسبب التفاوت فى طبيعة معتقد او بنوع المؤسسة ذاتها (سواء كانت دينية او عسكرية اومالية او جماهيرية) وإنما كذلك بسبب التفاوت الكبير فى طبيعة البشر الذين تحكمهم هذه المؤسسة وطبيعة الزمان الذى يجرى فيه هذا الحكم..

المؤسسات الحاكمة فى مصر..

إننى أدعى أن مصر خلال عمرها الطويل قد حكمتها مؤسسات محدودة وأن هذه **المؤسسات التى حكمت مصر تنحصر أساسا فى المؤسستين العسكرية والدينية** وإن كانت المؤسسة **العسكرية (فى صورها المختلفة) هى التى حكمت معظم الحقب مسخرة فى ذلك رجال الدين**.. وهذه الحقيقة توضح كثيرا من الامور التى تبدو شاذة للوهلة الأولى.

وإننى أدعى كذلك أن الحكام لايتصرفون فى شئون الحكم بسلطة مطلقة وإنما هم الآخرون (وليس المحكومون وحدهم) محكومون بقوى قاهرة خارجية وداخلية لابد وأن يحسب حسابها، اساس ذلك أن الحاكم هو ابن مجتمعه ومايسيطر على هذا المجتمع من قوى وقيم ولهذا فإن تفكيره وسلوكه هما ثمرة مهنته أو عمله الغالب.. فكل حاكم يحكمه مجتمعه وتتحكم فى تفكيره مهنته.. ولما كان أى مجتمع لا يخلو من مؤسسات عديدة فإن لهذه المؤسسات دورا لاينكر فى تحديد اتجاهات الحاكم وأسلوب حكمه. ونعنى بالمؤسسات تلك المؤسسات التاريخية التقليدية: دينية وعسكرية واقتصادية وسياسية وهذه الاخيرة فى مرحلة حديثة قد اتخذت فى بعض الدول شكلا مستمرا ومستقلا وإن تكونت من خليط غير متجانس

الانقلاب العسكرى الاسلوب الوحيد المتاح للتغيير..

* * *

الحاكم.. مجرد ممثل السلطة المؤسسة الحاكمة..

من رجال الدين والاقتصاد والعسكر.

ولو أننا تصورنا- وهذا تصور مستحيل- أن حاكما يستطيع أن يتخلص من تقاليد عمله وخصائص مهنته فإنه لايستطيع أن يتخلص أبدا من سيطرة المؤسسة التي ينتمي اليها دينية أو عسكرية أو اقتصادية أو سياسية وإذا كان أي حاكم لايستطيع أن يتحرر من مهنته فإنه يستحيل عليه تأكيد استقلاله عن مؤسسته..

ولكن هل يعني ذلك أن نظام الحكم المؤسسي لاتختلف صورته باختلاف أشخاص الحكام؟

ما من شك أن نظم الحكم تختلف باختلاف أشخاص الحكام المنتمين الى نفس المؤسسة ولكن على الرغم من تفاوت أسلوب الحكم فإن الغريب في الأمر أن هذه النظم المختلفة باختلاف أشخاص مسيريها والمتفاوتة في أسلوب الممارسة تكاد تتفق في النتائج السياسية التي تفرضها طبيعة المؤسسة التي ينتمي اليها هؤلاء الحكام المختلفون. وأساس ذلك أن أشخاص الحكام لايحكموننا في الحقيقة وإنما يحكمنا وتحكمهم المهنة التي امتهنوها، والمؤسسة التي ينتمون اليها، لأن الحاكم- أي حاكم- هو كما أن أكدنا ابن مجتمعه ومايسيطر على هذا المجتمع فلايمكن ان يكون تفكير الحاكم وسلوكه مناقضا لمهنته أو المؤسسة التي ينتمي اليها: وهذا يعني أن كل حاكم يحكمه مجتمعه وتتحكم في تفكيره مهنته ويقتصر دوره الحقيقي على تمثيل مؤسسته وهو في هذا التمثيل إنما يفكر ويرسم تصوراته في قالب مهنته، ولست أقصد من ذلك إنكار الصفات الشخصية لكل حاكم، غير أن هذه الصفات ليست الحاسمة وأن كان لها تأثير لاينكر من حيث اختلاف موقف القوة او الضعف لكل حاكم من مؤسسته.

سلطة الحكم تتركز في مؤسسة لا في أشخاص الحكام:

إنني لاأتفق مطلقا مع هؤلاء الذين يرون تاريخ الحياة السياسية المصرية وكأنها السيرة الذاتية لحكامها وقادتها وزعمائها.. وهو مايجعل تاريخ مصر تاريخ أشخاص في حين أنه في الحقيقة تاريخ قوى أو مؤسسات تبعث منها السلطة الحاكمة ويمثلها هؤلاء الحكام.

وأعود الى مقال حمروش بمجلة روز اليوسف (١٣ أكتوبر سنة ١٩٨٣) بعنوان «الموتى لايحكمون» يفهم من الخط العام للمقال: أن تناول أحداث التاريخ من زاوية شخصية بحتة وتصوير فترات الحكم المختلفة وكأنها فترات حكام (متميزين و يكمن في شخصياتهم هذا التمايز بين العهود المختلفة تبتول أحمد حمروش مثلا. كل حاكم في مصر منذ بداية القرن التاسع عشر رسم لعهده طابعا مميزا.. وإن كل حاكم يشكل عهده بما يتخذ من قرارات ومايرتبط به من مواثيق ومايحرص عليه من قيم.. ولذلك فإن الموتى (من الحكام) لايحكمون. ولذلك ايضا فإن **الرئيس مبارك لن يكون صورة مكررة من جمال عبد الناصر.. ولن يكون أيضا صورة مكررة من أنور السادات** لان ذلك ضد حركة التاريخ..

ولا أحسبني أخالف الكاتب في بعض أهم نتائجه من بينها ماجعله مقياسا دقيقا للحكم على كل عهد وهو الحرص على حرية الوطن والسعي إلى حرية المواطن وكرامته وأن الحياة لاتعرف الجمود، ولذلك فإن ماصلح في الستينيات او تحدث في السبعينيات لايمكن أن يستمر في الثمانينات، وإذا كان كل حاكم يشكل عهده بما يتخذه من قرارات ومايرتبط به من مواثيق ومايحرص عليه من قيم، فإن الواجب أن لانتعصب لحاكم دون آخر وإنما هناك ما يدفعنا من أجل مصر الى دراسة موضوعية لظروف كل حاكم ومناقشة القرارات التي اتخذها بطريقة موضوعية.. تظهر الخطأ من الصواب وتكشف الجيد الذي يمكن أن يطمس تحت حملات التشوية والتشهير.. وتفرز الردئ الذي يحاول البعض أن يلمعه باسلوب الدعاية والتزييف. إنني اتفق مع الكاتب في ذلك ولكنني اختلف قطعا مع الكاتب إذا هو حاول تفسير التاريخ وكأنه تاريخ الحكام.

ولهذا السبب لابد وأن تبيد ومقولة سياسية شائعة تصور نظم الحكم القديمة وبعض نظم الحكم الحديثة وكأنها نظم حكم شخصية يسيطر عليها أشخاص الحكام وكأنما هؤلاء يحكمون شعوبهم بأشخاصهم وإراداتهم الحرة.. فهذا وهم لابد أن يبدد، وذلك أن الحكام يقتصر دورهم في الحقيقة على تمثيل مؤسساتهم مع اختلاف هذا التمثيل باختلاف أشخاص هؤلاء الحكام ومدى تبعيتهم أو استقلالهم النسبي حيال تلك المؤسسات.

وإنما تحكم الشعوب في الحقيقة- وفي أشد النظم شخصية- خصائص وتقاليد المهنة التي كان يمارسها الحاكم قبل أن يحكم ويقدر أكبر تتحكم رغبات ومطالب المؤسسة الضخمة التي ينتمي اليها هذا الحاكم بما تتسم به هذه المؤسسة من خصائص وهذه المؤثرات كلها لاتستطيع فحسب على أسلوب الحكم وإنما هي تنعكس حتما- بدرجات متفاوتة- على سلوك الحكام والمحكومين على حد سواء.

الاستفتاء.. يحصر رئاسة الجمهورية في مؤسسة القوات المسلحة

وحتى إذا كنت أسلم بتأثير لشخصية الحاكم فإنني لا أعتبر الحاكم صاحب إرادة أو تقدير مستقل يكون محدثا لهذا التأثير.. وإنما اعتبر أنه حتى بالنسبة للمؤثرات الشخصية في نظام الحكم، أن هذه المؤثرات وليدة المؤسسة التي ينتمي اليها الحاكم. بل وأذهب الى أبعد من ذلك فأقول أنه إذا كانت هذه المؤسسة مؤسسة دينية أو عسكرية أو مالية وتنطوي على عدة مدارس أو تخصصات أو أنشطة، فإن نوع المدرسة أو التخصص أو النشاط الذي كان يمارسه الحاكم من قبل يغدوالعنصر المؤثر في شخصيته وبالتالي في نظام الحكم.

فبالنسبة للمؤسسة الدينية المسيحية فإن حاكما ينتمي الى الكاثوليكية غير حاكم ينتمي الى البروتستانتية وغير من ينتمي الى الأرثوذكسية:

بل إنه بالنسبة للإسلام بالذات يتوقف الاعتراف أو عدم الاعتراف بمؤسسة دينية تبعا لها إذا كان الحكم للشيعة أو للسنة، وبالنسبة للشيعة بالذات هناك عشرات المدارس التي تتولد منها وتؤثر معتقداتها حتما في سلوكيات الحكام والقادة.

بالنسبة للمؤسسة العسكرية. فإن التخصصات فيها تطبع أصحابها بطابعها الخاص والمميز: فعقلية الحاكم الذي ينتمي الى السلاح الجوي غير عقلية الحاكم الذي ينتمي الى سلاح المدرعات أو سلاح المشاة أو الحرب الكيماوية.. الخ ولعل هذا هو المشاهد في دولة أمريكا اللاتينية.

فالتوجه العسكري الخاص بكل تخصص والتكتيك العسكري الذي يتميز به كل سلاح يطبع شخصية الحاكم الذي ينتمي الى واحد من هذه التخصصات أو الأسلحة

وبالنسبة للمؤسسة المالية فإنه ما من شك في أن نوع النشاط الاقتصادي مصرفيا أو تجاريا أو صناعيا يؤثر في عقلية الحاكم الذي ينتمي الى أي من هذه الأنشطة.

أما الأخلاق الشخصية أو القيم السلوكية التي يعتنقها الحاكم وان كانت مؤثرة الى حد ما إلا أنها ليست ذات أثر فعال في مجريات الأمور، وهي بذاتها ليست وليدة إرادة حرة

يتحكم فيها صاحبها، ولان كان بعضها مكتسبا فان الكثير منها ثمرة بيئة وظروف معيشية قادرة لاحرية فيها ولااختيار وإن كان المال والسلطة قد تكون له الهيمنة على الصالحين وعندئذ لايكون هناك فرق جوهرى بين الصالح او الطالح ظالم انصاع لمصالح للغواية.

وإذا كان هذا هو أثر التكوين الشخصى للحاكم او طبيعة المؤسسة على نظام وإذا كان دور الارادة الشخصية فى هذا التكوين محدودا الى أدنى درجة، فهل يجوز بعد ذلك المجازفة والقول بأن سياسات الحكم ترسيها الشخصيات المتباينة للحكام بسبب تباين تكوينهم واختلاف شخصياتهم وسلوكهم؟.

وهل يمكن الاستدلال على صحة هذا النظر باختلاف وجهات نظر ثلاثة من حكامنا ينتمون الى نفس المؤسسة العسكرية وهم مع ذلك يختلفون اختلافا ظاهرا أو حتى جوهريا بالنسبة لمسألة حريات المواطنين.

وإذا صح أن ينسب هذا الاختلاف فى مسألة بذاتها- وهى مسألة جوهرية كالحرية- باختلاف شخصيات هؤلاء الحكام الثلاثة واختلاف أمزجتهم وتفكيرهم.. أولا يمكن طرح تفسير آخر هو اختلاف الظروف والأوضاع ومواقف القوى الاجتماعية والسياسية وبالذات التيارات المتلاطمة داخل المؤسسة العسكرية الحاكمة فى ضوء موازين القوى الدولية والداخلية وتفاوت انفعالات ومواقف حكامنا تبعا لذلك؟ بل وأكثر من ذلك اختلاف أوضاع الحكام الثلاثة فى لحظات إصدار القرار تبعا لمدة بقائهم فى الحكم وطول مكوثهم وبالتالى استقرار أو عدم استقرار مراكزهم ومايواجهه كل منهم من مشكلات، ومدى تمرسهم بالسلطة واستئنائهم للتمرد الكامن فى كافة الشعوب. وفى ضوء هذه الاعتبارات هل يمكن المجازفة بالقول بأن للشخصية الحاكمة اثرها الحاسم أو القوى فى سياسة الحكم أو لشخصيته القومية؟.

أننى وأن كنت أومن تماما بأن لشخصية الحاكم دورها الهام والمؤثر فى نظام الحكم بل وحياة المحكومين وتصوراتهم وشخصياتهم، إلا أننى أرى فى نفس الوقت أنه يندر (إن لم يستحيل) أن يكون شخص الحاكم كيانا متميزا ومستقلا عن كيان مؤسسة من المؤسسات هى السلطة التى تجعل من الحاكم نائبا عنها ،أو ممثلا لها، أو متحدثا بلسانها.. ولذلك فإنه فى معظم قراراته وتصرفاته- إن لم يكن كلها -يتصرف بوحى تبعته لهذه المؤسسة . والحرص على مصالحها لانها فى النهاية مصلحته هو الشخصية فى الاستمرار فى الحكم.

ولو أننا بدأنا من هذه البديهية لانتهينا حتما الى صورة مختلفة تعاد بها كتابة تاريخنا السياسى ويعاد تبعا لها تقييم تصرفات الحكام الذين ينتمون الى نفس المؤسسة لعل من أخطر نتائجها:

* أنه إذا كان الحكم دائما حكم قوى أو مؤسسات وليس حكم أشخاص ، فإن التمايز الحقيقى بين عهود الحكم المختلفة لن يكون تمايزا بين أشخاص الحكام ، وإنما هو تمايز بين نظم أو مؤسسات الحكم.

* والنتيجة الخطيرة الأخرى هى أنه طالما كانت المراحل السياسية التاريخية هى مراحل نظم حكم متفاوته ومتمايزة فى جوهرها الأساسى ، فإنه لايجوز أن تنشغل بتمايزأشخاص الحكام عن التمايز الأهم القائم بين نظم الحكم المختلفة بتميز المؤسسات المسيطرة عليها. غير أن هذا لايعنى أنه حيث يسود نظام حكم ما (كالحكم الدينى مثلا أو الحكم العسكرى). فإن- هذا لاينفى أنه فى تعاقب الحكام فى ظل هذا النظام لابد وأن نجد تمايزا بين هؤلاء الحكام المتعاقبين ولكنه تمايز فى الدرجة (وليس فى الطبيعة) يرجع الى اختلاف فى شخصياتهم. ولكن يظل الخط العام أو الإطار العام واحدا بالنسبة لجميع هؤلاء الحكام هو إطار المؤسسة الحاكمة والمهيمنة الذى يفرض طابعا عاما مميزا لايمكن أن يخطئه البصر للوهلة الأولى. وهذا أمر واضح عند استعراض تاريخ عهود الحكم فى أسرة **محمد على** فعلى الرغم من عمق المفارقة بين أمجاد عهد **محمد على** وانحطاط عهد عباس وبين التحضر فى عهد اسماعيل مقارنا بالتردى والخيانة فى عهد توفيق فإن الكاتب يشير الى أن جميع الملوك- فى عهد اسرة محمد على- كانوا أبناء نظام واحد لاتكاد تتغير فيه المعالم الرئيسية فى الحياة المصرية.

وهذا هو النظر السليم الى عهود الحكم المختلفة وهو يسرى على حكم أسرة محمد على سريانه على حكم الجيش وهذه الرؤية الصحيحة تقوم على النظامية أو المؤسسية ولاتقوم على الشخصية أو الذاتية للحكام. ولذلك فإن من حقنا أن نتساءل عن السبب فى أخذ الكاتب بنظرة صحيحة بالنسبة لأفراد أسرة محمد على، ورفضه لها أو إعراضه عنها بالنسبة للدولة المتعاقبين فى المؤسسة العسكرية.

الخلاف بين الرئيسين السابقين ظاهرى

إن أحمد حمروش فى مقال «الموتى.. **لايحكمون**» يتساءل فى عجب أية علة فى هذا الاختلاف الجوهرى فى سياستى الرئيسين عبد الناصر والسادات.. ولكنه لايقنعنا بهذا التعليل الذى ساقه وقد وجد العلة فى اختلاف شخصية الحاكمين!! **على الرغم من أن الذى حدث فى عهد الرئيس السادات- سواء فى السياسة الداخلية أو فى السياسة الخارجية- كان بكل المقاييس انقلابا حقيقيا وقلبا كاملا لسياسة سلفه ومع ذلك فإن العهدين قد اتفقا تماما فى الجوهر وفى نمط التفكير وأسلوب التصرف.**

فالعهدان عهدا حكم مطلق بغض **النظر عن الاختلاف الجوهرى فى الشعارات** وفى استعانه نظام السادات بديكور ديمقراطى كان الرئيس عبد الناصر صريحا فى العزوف عنه وللغرابة فان العهدين تحدثا عن الحرية ولكن بمفهومين مختلفين كل الاختلاف.

فالعهدان السابقان وإن اختلفا كل الاختلاف فى السياسات والبرامج، إلاّ أنهما اتفقا فى جوهرها المتسلط وفى نمط التفكير وأسلوب التصرف المبنى على القيادة.

النظامان يقومان على مبدأ أن السلطة الشخصية المطلقة هى أساس الحكم أيا كان الوصف الذى يطلق عليه أو الشكل الذى يأخذه أهو اشتراكى شمولى أو رأسمالى ذو واجهة ديمقراطية!! واندفاع النظامين نحو السلطة المطلقة موقف لايشوبه أى تردد مهما اختلفت السبل أو الصيغ التى اتخذت فى العهدين

ولقد كان من شأن نمط التفكير العسكرى والزعامى أن ينتهى العهدان الى نفس النتائج المحزنة فى مجال الحريات. سواء فى الفساد السياسى أو الفساد الاجتماعى.. وما كان يمكن أن يؤدى نمط التفكير العسكرى أو الزعامى الى غير هذه النتائج فهذا النمط لايمكن أن يفرط ولو فى ذرة واحدة فى السلطة. ومعنى ذلك أنه لابد وأن يتخذ موقفا صارما من الحرية التى تقيد السلطة.. ولهذا السبب فسواء أعلن النظام أنه يسلك سبيل الحرية الاجتماعية أو ينهج طريق الحرية السياسية فهو فى الحالتين يسعى إلى تركيز السلطة

إطلالة

التوارث الملكي والتوارث داخل المؤسسة

لقد كنت قد ذكرت عرضا أن اختيار الرئيس فى النظام الملكى لايكاد يختلف عن نظام الوراثة فى عهد الجمهورية وكل ما فى الأمر أنه قد حلت محل أسرة محمد على منظمة بكاملها ولقد عقب الأخ حمروش على ذلك بقوله أنه لايعقل أن يستوى نظام التوريث فى العهد الملكى معه فى العهد الجمهورى وقد كان حسبى تسليما من الأخ حمروش أن السلطة يجرى توارثها فى النظام الجمهورى ليس داخل قادة حركة يوليو وإنما داخل المؤسسة العسكرية نفسها. ولكنه عاب على بوجه خاص أننى ساويت فى المقابلة بين التوارث فى أسرة محمد على وتعاقب الحكام فى المؤسسة العسكرية وأن هذه التسوية تغفل الفوارق بين حكم رجعى وحكم تقدمى متطور يغير من طبيعة النظام ومن تركيبته الاجتماعية ومؤسساته السياسية.

وحقيقة الأمر أننى لم أكن أجرى تقييما وإنما اقوم بتفسير لظاهرة تكاد تكون واحدة فى شأن نظم الحكم قاطبة التى يسودها حكم المؤسسات سواء أفصحت نظم الحكم عن ذلك أم لم تفصح.

فعندما ذكرت أنه لافارق من حيث حرية اختيار الشعوب لحكامها- بين توارث العرش المصرى- وبين تعاقب الحكام داخل المؤسسة العسكرية إنما أردت أن أوكد أنه لايجوز فى مجال تقييم نظم الحكم أن نأخذ بالشكل او نعول عليه وحده لنتفدر ما إذا كان الحكم ديمقراطيا أو غير ديمقراطى ملكيا او جمهوريا، وقد أردت أن اضرب مثلا صارخا يوضح المفارقة البالغة فيه فساد الأخذ بنظرة شكلية محضه - أساسها وصف الجمهورية أو الملكية الذى يخلع على النظام لترتب عليه تقييما خاطئا فى شأن ديمقراطية أو عدم ديمقراطية الحكم، وقلت أنه وإن كنا نأخذ بالنظام الجمهورى شكلا للحكم إلا أن **التطبيق العلمى الذى يفرض «انتخاب» رئيس الجمهورية عن طريق مجلس الشعب وحده بالاستفتاء يؤدى الى انحصار هذه الرئاسة فى مؤسسة الجيش** وحدها، وإن النظام الجمهورى انتهى بالفعل الى أن يكون قريبا من النظام الملكى من حيث توارث العرش أو السلطة، مع فارق شكلى بسيط هو أنه فى النظام الملكى يجرى التوارث طبقا لقواعد تحصره فى أسرة ملكية معينة وبأوضاع محدده وتعتبر متعلقة بالنظام العام لايجوز الخروج عليها فى حين أنه فى النظام الجمهورى حلت المؤسسة العسكرية فعليا محل الأسرة الملكية بوصفها الوعاء الذى ينحصر فيه التوارث. ولان كان التوارث يجرى فى النظام الملكى طبقا لأحكام توارث خاصة تقوم على روابط أسرية متميزة وتخضع لضوابط فإن التعاقب فى النظام الجمهورى ينحصر فى المؤسسة أو الاسرة العسكرية وإذا كان اختيار الرئيس يتم تبعا لموازين القوى داخل هذه المؤسسة او الاسرة فإنه لايكون هناك ضابط او رابط او قواعد يلتزم بها أحد فى هذا الاختيار، وبجانب ذلك الاناته لا اختيار بداهة للشعب المحكوم الذى يفرض عليه شخص المرشح على نحو ما يفرض عليه هذا الاختيار فى شكل استفتاء فالتعيين قد تم داخل المؤسسة وعلى الشعب أن يقبل دون مناقشة أو اعتراض هذا الاختيار.

ومع ذلك فإنه لايجوز النظر بارتعاب الى هذه النتيجة: ذلك أن مايجرى فى الدول التى تأخذ بنظام الحزب الواحد أو الحزب المهيمن، تكاد تجرى وراثة العرش أو التعاقب فى السلطة على نفس النمط تقريبا. ذلك أن «الحزب» هو الأسرة المالكة أو المؤسسة الحاكمة التى تفرز الحكام المتعاقبين، ولا أمل لشخص خارج هذه المؤسسة فى أن يتقلد الحكم دون الصفوة فى الحزب..

ومع ذلك فإنه لايجوز أن يكون معيار المغايرة بين موقف مصر فى عهد ثورة يوليو وموقفها فى عهد أسرة محمد على هو ماذهب اليه **احمد حمروش** أن نظام الحكم فى عهد اسرة محمد على قام واستمر على اساس الوراثة: فلولا بأن ثورة يوليو انهت الحكم بالوراثة «وجعلت مصر جمهورية يعين رئيسها بالانتخاب..

وفى تصورى أن هذا الرأى يأخذ فى هذا الصدد بظواهر الأمور، ويعتبر الوراثة أو الاستخلاف فى الحكم مرتبطا بشخص الحاكم المورث أو عمود نسبه، وبالتالى يعتبر نظام الحكم وراثيا فى عهد محمد على ولايعتبر كذلك فى عهد ثورة يوليو طالما نحيت العائلة المالكة. غير أن نظرة أكثر موضوعية لابد وأن تمتد بطبيعة المؤسسة الحاكمة وطريقة تقلد السلطة المنبثقة عنها، فإذا كان الشكل جمهوريا حيث يجرى تقلد السلطة فيه بالانتخاب فإن هذا لاينفى موضوعيا أن الاختيار لرئاسة الجمهورية ظل منذ عهد الرئيس عبد الناصر وحتى قبله محصورا فى المنظمة التى قامت بحركة يوليو وأن الأوضاع الدستورية الخاصة بترشيح رئيس الجمهورية لاتسمح حتى الآن بأن يتقدم للترشيح المباشر فرد عادى من أفراد الشعب أو سياسى مدنى.. وهو مايعنى ببساطة أنه قد قام فى مصر بعد حركة الجيش نظام لاختيار رئيس الدولة ولايختلف جوهريا عن نظام الوراثة فى أسرة محمد على.. كل مافى الأمر أنه قد حلت محل اسرة محمد على منظمة بكاملها.. وهذا أمر طبيعى يتفق مع حقائق وطبيعة سلطة الحكم وهى أنها سلطة مؤسسة ما... فهذا الفارق الطبيعى الهام بين نظام الحكم الجمهورى والحكم الملكى المتعلق بالاختيار (انتخابا او وراثة) يختفى تماما حيث تحل سيطرة المؤسسة محل وراثة الاسرة أما الفارق الآخر وهو الخاص بمدة الولاية فإنه إذا كان تقلد ولاية الحكم الملكى يستمر طول حياة الملك مهما امتد به العمر بينما فترة الحكم الجمهورى محدودة عادة بفترة زمنية ليست قصيرة ابدا غير أن سماح النظام الدستورى فى مصر أو بالاحرى تعديله حيث يتجدد حكم رئيس الجمهورية على نحو يجعله فعلا طول الحياة- يزيل فارقا جوهريا أخر بين النظامين الملكى والجمهورى.. وحتى باستطاعة أى رئيس جمهورية أن يخالف نص الدستور.. إذالم يستطع تعديله.. وهو يستطيع أن يوقف أحكامه فيجمده أو يلغيه كلية.. ومن ذا الذى يستطيع أن يسائله وهو الذى يعين فعلا- سواء عن طريق نظام القائمة الحزبية أو عن طريق تزوير الانتخابات.. اعضاء مجلس الشعب بل ورئيسه، وهو كذلك الذى يجمع بين رئاسة الدولة ورئاسة الحزب المهيمن، على نحو ماصار يجمع بين رئاسة السلطة التنفيذية ورئاسة السلطة التشريعية.

غير أنه يبقى مميز هام للتوارث فى المؤسسة العسكرية هو أنه مرتبط بفكرة القيادة بالجيش كمؤسسة حيث غدا منذ حركة يوليو قائد الأمة الابدى.. القائد الفعلى فى الجيش هو الحاكم الحتمى للدولة.. وهذه نتيجة حتمية لعقلية متميزه لمؤسسة متميزة تشغل فيها افكار القيادة والنظم الصارمه و الطاعة العمياء مركز الصدارة، أن لم تكن هى الأسس التى يقوم عليها صرح المنظمة أو المؤسسة . وأود أن أسأل الأخ حمروش بعد ذلك : إلى أى مدى تتوا م أفكار الديمقراطية والحرية والمعارضة والنظام الحزبى وشكل الحكم... مع نمط متميز كهذا لمؤسسات الحكم مهما كانت قوة الشخصيات الحاكمة وحسن نواياها ؟؟.



كامل التلمساني
التمرد على التمرد

د. رفعت السعيد

في قرية صغيرة اسمها نوى (مركز شبين القناطر) ولد كامل التلمساني لأسرة فقيرة، لكنها تمكنت رغم فقرها أن تلحقه بالمدرسة الابتدائية. وعندما حصل عليها كانت الاسرة تحصل على جواز مرور الى القاهرة. فانتقلت بحثا عن رزق، وسعة من العيش لتجد نفسها بين أنياب مدينة مفترسة، وكان هذا عام ١٩٢٥، وتنقلت بها الأحياء حلوان- الصليبه- الجيزة فكل مكان فيه رزق يمكن أن يكون مسكنا. ودخل كامل الى المدرسه السعيديه. وهنا يلتقى بهذا الفنان الاسطورة مدرس الرسم يوسف العفيفى الذى صنع من بين تلاميذه أكثر من فنان مرموق..

ويلتقط يوسف العفيفى الخطوط الخجلى للفتى الريفى، ليطوعها ويلقنها أسرار الاجاده، والفتى الموهوب يلتقط الإلهام من أستاذه، وتتسارع رحلاته الى «نوى»، حيث تلك المناظر الرائعة التى وقف فى أيامه الأولى أمامها مرتبكا، الآن لاارتباك، هو قادر على أن يستلهمها لوحات، يسرع بها الى القاهرة.. يبيعها ينفق على نفسه، وليدعم ميزانيه الاسرة.

حصل على البكالوريا عام ١٩٣٠ ودخل كلية الطب البيطرى، لكن حبه للرسم يطارده فيطرد أى شريك آخر، ويرسب ثم يرسب، ثم يفرض الفن إرادته، ويترك الكلية. فما من أمل للخلاص من هذه المطاردة الطاغية الاراده، وترك الكلية هو مجرد إعتراف بالخضوع لجبروته. فأى أمل له فى مواصلة الدراسه اذا كان يستعد لدخول امتحان آخر العام فى الكلية، لكن معرضه الخاص يأتى فى ذات موعد الامتحان.

لم يتردد ذهب للمعرض.. وترك الامتحان، وترك الكلية.

ونتوقف قليلا أمام لوحات كامل التلمساني.. ونطالع ماكتبه عنها رفيق دربه وزميله فى التخرج من مدرسه الاستاذ يوسف العفيفى، رمسيس يونان: «قد نرى فى صور التلمساني زرقة السماء، وخضرة الحقول، وحمرة الورود، لكن للسماء وللحقول وللورود وللحمرة وللخضرة وللزرقة فى صوره، معان غير تلك المعانى التى يراها الخارجون للنزهة مع عيالهم أيام الجمع والآحاد.. هذه الوجوه الكليلة المكدودة، وهذه الاجسام الممتلئة لوعة، المحاطة بهالة من السواد، وهذه العيون التى مازالت تلمع بشرر التمرد، مع شدة الاعياء، وهذه الشعور الشريدة بين عواصف الحيرة والقلق والثورة، ثم هذه العواطف المكبوته، السجينة، وسط العظام المشدودة، والأصابع المتوترة، ثم هذه الألوان، التى رغم قيمتها تحتفظ فى أركانها ببريق حاد من الاضواء الدائبة.. هذا ماتقابلنا به، بل هذا ماتفاجئنا به صور التلمساني.. وقد لاتسعدنا المقابلة، ولكن المفاجأة تصدمنا، فنحس خلال أعصابنا أصداءها تتابع حلقه بعد حلقه حتى تصل إلى قرارة الاحشاء. (رمسيس يونان- مقال- المجلة الجديدة - عدد ٤٠٣ -ص٩)

ويسكب كامل التلمساني إبداعه السريالى فى لوحات تثير الكثير من الهواجس وربما الانتقادات وتعليقا على بعض هذه اللوحات يكتب «آتين مريل» التلمساني متطرف فى استخدام عناصر الهدم والتحطيم، ولكن، رغبة فى إرضاء أكثر الناس اعتدالا بدأت الشخصيات التى يرسمها التلمساني تكتفى بجرعات محدودة من الشناعه».

بينما ناقد آخر يحب رسوم التلمساني «لانها حلقات متواصلة من الآلام والتشنجات، من جحيمه وطينه وتطرفه - من كل هذا تتكون سلسله مؤكده ووثيقة الصله بحقيقة تعسه تحاول الشياطين بخبثها إبعادها عنا طيله الحياه وحتى الموت».

أما التلمساني نفسه فإنه يعرف الاسباب التى تدفعه الى هذا الرسم السيريالى المتخذ ثيابا حاده وعنيفه ووحشيه.. فيقول: «السواد والدماء والأشكال الممزقة، والخطوط الحزينه

الصارخه هي الصور الوحيدة التي يطليها على الفنان عالم غير متجانس، تعيش فيه انسانية مشوهة.

(التلمساني - كتالوج المعرض الثاني للفن المستقل- القاهرة- ١٩٤١).

وكما في الرسم .. كان أيضا في مجال الكتابة فقد كتب عديدا من المقالات السيريالية النزعة، وكتب تعليقات مريره وحاده على عديد من الاعمال التشكيلية، كان يشتبك معها في حوار جميل لكنه شديد القسوة فيعلق على لوحة قائلا «لماذا لاتنتحرين أيتها الكآبة التي نسجت كل قطرة دم منك ظلا؟ أيتها المخلوقة الحزينة التي عجنت كل قطرة دم منك ظلا» - ثم يتوقف أمام لوحة أخرى لينصح المتفرج عليها «أنقذ الضوء . إنزع اللوحة، حطم الإطار- والقه بعيدا من النافذة.. حتي تستطيع أن تعيش مع هذه الكائنات العزيزة التي خطفها الغيورون الذين لايفهمون الحياة والإنسان».

****

لكن شيئا ماظل يوجع التلمساني. فهو وفنه وكتاباته معزولون عن الناس . كان يرسم ويكتب واثقا من أن الجماهير لاتفهم مايريد أن يبلغه لها.. من رسائل.

ويقول جورج حنين وقد أحس بهذا الوجع عند التلمساني «أنه يطمح أن يكون محبوبا ومفهوما».

لقد بدأ التلمساني رحله التمرد عبر بوابة أصدقائه في جماعة الفن والحريه. وعبر تحدي الواقع بالانغماس في السيريالية رسما وكتابة.

لكنه يعشق هذا الشعب وهؤلاء الناس وهذا المجتمع، ويتعلق بمقولة «الفن في خدمة الحياة والمجتمع» ومن ثم عاد ليتمرد على السيريالية ، وعندما جاهر زملاءه (وأغلبهم من التروتسكيين) برأيه في أن يرتبط الفن بالناس وأن يكون مفهوما لهم وفي خدمتهم حاولوا اقناعه بأن هذه فكرة ستالينيه تطوع الفن وتخضعه لمتطلبات السياسه.

فترك لهم الرسم. بحثا عن سبيل يخاطب به الجمهور.

***

«السينما هي سحر القرن العشرين»... هكذا أكد التلمساني في كتابه الجميل «عزيزي شارلي» وهي اوسع وسيله اعلام جماهيرية (لم يكن التليفزيون قد وجد بعد).. وسعيا وراء مخاطبة الجماهير ترك الرسم.. وذهب الي السينما.

ومنذ عام ١٩٤٤ عمل كمساعد مخرج في استوديو مصر ، وفي عام ١٩٤٦ أخرج واحدا من أجمل افلام هذه الفترة وأكثرها تعلقا بالجماهير ومشاكلها.. فيلم «السوق السوداء» لكنه لم ينجح، فقد تكاتف ضده تجار السوق السوداء في السينما، خوفا من انتشار هذا النوع (الثوري) من الافلام. واضطر التلمساني أن يقلل من لهجته الفيلمية الصارمه واخرج عددا من الافلام العادية «انا وحبيبي» و«كيد النساء» و«البوسطجي» و«الناس اللي تحت».

لكنها هي الأخرى لم تلق رواجا كافيا.

وفي هذه الاثناء كان يمارس ايضا الكتابة فأصدر كتابين هامين عن السينما «عزيزي شارلي» و«سفير امريكا بالألوان الطبيعية».

***

وكما قلنا كان الاتجاه الي السينما وهجره الرسم تعبيرا عن قلق الفنان إزاء علاقته بشعبه، فقد كانت هذه العلاقة توجعه.

كان يحب الرسم حبا دفعه الي أن يترك الكلية وينغمس فيه، لكنه ما أن أصبح يساريا، وقرأ عن الاشتراكية ، وانتمي إليها، حتى شعر بأن الرسم يحصره في دائرة ضيقة ويحاصره بعيدا عن الناس.

وفي مقال بعنوان «السينما فن القرن العشرين» قال : أن الرسم لايصل الي الجماهير. البرجوازية وحدها هي التي تشاهد الاعمال التشكيلية، والسينما الآن هي أفضل وسيله للوصول الي الجماهير».

ومع السينما كتب عديدا من المقالات، والغريب أن كثيرا منها سياسي صرف، لكنه وقع أكثرها بأسماء مستعارة...

لكننا مع ذلك نمسك ببعض كتاباته..

استمعوا معي الي هذه العبارة التي يمكن القول أنها تلخص كل ماأراد التلمساني أن يقوله :«على الدولة أن تحقق لكل فرد نصيبه من الشعر ونصيبه من الخبز في آن واحد».

..إنه يحاول أن يحقق المعادله الصعبة التي أرقعته في تناقض مع أصدقائه في جماعة «الفن والحرية».

وفي مقال «الفن المصري والمجتمع الحاضر» يكتب:«في هذه الأيام العصيبه المظلمه يعيش الفنانون في هذه البلاد في أبراج ارستقراطيه عاليه، في عزله غريبه بعيده كل البعد عن جوهر المجتمع الذين يعيشون فيه، بينهم وبين إخوانهم في الانسانية حائط صلد، تحول طبقاته المتعددة التي يزيدها سمكا مر الأيام ، وتقلب الدنيا، وظلم المستبدين وقسوتهم الشرهة المستبدة.. يحول كل هذا الجشع الذي يخضعون له في ذل واستكانه وضعة، دون سماع كل الصرخات المعذبة التي احتبست في صميم كل قلب، وخلف كل جدار ، وبين كل جماعة من الجماعات»، ثم يقول«وخلف هذا الانحطاط الثقافي تكمن مأساه ، هي مأساه الفن للفن وهي مبدأ قديم تعلمه فنانونا من مدارسهم الأوربيه التي أمضوا فيها دراستهم الأوليه بين ذل النسخ والنقل عن تلك القناطير من الزباله والبقالة الفنية المتوارثه التي تخزنها الحكومات فوق جدران مدارسها الكلاسيكية، وفي ردهات متاحفها التي تخدر الانسانية كل يوم بعواطف الطمأنينة القاتلة التي تسمم الأجساد وتقود بعض الأرواح الشابه المترفه الي مهاوي القناعه الذليله، لتوقف العقول عند درجه محدودة من التجمد والخمول والتملق التي يحبها من بيدهم الأمر والنهي».

ويقول «وقد يصلح شعار الفن للفن كمبدأ يدر الكسب والاحترام السطحي والتقدير لأمثال هؤلاء البسطاء ، لكنه لن يصلح ولن يكون نهاية يرتبط بها مصير التعبير الفني عن حقيقة سافرة واضحة لشعب بأسره.. مصير شعب بائس كاد ينسى كل مايربطه بانسانيته.. شعب لا يعرف ٩٠٪ منه كيف يقرأ او يكتب، شعب تسير جموعه بأكملها حامله مرضها وفقرها، ووجوهها الخشنة ، وأجسادها الناحلة الضامرة من قلة الغذاء، وقذارة المعيشه».

ثم يمسك التلمساني بالجرح الحقيقي قائلا: «أن الصور والتماثيل.. وهي في مصر بضاعة راكدة لحسن الحظ- لاتؤدى الي ضرر بالغ بجموع الشعب كما أدت إليه مختلف الفنون الأخرى المتصلة به كالسينما والمسرح والصحافة الرخيصة المبتذلة. إن التصوير المصرى عبارة عن صور للزهور اليانعه ، والفواكه الطازجة الناضجة، وهي تزهو في جلال في صحافها النظيفة اللامعه، وهذا كذب اجتماعي، وجريمة في حق الملايين. أن التصوير المصري عبارة عن صور لفلاحات رشيقات لهن نضارة الفراني وقوام يدانى غصون البان. وهذا كذب اجتماعي».

هذا عن الرسم فماذا عن الفنون الاخرى..

يقول التلمساني «أن السينما المصرية والمسرح والغناء والموسيقى المصرية عبارة عن تجارة يقوم بها بضعه بقالين لسرقة أموال الشعب المسكين لأنه أكثر الطبقات ترددا على الاقلام المصرية. أن رجلا مثل عبد الوهاب ينقل كل قطعه الموسيقية عن الموسيقى الاوروبية بجرأة غريبة.. بل أنه ينقل عنها حرفيا أنفس ماأوجدته هذه الموسيقى، فإذا

كان لابد أن ينتقل تلماذا لاينتقل موسيقى كورساكوف ، أو رانل، أو رحمانينوف؟»

وينتقل التلمساني من تمرد الى تمرد ومن هجوم الى هجوم... وأن الأزهر والهيئات الدينية تقاوم الاختلاط بين الجنسين حتى في الجامعه.. أن الشباب الذي حرم منصوره من رؤية المرأة من صغره قد أدى به الحرمان الى الكثير من الأمراض النفسية الأشد خطرا من الكثير من الأمراض الأخرى، أنه لايفكر الا في المرأة التي حرم من رؤيتها، أنه لايبات الا حالما بها، انها مرضه المزمن الذي لاينتهي»

ومن هذا الحرمان وفي محاوله لاستغلاله ينمو الفن الرخيص.. ويقول التلمساني «أن الفن الذي ينتجه الفنان والشاعر والروائي المصري، ماهو الا الغذاء الوحيد الذي يستسيغه هذا الجيل المريض من الشباب.. أن الغناء والرقص والسينما هي مجرد مشروعات تجاريه لاستغلال العواطف والاحساسات التي أثارها الحرمان من العلاقات الشريفة، والاختلاط الشريف بالمرأة» (المجلة الجديدة-١٧-٦-١٩٤٢)

واذ نعود لنطالع هذا المقال وغيره من مقالات التلمساني المتفجرة ، فأننا نجد أنفسنا أمام مفكر، ومناضل اجتماعي يساري النزعة، يحلل القضايا الاجتماعية ويربط بينها بأسلوب علمي دقيق وجاد..

وهكذا يحيرنا كامل التلمساني..

الرسام السيريالي- المخرج السينمائي- الكاتب الاجتماعي المدقق..

ليس هذا فقط.. ففي سنوات الحيرة المحيرة هذه كان التلمساني يقتات اساسا من دروس للرسم يعطيها لبنات الأسر الارستقراطية مقابل جنيهين في الشهر.

وشهدته شوارع الزمالك وهو ينتقل من قصر لقصر ليحاول أن يلقن فتيات مترفات كيف يمسكن بالفرشاه، وكيف يمزجن الالوان لمجرد أن يتباهين بأنهن يرسمن..

ولكن الثمار ليست جميعا مريرة، ففي حي الزمالك الراقي يلتقي بواحدة من تلميذاته كانت تتفجر تمردا هي الأخرى. أرهقها الجو الارستقراطي المفتعل، وجمود راهبات المدرسة وتمردت على الجميع.. وتلقت المجنون الملاطون على يديه دروسا في الرسم ودروسا في السياسة.. وتخرجت.. من مدرسته المزدوجة فنانة مبدعه، وسياسية مناضلة.

لقد تمرد هذا الرجل بما يكفي.

تمرد فأصبح سيرياليا، ثم تمرد على التمرد رأدان السيريالية رطالب الفنان بأن يلتحق بركب الجماهير. ثم وجد أن الرسم متاع



(٢٦٧)
رسم لكامل التلمساني بعنوان الجمجمة المحطمة

رسم لكامل التلمساني بعنوان جمجمة المحطمة

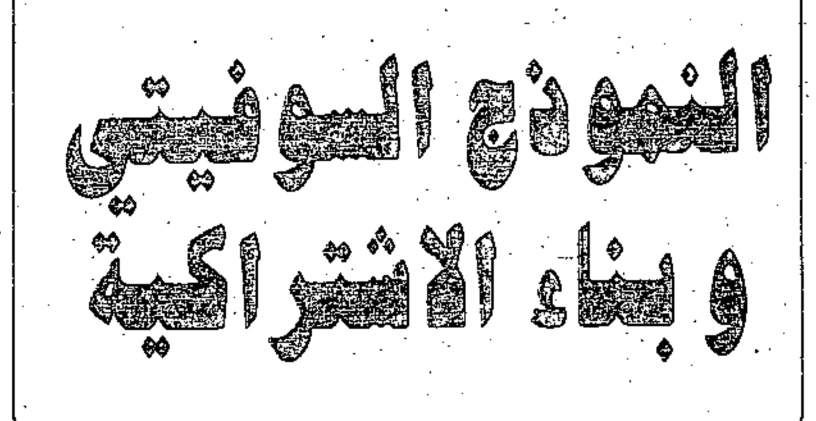
للارستقراطيين، فاتجه الى السينما التي يراها الفقراء ، ويستمتعون بها. وحاول أن يقدم لهم افلاما تقدمية حاربتها عصابات السينما، وخنقتها مؤامراتهم على هذا الدخيل اليساري الذي يريد أن يفسد عليهم تجارتهم..

كتب مقالات صارخة وحاده كسكين ، لكن أغلب الشعب لايقرأ، ثم أن المجلات التي كتب فيها تتوقف الواحدة بعد الأخرى.. **الفن والحرية**، ثم **التطور**، ثم **المجلة الجديدة**..

ويغضب المتمرد من غضبه، ولعله يشعر أنه تمرد بما يكفي.. فيترك مصر عام ١٩٦٠ ليقيم في بيروت.. المناخ هناك أكثر انطلاقا، وهو هناك يستطيع أن يتمرد كما يشاء، متحررا من القيود التي كانت تخيم على المناخ الفكري والفني والثقافي في ذلك الحين وفي مناخ بلا قيود بدأ ينطلق في الكتابة، وتفجرت مواهبه المتنوعة.. كتب للسينما وللمسرح وللاذاعة، وذاعت شهرته ببرنامج رائع كان يذيعه راديو لندن تحت اسم «المقامات اللندنية» تخيل فيه الحريري وقد عاد للحياة وذهب الى لندن ليروي حكاياته ومقاماته من هناك..

وفي هذه المقامات سخر من الجميع .. الحكام ومدعي الفن والأدب والسياسة ، وكل هؤلاء الذي قضى حياته في حالة تمرد عليهم وعلى اسلوبهم.. وانتاجهم.

وفي أول مارس ١٩٧٢ يرحل التلمساني.. وعبثا تحاول اسرته أن تذكر المصريين به، وبما قدمه لهم، وبما تمرد من أجلهم.. عبثا حاولت..



النموذج السوفيتي وبناء الاشتراكية

د. خليل حسن خليل

النموذج السوفيتي لبناء الاشتراكية، هو أول محاولة لإقامة: مجتمع اشتراكي مبنى على أسس علمية. وقد ظل هذا النموذج يناضل للبناء والتطور والازدهار نحو سبعين عاما، حقق فيها نجاحات كبيرة، كما اصابته اخفاقات فادحة، تراكمت وتسببت في سقوطه.

ولاريب أن الأغلبية الكبرى من شيوعيي العالم، قد تأثرت بالجاازات النظام، الذي أعطى أملا لجانب كبير من ثوار العالم في اقامة انظمة مماثلة. لهذا كان الايمان بالنظام السوفيتي عميقا، فهو الذي علم كثيرا من الاشتراكيين في العالم، **كيف تتجسد النظرية في تنظيم اجتماعي اقتصادى قوى**. لهذا لم يكن غريبا أن يؤمن أغلبهم بتفسير السوفيت للاشتراكية التي كانت قبل انتصار ثورة اكتوبر مجرد مثل أعلى وأمل. وقد أمدهم النظام كذلك بروح معنوية عالية، ذلك أن الشعب الروسي هزم القوى الرأسمالية المستغلة للانسان، وبهذا يمكن **هزيمتها في كل مكان**. وأصبح الاتحاد السوفيتي عونا قويا على النضال ضد الطبقات المعادية للجماهير في البلاد الأخرى.

وبهذا لاعجب أن يكون سقوط النظام صدمة فاجعة لأولئك الذين آمنوا به، تطبيقا وفكرا، واعتبروه الطريق الوحيد لبناء الاشتراكية.

وعلى ذلك يكون النظام السوفيتي بنجاحاته المبهرة، قد زاد من التجيعة لوعى مريديه وتابعيه. لقد أحدث النظام السوفيتي تبعية فكرية له، كتلك التي تربط البرجوازيين في العالم بالنظام الرأسمالي الغربي.

كل هذا قد يكون طبيعيا، فيما غدا أن **هناك نفرا من الاشتراكيين في مصر، وفي بعض البلاد الأخرى، قد** اصابتهم ردة. **وأصبحوا يرددون** مايروجه **الرأسماليون من أننا نعيش «نهاية التاريخ»، وأنه لايوجد نظام اجتماعي اقتصادى «خالد» غير الرأسمالية!**

والتجربة السوفيتية، قد أثرت، لانزاع، في الفكر الاشتراكي، وفي النظم السياسية والاجتماعية في العالم. ومن ناحية أخرى فإن هناك فريقا يقول بأن الاتحاد السوفيتي لم يكن اشتراكيا، بل كان **نظام «رأسمالية الدولة»**، وسنعود لذلك عندما نتعرض لفشل النظام. لهذا قد يكون من المفيد أن نعرض لنجاحات النظام، ثم نتناول عوامل سقوطه، وذلك حتى نفيد من هذا الدرس الذي هز العالم نظما وفكرا.

****

إن كاتب هذه السطور يرتبط بالجماهير الكادحة بروابط حميمة، لالأنها تحسب، محل للقهر والاستغلال من القوى المعادية للشعوب. ولكن لانها صاحبة الحق في حكم المجتمع، فهي الأغلبية التي يقول جوهر الديمقراطية بحقها في الحكم.. وهي أيضا الجماهير العاملة، التي تنتج الخبز لمجتمعاتها بسواعدها وعقولها، لهذا يجب أن تكون لها السيطرة على وسائل الانتاج.

والثورة، أو التغيير الاجتماعي (الثورة تختلف عن العنف فالثورة هي عملية التغيير، والعنف وسيلة واحدة فقط من وسائلها) تتطلب أن تكون الجماهير، هي الاداة الفاعلة في هذه العملية. وهذا بالضرورة يتطلب أن تسهم الجماهير في المناقشات التي تستهدف التغيير فليس هناك ثورات في التاريخ، أو عمليات للتغيير، دون أن تكون الجماهير مكونة لصلب تلك العمليات، والإكان المحاولة ترأد في مهدها.

لذلك فانعزال المثقفين عن الجماهير في ندواتهم واجتماعاتهم الهادفة للتغيير الاجتماعي ظاهرة مرفوضة. فالمثقفون، لن تصبح أفكارهم مخلوقات حية، تسعى بين الناس، مالم تتلقفها الجماهير، وتناضل من أجل تحقيقها. هذه الانعزالية تتطرق الى لقاءات بعض القوى التقدمية. ومن بين تلك اللقاءات، بكل أسف، الاجتماع الذي ناقش أخيرا الافكار الجيدة التي قدمها المناضل **عبد الغفار شكر**، ودعا فيها الى قيام تجمع أو حزب تقدمي يقود حركة التغيير... فالمعروف أنه لاتغيير بغير جماهير تؤمن به وتقوده.

وينبنى على هذا الانعزال، أن تتخذ المناقشة مسارا اكاديميا. وتستخدم لغة معقدة غير مفهومة من الجماهير، واحيانا من بعض المثقفين. واذا ما كانت المصطلحات الفكرية، ليست في مستوى فهم الناس لها، فما هي فائدتها؟ هل هي مثلا اعلان عن وجود نخبة من المثقفين؟ ونحن لسنا ضد الابحاث العلمية المعمقة، ولاضد استخدام المصطلحات العلمية فيها. ولكنها تصبح بحوثا أكاديمية، لا شأن لها بالجماهير، وبقضاياها الراقعية، طالما أنها تمت في غيبتهم، ولم تصغ بلغة بسيطة، يتلقفها الناس. وبهذا تنعدم فائدتها، وينتهي امرها الى رفوف المكتبات، أو تذهب المناقشات حولها أدراج الرياح.

وعلى ذلك، فأنى لم استخدم هذه المصطلحات العلمية البعيدة عن مستوى الجماهير الكادحة. اللهم الا اذا كان التحليل يتطلب الرجوع لها. فهنالك سوف يشذبها العلم تشذيبا حادا، ليخلع عنها ذلك الغموض، الذي يغلفها، وتصبح سائغة للقارئ العادي. بهذه الطريقة يصبح العلم أداة مسنونة في أيدي الجماهير الكادحة، يوجهها ويرافقها لتحقيق أهدافها.

بعد هذا الاستطراد «الطويل» والضروري، في وصف الأسلوب، الذي سنتبعه نعود للتجربة السوفيتية في الاشتراكية. ونلقي الضوء على بعض

الموضوعات الهامة لإبراز نجاحاتها واخفاقاتها.
ولما كان الموضوع كبيرا فسنبدأ بالانجازات، ونؤجل الاخطاء لمقالة أخرى:

بعض انجازات النموذج السوفيتي

١- أول هذه الانجازات، هو أن النموذج الاشتراكي السوفيتي نقل الاتحاد السوفيتي من دولة زراعية متخلفة الى دولة صناعية متقدمة، أصبحت على الأقل، الدولة الثانية على مستوى العالم بعد الولايات المتحدة الامريكية.

٢- تم ذلك عن طريق **التخطيط الاقتصادي الاجتماعي**. وقد تسبب التخطيط في الحفاظ على الموارد، وتحقيق معدلات تنمية عالية غير مسبوقة. والمعروف أن التخطيط بدأ عام ١٩٢٨. وبهذا قامت خطتان خمسيتان تحسب أيام السلم، قبل قيام الحرب العالمية الثانية في ١٩٣٨. ووجه التخطيط أثناء الحرب لخدمة الاغراض العسكرية. ثم استؤنف التخطيط للتنمية بعد انتهاء الحرب عام ١٩٤٥. حيث قامت بضع خطط، **أوصلت الاتحاد السوفيتي الى تحقيق درجة من التصنيع في نحو ٤٠ عاما تقارن بما حققه الغرب في ٢٠٠ سنة.**

وقد كان التخطيط الذي اقتبس من التجربة السوفيتية، عونا كبيرا لكثير من دول العالم الثالث على المضي في التنمية ومحاولة القضاء على التخلف. ومازال التخطيط العلمي الشامل يدين بوجوده، للتجربة السوفيتية.

٣- **التقدم العلمي:** سبق الاتحاد السوفيتي دول الغرب جميعا في ابحاث الفضاء، والاقمار الصناعية فاطلق اول قمر صناعي عام ١٩٥٦. واحدث ذلك ذعرا في دول الغرب جميعا وبدأوا يتحدثون عن تخلف الغرب العلمي، وتفوق الاتحاد السوفيتي.

٤- **قضى النظام على البطالة.** وقدم التخطيط العلمي عملا لكل فرد طبقا لمهارته وتعليمه وتدريبه. واثبت أن الاقتصاد الاشتراكي المخطط، هو العلاج الأكيد للبطالة، التي تطبع الاقتصاديات الرأسمالية، متقدمه ومتخلفة، كمرض عضال من أمراض نظامها الإنتاجي.

٥- **حقق العدل الاجتماعي.** ووزع الدخل توزيعا عادلا حسب كمية العمل ونوعه، الذي يبذله كل فرد في الانتاج. واصبح العمل الانساني هو المعيار لتوزيع الدخل، وليست ملكية الأرض ورأس المال، التي تحتكر ملكيتها القلة في النظام الرأسمالي، واصبحت مملوكة في الاشتراكية للناس جميعا ملكية عامة. وبذلك تقاربت المستويات الاجتماعية. وحلت مشكلة تاريخية عضال في الرأسمالية، حيث تسيطر طبقة على الجزء الاكبر من الثروة والانتاج والدخل، وهي قلة يتراوح عددها بين ٥٪ و١٠٪ من السكان في معظم بلاد العالم الرأسمالي. وتترك الباقي صرعى للجوع والبطالة، والتخلف.

٦- **حقق اولويات للتنمية.** فوضع في كثير من الخطط أولوية للصناعة الثقيلة على الصناعات الخفيفة والاستهلاكية. وبذلك بنى القاعدة الانتاجية بناء صلبا. وحقق هذه المستويات المرتفعة من التنمية. وسوف نرى، حينما نتحدث عن الاخطاء، أن هذه النقطة كانت موضع نقد من جانب البعض.

٧- **الخدمات الاجتماعية والثقافية متاحة للجميع** دون مقابل، كالتعليم والخدمات الصحية في جميع مستوياتها، وكذلك خدمات الاسكان والنقل كانت زهيدة الثمن للغاية.

٨- **الثقافة حق للكافة:** كانت الكتب والصحف والمجلات، واسطوانات وشرائط الموسيقى والتعليم رخيصة جدا. وقد شهدنا ذلك في معارض الكتب عندنا، حيث كان الجناح السوفيتي مزارا للاكثرية منخفضة الدخل، حيث تشترى الكتب العلمية والادبية والفنية بعشر ثمنها في أجنحة الدول الأخرى الرأسمالية.

كذلك اقيمت المكتبات العامة، والمعارض، ودور الثقافة المتعددة، ومؤسسات الفنون: الأوبرا والموسيقى، والبالية، والسيرك، والمسرح، ودور الفولكلور، وكانت جميعها بأسعار ضئيلة وشهدنا لأول مرة، الطبقة العاملة تزحف على دور الاوبرا، والبالية، والموسيقى الكلاسيكية الرفيعة، وتتذوقها جميعا، وكانت من قبل مقصورة على الطبقة الثرية.

٩- **كان «فائض القيمة» للعمال السوفيت** (أي فائض قيمة ناتج عملهم بعد دفع الاجور لهم) لايوجه فقط للتنمية داخل الاتحاد السوفيتي، وللخدمات، وللتقدم الثقافي، بل كان يعبر الحدود كذلك. فيعاون دول العالم الثالث، وبعض دول شرق أوربا في تنميتها الاقتصادية، وفي مجال الثقافة والتعليم العام والفني، والمعاونات التكنولوجية. وتسهم في مشروعات كبرى للتنمية الشاملة. ومن امثلة ذلك السد العالي عندنا، والسدود في الهند والصين والجزائر وغيرها.

وكانت قروض السوفيت لتلك الدول لقاء، فائدة متواضعة للغاية لاتتضمن استغلالا، ولكنها كانت تغطى فحسب المصروفات الادارية. وكان مقدارها ٢,٥٪، في الوقت الذي بلغت فيه الفائدة على قروض دول الغرب الرأسمالي حو ٢٥٪، أي نحو عشرة اضعاف.

١٠- **الانتصار على الفاشية:** كانت المقاومة السوفيتية الباسلة للهجوم النازي على الاتحاد السوفيتي في الحرب العالمية الثانية، شرسة، اصابت الجيش الالماني، لأول مرة، بهزيمة فادحة. كانت السبب الرئيسي لانتصار الحلفاء على الألمان في تلك الحرب. ولاشك أن الجندي السوفيتي كانت تدفعه وطنيته. ولكن كثيرا من باحثي الحرب العالمية الثانية قرروا أن حماس الجندي السوفيتي كان يرجع كذلك، لايديولوجيته الاشتراكية، التي جعلت من الوطن وطنا للجماهير العاملة. تملك أرضه ورأسماله. ولم تعد تملكها القلة الرأسمالية المستغلة.

١١- **ثورة اكتوبر، كانت مصدر الهام لكثير من المثقفين والثوريين،** وكانت مرجعا للاحزاب الشيوعية في العالم، أو لكثير منها، فرفعت من معنويات الجماعات الثورية في البلاد المختلفة. وتألفت أحزاب عدة على النمط السوفيتي. بل أن كثيرا من تلك الاحزاب، كانت تعتبر الحزب الشيوعي السوفيتي أباها الروحي. وكان لهذه الابوة جانب معنوي، شجع تلك الاحزاب، ونفخ الروح فيها. لكن من ناحية أخرى، كما سنرى، كانت تلك الأبوة عاملا مخربا لاحزاب كثيرة، بعد انهيار الحزب السوفيتي.

١٢- **الاتحاد السوفيتي كان عونا لكثير من دول العالم الثالث للحصول على استقلالها،** وتقليص تبعيتها للرأسمالية الغربية، بما قدم من مساعدات مادية ومعنوية لمعاونتها في معارك الاستقلال ضد الاستعمار القديم، واوقف طغيان الاستعمار الامريكي الجديد ضدها

١٣- اثرت التجربة السوفيتية الفكر العالمي بحصيلة كبيرة من الفكر الاشتراكي ومشكلاته التطبيقية وكان الفكر الماركسي قبلها مجهودا علميا نظريا. حاولت التجربة أن تبلور اعمدته التي يرتكز عليها

هذه بعض النجاحات التي حققها النموذج السوفيتي في تطبيقه للاشتراكية. وهي ضرورية حينما نريد تحليل اخطائه وأسباب سقوطه.



رحلة «المهاجر» يوسف شاهين

كله عند العرب فراعنة.. !



يوسف شاهين

أحمد يوسف

فى الاحتفالية النقدية التى واكبت عرض فيلم **«المهاجر» ليوسف شاهين**، يمكنك أن تتعرف على بعض من الشئون والشجون التى نحياها، ويبدو أنها قد أصبحت تطبع كل شئ بطابعها، فى سياق تاريخى يغلب عليه الاضطراب أو التشتت، فإما أن نرى كل شئ مظلما وباعثا على التشاؤم، أو أننا نذهب إلى الطرف النقيض، نبحث عن شعاع الضياء فى الظلام الدامس، ونرى الشعاع واهنا ضعيفا لكننا نشعر به كأنه الشمس المتوهجة، فكأننا كالغريق الذى يسلم نفسه تارة للأمواج، ويبحث تارةأخرى عن قشة لعلها أن تحمله إلى شاطئ الأمان. ومن الحق القول أن يوسف شاهين بفيلمه الأخير «المهاجر» قد **أيقظ فى النفوس بعضا من التفاؤل، بقدرة صناعة السينما المصرية على أن تتجاوز محنتها، وبقدرة هذا الوطن وأبنائه على الاستمرار فى الحياة والإبداع**، حين وجد الجمهور والنقاد أنفسهم أمام عمل سينمائى يحمل العديد من الأفكار والكثير من الإبهار، حتى أن الكتابات النقدية عنه باتت أقرب إلى نشوة الصدمة أو صدمة النشوة، بعمل فنى لم تعتد على مثله منذ زمن طويل، خاصة وأن فيلم **«المهاجر» يبدو** كأنه يحطم القاعدة التى سار عليها **يوسف شاهين** طوال عقدين من الزمان، وهى ألا يضع الجمهور فى الحسبان، مطالبا الجميع أن يبذلوا جهدا فائقا لحل الشفرات المبهمة التى تحتشد بها أفلامه، فى الشكل والمضمون على السواء، لكن هاهو فى «المهاجر» يستخدم لغة سردية أقرب الى البساطة، وليتراجع للمرة الأولى عما أعلن عنه مرارا أنه لن يحكى أية قصة أبدا، فذكر فى إعلانات الفيلم أنه سوف يحكى «أجمل قصة فى تراث الانسانية»، والتى يعلم الجميع **أنها مستوحاة من قصة يوسف النبى**، تلك القصة الحافلة بالدراما الرقيقة للمواقف الانسانية والنوازع البشرية التى قد تتلاقى أو تتصارع، والمصائر التى تمضى مع الأحداث من إنقلاب إلى آخر، حيث يبدو الضياع وكأنه بداية الطريق الحقيقية لتحقيق الذات، أو عندمايصبح السجن بابا واسعا يفضى إلى الحرية، أو حينما يصبح التسامى فوق الحب المستحيل ذوبانا فى جذوة عشق لاتخبو نارها أبدا، بل إن القصة الدينية- كما جاءت فى التوراة والقرآن- تحتشد بالكثير من الترقب والتشويق، بدءا من لحظة افتراق يوسف عن أبيه وأهله، ولقائه بهم فى نهاية المطاف، وكأنك أمام أحداث ميلودرامية لاتخلو من الرقة والشفافية.

ولايمكنك أن تنسى أيضا أن القصة عندما تتجسد على الشاشة سوف تعود بك إلى عصر يضع قدما فى عالم الأسطورة، وأخرى فى عالم التاريخ، لترى طرفا من صراع الانسان ضد الطبيعة العاتية القاسية، وبعضا من التراث الفرعونى الشامخ، وهو ماحققه يوسف شاهين بالفعل فى «المهاجر»، فأذهل الجمهور الذى لايرى فى الأغلب إلا «أفلام الشقق المفروشة»، فإذا به أمام «ديكور» تاريخى وأسطورى يتميز بالإبهار والفخامة، فارتضى أن يمضى فى استمتاع «الفرجة» ونشوتها مع «المهاجر» فى رحلة، وهى الرحلة التى لايمكن أيضا أن يقف بها يوسف شاهين عند حدود «الحدوتة»، أو أن يجعلها قاصرة على محاكاة التاريخ.

لكن عن أى تاريخ نتحدث، بينما لم يستطع علماء التاريخ والآثار أن يجدوا للقصة الدينية سياقا تاريخيا محددا؟ فعلى الرغم من أن التاريخ المصرى القديم قد عرف التدوين الدقيق لأحداث العصور المتلاحقة، إلا أنه خلا تماما من تفاصيل قصة **يوسف النبى العبرانى** الذى استطاع أن ينقذ بحكمته أرض مصر من المجاعة والقحط والجفاف، وهذا ماأتاح ليوسف شاهين أن يفترض سياقا تاريخيا رآه يمين الفنان أكثر اقترابا من التعبير عن رؤيته الجمالية والسياسية. وعلى الرغم من أن العصر الذى اختاره ليكون «الخلفية» التاريخية لأحداث فيلمه هو أكثرها ابتعادا عن أية حقيقة علمية أو حتى أسطورية- وهو ماسوف نعطيه قدرا أكبر من التأمل- إلا أننا نتفق معه على «المبرر الجمالى» الذى يبيح له ألا يجعل عمله الفنى وثيقة تاريخية، لكنه قد يصبح رؤية أكثر نفاذا وعمقا للتاريخ، بصرف النظر عن دقته والتزامه بالصدق التاريخى، لكننا لانستطيع أيضا- كمشاهدين - أن نتخلى عن حريتنا فى الاتفاق أو الاختلاف مع هذه الرؤية.



فيلم واحد، وجمهوران

باتت إذن الخيوط الرئيسية لقصة يوسف النبي «مجرد واسكتش» ليس بينه وبين «المهاجر» إلاصلة واهية مخادعة، قد تغرى المتفرج أحيانا بتعقبها، لكن «المهاجر» ليس في جوهره- رغم التبسط الظاهر في الشكل والمضمون- إلا خليطا من الأفكار التي تحاول تارة أن تقدم تفسيرا للتاريخ، وتسقط هنا التفسير تارة أخرى على الواقع الراهن، لكنها تدور أحيانا في عالم الهواجس الذاتية التي ألحت على يوسف شاهين كثيرا في بعض أفلامه السابقة، لكنه هذه المرة يجعلها تجسيدا فنيا في الشخصية الفنية المتقمصة عن يوسف النبي.

وقد يبدو ذلك للوهلة الأولى وكأنه يعرف ينحك عملا فنيا يتمتع بالتوتر الخلاق، لكن هذا التوتر يتحول الى تناقض حاد في اللحظة التي تسقط فيها أولى أطياف الفيلم على الشاشة، حين يعلن يوسف شاهين في لوحة مكتوبة لجمهوره من المتفرجين العرب أنه لاصلة لأحداث فيلمه بأية وقائع أو أحداث معروفة، وأنها رؤية سينمائية مستوحاة من تراث الانسانية، بينما تتضمن اللوحة ذاتها عبارات بالفرنسية لجمهور «الخواجات»، تؤكد لهم أن الفيلم يدور حول قصة يوسف النبي!

وقد لانرى في هذا التناقض الصارخ في مخاطبة الجمهور العربي والغربي إلا مبررا مشروعا لكي يتحايل الفنان على القيود الرقابية عندنا، والتي تمنع ظهور الأنبياء على الشاشة، بينما لايشكل هذا الأمر أية أهمية ذات خطورة في عالم السينما الغربية، طالما أن الفنان لاينتهك النظرة التقليدية التي تحمل التقديس للشخصيات الدينية، بل ربما نظروا اليه أيضا على أنه نوع شديد الذكاء من «التبشير»، ولتقارن ذلك- إن أردت أن تزيد الأمر وضوحا- بما حدث لفيلم «الاغواء الأخير للسيد المسيح» «لمارتين سكورسيس»، المأخوذ عن الرواية العظيمة لنيكوس كازنتزاكس، صاحب «زوربا»، و«المسيح يصلب من جديد»، فقد أحرق الجمهور في العديد من دول الغرب دور السينما التي تعرض الفيلم، وانتهى الفيلم إلى الضياع في زوايا النسيان الى الأبد، لأنه خلع عن المسيح هالة التقديس التقليدية، وجعله بشرا عاديا يناضل ويصارع ويتألم من أجل أفكاره، وينازع في نفسه أغواء متاع

الدنيا ليكمل رسالته حتى لو انتهى به الأمر إلى الصليب، مما يجعله- للقارئ والمتفرج الواعي- من أكثر النماذج الانسانية بطولة فى تاريخ البشرية. ومع ذلك فإنه لم يستطع أن ينال رضى الجمهور الغربى الذى يصارحه **يوسف شاهين** بكل ثقة بأنه يتحدث فى فيلمه عن قصة يوسف النبى، المعروف للعرب من خلال ماورد في القرآن الكريم عنه، والمعروف لأهل الغرب من خلال بعض أحداث «سفر التكوين»، أحد أسفار «العهد القديم».

وليس مما يخفى على القارئ أن هذه القصة الشهيرة عند العرب وأهل الغرب على السواء هى من بين القصص الأكثر ملاءمة لصنع فيلم «عالمى» يستطيع المتفرجون هنا وهناك أن يجدوا فيه مايريدونه، وليس سرا أيضا أن الدوائر الدينية الرسمية فى مصر قد أبدت تحفظاتها التقليدية على أن يدور الفيلم حول أحد الأنبياء، وأكاد أؤكد أن ذلك قد تلاقى مع مايريده **يوسف شاهين** بالفعل، فى أن يصنع من القصة الدينية رؤية ذاتية خالصة، تتألف عناصرها من خليط من بعض عناصر القصة الأصلية وشخصياتها كما جاءت فى التوراة والقرآن، وشذرات تاريخية متفرقة من العصور الفرعونية، واسقاطات ورموز تشير بطرف خفى الى مصر المعاصرة كما يراها يوسف شاهين.

الحدوتة كما رواها يوسف شاهين

ولنبدأ من البداية، من القصة كما رواها **يوسف شاهين** عن «المهاجر»، ذلك الفتى رام (**خالد النبوى**)، الذى يحيا مع قبيلته البدائية حياة شديدة القسوة والعنف، فى صراع لاينتهى مع الطبيعة، يرتحلون من مكان إلى آخر بحثا عن العشب والكلأ، ليرعوا أغنامهم الضامرة الهزيلة، مما يدفع بالفتى رام- الذى يتأثر بصديق أبيه بشير (**سيد كويرات**) القادم من مصر والمشيد بعلمها الغزير- أن يخطط للذهاب إلى أرض مصر لكى يتعلم فنون الزراعة، حتى يعود إلى قومه فى النهاية لينقلهم من البداوة إلى التحضر، وتتحقق أهداف رام، ولكن على أيدى إخوته غير الأشقاء، الذين يتآمرون للتخلص منه بسبب غيرتهم لأنه أقربهم إلى قلب أبيهم (**ميشيل بيكولى**)، فيرمون به مقيدا الى قاع مركب ترحل به- بالمصادفة- إلى مصر، حيث يعلم أن الطريق إلى العلم والنجاح يبدأ بأن يصير من أتباع أميهار (**محمود حميدة**) قائد حرس فرعون، ليسعى الى أن يكون من عبيده.

وفى قلب «طيبة»، عاصمة مصر، يشهد رام مظاهر الاضطراب والصراع بين حورى كاهن الإله آمون (**حسن عبد الحميد**) وأتباعه من ناحية، والمتمردين المبشرين بالإله الجديد آتون من ناحية أخرى، كما يرى الفتى تناقضا بين اهتمام المصريين بالتحنيط وعالم الموت، وبين أحلامه بتعلم الزراعة على أيديهم. ولسبب غامض لايكترث الفيلم له كثيرا، يبدى أميهار اعجابا فائقا بالفتى الذكى، حتى أنه يقربه من حياته الخاصة، حيث يتعرف على الأميرة سيمهيت (**يسرا**)، كبيرة كاهنات الإله آمون وزوجة قائد الحرس، لتندلع فى قلب المرأة وأحشائها منذ اللحظة الأولى للقائهما شرارة الاعجاب بالفتى، مما قد يبرره الفيلم على الفور بشعورها بالحرمان العاطفى والجنسى بسبب العجز الذى يعانى منه زوجها أميهار- ، وإن لم يفسر لنا الفيلم لماذا لم يستيقظ فى وجدانها هذا الشعور أبدا طوال عشرة أعوام من الارتباط بزوج عنين، وإن كنت تفترض أن الفتى يملك من الوسامة والفتنة مايدفعها الى تأمل جسده فى اشتياق.

يتوقف الفيلم طويلا أمام هذه العلاقة التى تنمو بين الفتى وزوجة سيده، ليعرض لك طرفا من ماضيها كأميرة لبلاد تقع على الحدود الشرقية لمصر، اجتاحتها جيوش أميهار ومحتها محوا ليأسر الأميرة ويتزوجها، لكنها الآن تقود فى السر حركة سياسية للدعوة الى ديانة آتون رغم كونها كاهنة آمون الكبرى، ويلمح الفيلم الى أن سبب تمردها على آمون هو الجوع الجنسى الذى تعيشه، فهاهى فى لحظة استمناء، تثور على تمثال الإله وتلقى فوقه الدماء، لكنها فى لحظة أخرى تقود الكاهنات فى رقصة دينية، فنتخيل أنها ترقص للفتى رام وحده، وقد جلس كفرعون ذهبى تحت شعار آتون، بينما يكون الفتى بدوره يعانى الجوع الجنسى ذاته الذى يجتاحه فى ليالى وحدته الموحشة.

وربما كان الزوج قد بدأ يشعر بتلك العلاقة التى تنمو فى قلب زوجته ونزوات الفتى، لكن الفيلم- الذى لايتوقف كثيرا عند تأمل الملامح الدرامية الدقيقة لشخصياته- لايوضح لنا إذا ماكان ذلك هو الدافع الى أن يقوم أميهار- بابعاد رام، حين يمنحه قطعة أرض قاحلة فى أقصى البلاد ليتعلم فيها الزراعة، حيث يقضى رام أياما طويلة من العناء، والانتظار وسط الجفاف والجدب، لايؤنس وحدته الا معلمه العجوز أوزير (**سيد عبد الكريم**)، والصديق الشاب برى (**أحمد سلامة**) الذى أصرت شقيقته هاتى (**حنان ترك**) على مرافقته لتلاحق رام الذى هامت به حبا حتى أنها تصارحه برغبتها فى الزواج منه دون مواربة. وتهطل الأمطار أحيانا فتخضر الأرض، ويسود الجفاف أحيانا فتعود الى جدبها، لكن رام يكتشف فجأة شلالا من الماء العذب ينجح فى ارواء الأرض العطشى منه، فتصبح كأنها الجنة الموعودة، وليرتبط بالحبيبة هاتى فيعيش للمرة الأولى احساس الاستقرار والسلام.

لكن على أرض مصر وفى قلب عاصمتها يسود الاضطراب والخراب، حيث يثور الشعب المناصر لعبادة آتون ضد كهنة آمون، بل إن أميهار- قائد الجيش يبدو كما لو كان يسعى الى أن تزداد الأزمة استفحالا بتدمير مايرسله رام من مزرعته من الحنطة والغلال. وبين الجوع الذى يفرضه أميهار، والنار التى يضرمها الكاهن حورى فى الأخضر واليابس دفاعا عن إلهه آمون، تندلع الثورة الشعبية، فى اللحظة التى يعود فيها رام الى طيبة، حيث تأتى اللحظة الموعودة للقائه مع سيمهيت، فتشتعل من جديد جذوة الحب الكامنة تحت الرماد، ويحدث المشهد المعروف لمراودته عن نفسه، لكنه يأبى الاستجابة لها تعففا رغم اعتراف بحبه، ويسجنه أميهار مع يقينه بأن الزوجة هى التى أغوته، لكن سيمهيت تعترف بخطيئتها، فيحصل رام على حرية، ويعود إلى أرضه من جديد.

ويقفز الفيلم سنوات الى الأمام، حيث استقرت عبادة آتون، وإن ظلت الأمور على حالها، فيصبح الثوار القدامى هم أصحاب السلطة الجدد الذين يمارسون قمعهم على الجماهير، لكن رام يستمر فى اهتمامه بالزراعة، فينقذ البلاد من المجاعة التى كانت قد طالت أيضا أرض قبيلته فى صحرائهم القاحلة، وحين يهبط إخوته الى مصر بحثا عن شراء الحنطة يبدى لهم بعض الجفاء والقسوة، لكنه يكشف عن حقيقته فى النهاية، ليعود معهم مصطحبا زوجته وأطفاله الى أحضان أبيه، ولتنتهى بذلك رحلة «المهاجر» العبرانى رام، على أمل أن تساعده الزوجة المصرية هاتى فى الانتقال بقبيلته من البداوة الى التحضر، أو كما يعبر الحوار العامى الذى وضعه يوسف شاهين على لسانها: **«ها ادردح عيلتك، وأخضر أرضك».**

لامفر أمام المتفرج العربي، كما أنه لامفر أمام المتفرج الغربي الذي يتوجه إليه أيضا فيلم «المهاجر» بانتاجه المشترك مع فرنسا، من أن يظل واعيا مع تطور الأحداث بمدى اقتراب الفيلم أو ابتعاده عن الخيوط الرئيسية- أو حتى بعض التفاصيل الثانوية- في القصص الديني للتوراة والقرآن عن يوسف النبي. وبصرف النظر عن ازدواجية ترجه يوسف شاهين في اقناع المشاهد العربي بأنه لاصلة بين الفيلم ومايعرفه عن قصة يوسف، وتأكيده على هذه الصلة للمتفرج الغربي، فإنك في الحالتين تجد نفسك أمام شخصيات تضع قدما في عالم الأسطورة، وأخرى في عالم التاريخ. ولعلك قد تفهم أو تتفهم التبرير الذي يعلنه **يوسف شاهين** لتغييره ملامح الأسطورة، لكي يبتعد عن شبهه تقديم النبي يوسف على الشاشة، لكن غير المفهوم وغير المبرر هو أن يحدد صانع الفيلم زمنا بعينه تدور فيه الأحداث، بدلا من أن يترك هذا الزمان مفتوحا، لتصبح «أجمل قصة في تراث الانسانية» كما يقول الاعلان أكثر تأثيرا وانسانية وعمقا.

كل الأمور ضبابية في عالم الفيلم، حتى الأرض التي قدم منها رام ويسميها الفيلم «طرناي»، فيما عدا أن السياق التاريخي الذي لايقبل الشك هو أن الأحداث تدور في مصر خلال تلك السنوات التي دارت بين حكم **أمنحتب الثالث** (يستخدم الفيلم الاسم الأغريقي له **أمينوفيس**) ووريثه **أخناتون**، فهناك الصراع المحتدم بين أتباع الالهين **أمون وآتون**، وهناك الجماعة الدينية السرية التي تجتمع تحت رمز آتون المجسد في قرص الشمس بأشعته التي تنتهي كأنها الأيدي البشرية الحانية، بل إن هناك **أخناتون** نفسه وقد اعتلى العرش، ولتصرف النظر بصدد ذلك كله عن بعض الأخطاء التاريخية التي تدمر فيها الجماهير الثائرة تماثيل الفرعون **رمسيس الثاني** (اللاحق على أخناتون بقرن كامل!)، أو تصوير سوق مدينة طيبة أمام صرح معبد هابو الذي شيده رمسيس الثالث (اللاحق على أخناتون بقرنين من الزمان!).

ولعل ذلك الأمر في تحديد السياق التاريخي قد يستدعي الى ذهنك مشروع المخرج الراحل **شادي عبد السلام** عن **«أخناتون»**، وهو المشروع الذي ظل طوال عقدين مجرد حلم لايجد التمويل لتجسيده على شريط سينمائي، بينما وجد رام (التجسيد الفني ليوسف) هذا التمويل، ليبقى «أخناتون» مجرد كومبارس (!)، بالمعنى الحقيقي للكلمة. لكن الأهم هو ذلك التشويه الغريب لتلك الفترة، وتصويرها بنفس الطريقة النمطية التي تستخدمها الأفلام والمسلسلات التليفزيونية التقليدية لتقديم أعمال فنية عن «الفراعنة»، خاصة وأن **يوسف شاهين** يجعلها حقبة فقر واضطراب ودمار من تاريخ مصر، على حين تمثل مزرعة رام (التي لاوجود لها إلا في عالم الفيلم) واحة السلام والرخاء!.

وأرجو أن تتأمل مايقوله التاريخ عن تلك الفترة ذاتها من أن حكم **أمنحتب الثالث اتسم بالدعة والسلام، (وكانت خزائن فرعون تفيض بأكياس الذهب والفضة، وجميع مافي العالم من ثروة وغنى، وبدأت مصر تتجمل وتجني ثمار جهادها الطويل الشاق»** (كما جاء في كتاب «مصر الفرعونية» للعلامة الأثري **(أحمد فخري)**. بل إن الانتقال من ديانه آمون الى ديانة آتون على يد أمنحتب الرابع (أخناتون) تميز في البداية بأقصى درجات الحكمة من الفرعون الصغير، وأن الاضطرابات لم تبدأ إلا حينما أخذ أخناتون يشتط في غلوائه ودعوته بالعنف لدينه الجديد.

مصر، بين الموت والحياة

وإذا كان علينا أن نتقبل **«التحوير الجمالي»** بتغيير وتحوير التاريخ، انتظارا لما سوف يسفر عنه هذا التغيير في العمل الفني، فإن من حقنا أيضا- كمتلقين للعمل الفني- أن نتساءل عن **«القصد الجمالي والسياسي» الذي يدفع الى تحوير وقائع التاريخ**. ونحن هنا بصدد نظرة شديدة السطحية قدمها فيلم «المهاجر» للتاريخ الفرعوني، ناهيك عن هذا التجاهل المتعمد- الذي يكاد أن يميز معظم أفلام يوسف شاهين- للواقع الحقيقي للجماهير، فهل كان الشعب في مصر الفرعونية هم هؤلاء العبيد المساكين، الأقرب الى الرعاع والدهماء والمجانين في ثورتهم أو خنوعهم؟! (أرجو ألا يتصور القارئ أننا نرمي الى إقحام أية فكرة تنحاز سلفا وبشكل دوجماطيقي لما نسميه «الجماهير»، فالجماهير قد تصبح قوة ثورية أو رجعية تبعا للسياق التاريخي).

إن «المهاجر» لم يقترب لحظة واحدة من البسطاء، وتجاهل وجودهم، أو لنقل أنه عكس جهلا تاما بحياتهم وأفكارهم، فإن هؤلاء الفلاحين البسطاء- في الفترة التاريخية التي اختارها الفيلم، بل قبل هذه الفترة وبعدها- لم يكن يعنيهم من قريب أو بعيد أن يسود آمون أو آتون، فقد كانوا يفهمون أن هذا الصراع ليس إلا ترفا عقليا يعكس الصراعات السياسية التي تدور بين الصفوة من الكهنة النبلاء، أما الجماهير فقد كانت لهم ديانتهم الشعبية شديدة الفطرية، التي استطاعت رغم بساطتها، وبسبب هذه البساطة ذاتها، أن تنتصر دائما على كل الآلهة الشمسية بدءا من رع، مرورا **بآتوم وآمون** وأتون. لقد كانت تلك الديانة الشعبية هي ديانة أوزيريس.

ولقد كرر فيلم «المهاجر» عشرات المرات القول بأن مصر الفرعونية تهتم بالموت، بينما يريد «المهاجر» رام الحياة(!) كما زعم الفيلم أن فقراء المصريين يتصورون أن الجسد يفنى بلا بعث أو نشور إذا لم يحظ بشرف التحنيط الذي يستطيعه الأغنياء وحدهم، بينما يؤكد رام للمصريين الجهلة وجود العالم الآخر (!)، ولايستطيع المرء أن يتجاوز عن هذا الخلط بوهم الزعم بحرية الفنان في رؤيته، إذ أن هذا الرؤية تمنح رام- الذي لاشك في كونه من أسلاف العبرانيين الأوائل- شرفا كان يملكه بسطاء المصريين، ولم ينتقل الى العبرانيين العلم به إلا بعد قرون حين تبلورت الديانة اليهودية، بل إنه لايبدو في نصوصها التي وصلت إلينا أنها أولت اهتماما من أي نوع بالحياة الأخرة (!)، بينما استطاعت **الديانة الأوزيرية الشعبية** تلخيص هذا الاهتمام في رؤية شديدة البساطة والتجسيد في آن واحد، لاتختار بين الموت والحياة كما يزعم «المهاجر»، وإنما تجمع بينهما في دورة مادية وروحية، تجعل الانسان يستمتع بالحياة ولايخاف الموت. (لقد كان كتابا **برستيد «فجر الضمير» و«تطور الفكر والدين في مصر القديمة»** أبلغ دراسة لهذه العقيدة).

لقد نظر المصريون البسطاء الى «حياة **الأرض التي تموت ثم تحيا، والتي تتصل أحيانا بالماء التي تمنحها** الحياة، وأحيانا أخرى بالطمي الذي يأتي به الفيضان، **والتي تتجسد في النبات نفسه، كل أولئك وأوزيريس شئ واحد»**. (وليس غريبا أن يظل المصريون البسطاء حتى اليوم يحتفلون بمقدم الربيع بإنبات بعض البذور مثل الترمس أو



اخناتون شخصية باهتة فى ظل «المهاجر»

الحلبة كرمز لعودة الطبيعة الى الحياة، وليس غريبا أيضا أن يكون ذلك هو عيد قيامة المسيح من الأموات). بل أن أوزيريس - بتعرضه للموت فى مرحلة من أسطورته- كان أقرب الى قلوب البسطاء، لأنه «عرضة لمصير الانسان وقضاء الموت الذى يجرى على البشر..»، كما كان قريبا الى عقولهم لأن أسطورته تعبر عن القيم الأسرية النبيلة التى تتجسد فى زوجته الوفية وابنه البار، وانتصار الخير على الشر، وتحقيق العدل الالهى، لافرق بين الملك والفلاح، والأمير والفقير. فأين هؤلاء من فيلم «المهاجر»، وقد ظهروا على الشاشة كمسوخ مشوهه تتعلق كالقرود بأسوار السجون، أو كأشباح باهتة تمضى كالحيوانات السائمة في العبردية والسخرة؟!

وإذا كان يوسف شاهين معجبا بهاملت الى الحد الذى يدفعه الى أن يقحمه على معظم أفلامه، حتى أنه يجعل الممثل خالد النبوى- أو رام- يتقمص شخصية هاملت «الشاهينية» فى أحد المشاهد، وهو يقرأ نصا فرعونيا (!) فإن يوسف شاهين لم يتأمل ماقاله برستيد عن علاقة المصرى القديم بالموت: «كان مثل المصرى فى ذلك كمثل هاملت، وهو يحمل فى يده جمجمة يورك، فلابد أنه فكر فى أعماق نفسه عندما تأمل أشهاد الموتى الصامتين»، ووجد أن ايزيس لاتحتاج إلى أن تعيد الحياة الى جثث المحنطين فقط، بل إنها قادرة على جمع أشلاء الموتى الفقراء: «إنها تعيد لك رأسك ثانية، وتجمع لك عظامك، وتضم لك أعضاءك، وتحضر قلبك لجسمك». فهل كانت الفتاة «هاتى» المصرية، الحزينة على موت أمها، تنتظر أن يطمئنها رام العبرانى على بعث الأم فى الحياة الآخرة، دون حاجة الى التحنيط؟! لقد كان المصرى القديم يؤمن بأن دورة الحياة والموت دورة أبدية، وليس أكثر تعبيرا عن هذا الفكرة مما يقوله أوزيريس فى «كتاب الموتى»: «أعيش كحبة حنطة، وأنمو كحبة حنطة»، وهو مانجد بعض أصدائه فى إنجيل يوحنا: «والحق الحق أقول لكم إن حبة الحنطة التى تقع على الأرض إن لم تمت فإنها تبقى وحدها، وإن ماتت أتت بثمر كثير».

هنا لايبدو «المهاجر» بعيدا عن مجرد تحوير «التفاصيل» التاريخية لما تقتضيه الرؤية الخاصة للفنان، لكنه يبدو أبعد عن فهم «جوهر» الحقائق التاريخية.. وربما كان الخطر الحقيقى هو اعتماد بعض النقاد على «عبقرية» يوسف شاهين حتى أن رؤيته تكتسب مصداقية خاصة. لكن من الحق القول أن بعض هؤلاء- ولهم كل الاحترام والتقدير لتاريخهم النقدي- إذا كانوا قد رأوا فى «المهاجر» ملحمة فى عشق مصر الفرعونية، فإن ذلك يعود الى ما أشار اليه بحق الناقد مصطفى درويش من ابهار الشكل الهوليودى المصقول الذى حاول به يوسف شاهين اقتفاء آثار سيسيل دى ميل، بل وربما أيضا مخرجى الأفلام الايطالية عن التاريخ الزائف خلال الخمسينات.

لكننا يجب ألا ننسى أن بطل «المهاجر» الحقيقى هو رام، التجسيد الفنى لأسلاف العبرانيين فى مصر من ناحية، والتعبير السينمائى من ناحية أخرى عن الهواجس التى عاود يوسف شاهين معالجتها فى أفلامه، وهذا هو الوجه الآخر لفيلم «المهاجر»، الذى نظر فى وجهه الأول الى تاريخ مصر القديم على أن: «كله عند العرب فراعنة»!!



خلف أسوار الصمت
حكايات سجن النساء



لاشك أن اقتحام قلم المرأة مجال التأليف المسرحي في أي دولة كانت يعد مكسبا حضاريا وسياسيا هاما، فهو لايسهم فقط في إثراء وعي الأمة بنفسها من خلال التعرف المباشر، العميق والصادق، على الكثير من الخبرات المهمشة وعلى تلك المناطق من التجربة الانسانية التي نادرا ماتلقي عليها الأضواء، وتبقى عادة طي الكتمان، لكنه يتيح للمرأة أيضا ممارسة العمل الجماعي وقيادته، ويدفع بها الى حلبة المواجهة السياسية الصريحة مع الواقع السائد، ومساءلته علانية من منظور جديد مخالف للسائد. كما أنه يمكنها أيضا من استنطاق تلك الشرائح الاجتماعية الصامتة التي تشغل أدنى درجات السلم الاقتصادي والتي تمثل النساء، فيها أكبر فئة تتعرض للقهر والتهميش.

لقد ظلت المرأة قرونا طويلة منفية عن ساحة الابداع المسرحي (بل وحرم عليها [illegible] العصر الذهبي للدراما اليونانية القديمة ارتياد المسارح للفرجة- مثلها في ذلك مثل العبيد.

ورغم ظهور أول كاتبة مسرحية في الغرب في منتصف القرن العاشر الميلادي- وكانت راهبة ألمانية أطلقت على نفسها إسم هيروتسفيت، أي «الصوت القوي»- فقد ظل المسرح طوال العصور الوسطى نشاطا ذكوريا خالصا واستمر هكذا في عصر النهضة بدرجات تفاوتت من بلد الى بلد، ففي الوقت الذي سمح فيه للمرأة باعتلاء خشبة المسرح كممثلة في إيطاليا، ظل الرجال وحدهم يقدمون مسرحيات شكسبير ومعاصريه في انجلترا.

ورغم محاولات المرأة منذ القرن السابع [illegible] صرح التأليف المسرحي- فقد ظل صوتها خافتا يمثل نغمة ناشزا في معزوفة أصوات الرجال لاتلبث أن تختفي. ولاشك أن المؤسسة النقدية والتعليمية قد ساهمت في وأد العديد من الكاتبات الواعدات فكان واضعو المناهج الدراسية الأدبية يتجاهلون تماما الابداع الدرامي النسائي وسارت أغلبية النقاد على نهجهم. وحتى الأقلية التي تناولت وتناولت أعمال الكاتبات المسرحيات كانت في معظم الأحيان تعتنق إزاءها نظرة متعالية ساخرة وتشكك في قدرة المرأة على طاعة القواعد الدرامية التي وضعها الرجال بدءا بالفيلسوف اليوناني أرسطو، وفي أهليتها للتصدي للقضايا العامة التي يطرقها المسرح عادة والتي تتطلب وعيا عريضا بالممارسات الاجتماعية وتاريخها ومشاكلها ورؤية فكرية شاملة.

وقد ظل هذا الوضع قائما حتى [illegible] بل أن بعض الكاتبات في الغرب يؤكدون أنه لازال مستمرا حتى لحظتنا هذه

رغم التحسن النسبى الشاذى الذى طرأ عليه. فلا يزال تاريخ الدراما الغربية الذى يدرس فى المؤسسات الأكاديمية يكاد أن يخلو تماما من الكاتبات المسرحيات ولاتزال الغالبية العظمى من الأعمال المسرحية التى تعرض على مسارح أوروبا وأمريكا من إبداع الرجال.

وإذا كان هذا هو الحال فى الغرب المتقدم، فماذا عنه فى مصر العزيزة لى وطن؟

هنا تضافرت التقاليد والعادات والظروف المعيشية والظروف التاريخية على نفى المرأة تماما عن ساحة التأليف المسرحى حتى نهاية الخمسينات، وإذا حاولنا حصر عدد من جرؤن على محاولة غزو هذه الساحة بما فيهن صاحبات العمل الواحد، ومن بقيت أعمالهن رهينة صفحات الكتب، بل وأيضا من مارسن الإعداد الدرامى فقط مثل الراحلة أمينة الصاوى، فسوف نجد أن عددهن لايتجاوز إحدى عشرة.

وتتصدر هذه القلةالنادرة الكاتبة المناضلة دوما **فتحية العسال** وهى لاتحتل هذه المكانة استنادا الى حجم إبداعها المسرحى فقط مقارنة بزميلاتها، بل أيضا بسبب تميزها الفنى الواضح. لقد بدأت **فتحية العسال** مشوارها مع المسرح عام ١٩٦٩ بمسرحية **المرجيحة** وتبعتها عام ١٩٧٢ بمسرحية **الباسبور** التى قدمت على مسرح الجمهورية، وكتبت فى الثمانينات مسرحيتين هما **نساء بلا أقنعة** التى عرضت على مسرح السلام (بعد أن حذف الرقيب كلمة نساء) من العنوان وكأن الكلمة عورة!)، ومسرحية **البين بين** التى لم تعرض حتى يومنا هذا. وبعد تجربة الاعتقال السياسى، خرجت علينا **فتحية العسال** بمسرحية جديدة فى التسعينات هى **سجن النساء**، التى تعرض حاليا على المسرح القومى تحت قيادة المخرج الواعى **عادل هاشم**، وكان قد أخرج من قبل لنفس الكاتبة مسرحيتها السابقة **بلا أقنعة**.

وفى **سجن النساء** تتبنى **فتحية العسال** نفس أسلوب التشكيل الدرامى الذى اتبعته فى تجربة **بلا أقنعة**، لكنها تنجح هنا فى تطويره بإضافة بعض ملامح الأسلوب الكلاسيكى مع جعله أكثر تركيبية وإحكاما من حيث البناء، وأكثر كثافة من حيث الدلالة. ووفق هذا الأسلوب أو المنهج **تقوم الكاتبةبطرح عدد من المونولوجات السردية الكاشفة يمثل كل منها تكوينا لغويا- أشبه فى تأثيره بسيمفونية الغنائية- يرسم بوضوح ملامح شخصية نسائية معذبة وبجسد معاناتها وصراعها مع واقعها. ولاتلبث هذه المونولوجات- من خلال تقابلاتها وتعارضاتها وتقاطعاتها الدائبة- أن تكشف عن التيمات أو الأفكار المحورية التى تنتظمها وتشكل فيما بينها شبكة علاقات النص وركائزه الانسانية والفكرية**، وغنى عن الذكر أن هذا الضرب من البناء الدرامى يقترب كثيرا من بناء الحكى الشعبى الذى يعتمد على الاستطراد والتفرع والتراكم، كما يقترب أيضا من نمط البناء الموسيقى فى الدراما الحديثة الذى يصبح الحدث الدرامى فيه داخليا تكشفيا بالدرجة الأولى ويتخذ فيه التطور الدرامى صورة الاشراق التدريجى للوعى من خلال التكرار والتنويع والتقابل والتعارض والوصل والقطع- بكل ماتفرزه هذه الآليات من توتر متصاعد. وهذا النوع من البناء نلمسه بوضوح فى الدراما المعاصرة- خاصة الغربية- منذ الخمسينات ويكاد أن يتسيد كل الدرامات النسائية. وغنى عن الذكر أيضا أن هذه السياسة فى التشكيل الدرامى- التى تسمح بالقطع والوصل والحركة الدائبة المتواترة بين الماضى والحاضر والمستقبل- ارتدادا وتقدما وعودة-فى دوائر متلاحقة ومشتبكة - هذه السياسة التشكيلية تختلف جذريا فى أسسها ودلالاتها الفكرية عن المبادئ الأرسطية فى التشكيل الدرامى. فالبناء الدرامى الأرسطى يعتمد مسارا أحاديا واحدا متصاعدا نحو الذروة، ولايقبل التفرع أو القطع أو تعدد المنظور، بل ويرفض تعددية الزمان والمكان.

ولقد تصدت الكثيرات من مناصرات منهج النقد النسائى الذى ظهر حديثا (منذ السبعينات) بالنقد والتحليل لنظرية أرسطو الدرامية. ورغم اشتطاط بعضهن فقد أفرز النقد والتحليل النسائى آراء لايمكننا انكار وجاهتها. لقد جاء تنظير أرسطو للدراما مصطبغا بظرفه التاريخى والحضارى الذى كان يفرض المنظور الذكورى على الحياة، ويتخذ من تجربة الرجل الأبيض المتسيد نموذجا للتجربة الانسانية برمتها ويحرم المرأة من المشاركة فى الممارسة المسرحية أو مشاهدتها .لذا جاء البناء الدرامى الأرسطى عاكسا لنسق التجربة الحياتى فى الممارسة المسرحية أو مشاهدتها.لذا جاء البناء الدرامى الأرسطى عاكسا لنسق التجربة الحياتية الذكورية وحدها التى تشكل بدورها رؤية العالم فى المجتمع الرأسمالى الأبوى فى تجاهل تام لتجربة الطبقات المطحونة والفئات المهمشة والأقليات.

وفى هذا الصدد تقول الكاتبة **جيليان هانا** فى كتيب نشر عام ١٩٧٨ تحت عنوان **الفكر النسائى والمسرح** أن«الرجال يولدون فى عالم يسمح لهم بتخطيط حياتهم وتنظيمها فى خط أحادى متصاعد ينطلق من بداية واضحة مسبقة ومفاهيم راسخة الى وسط فنهاية». لكن هذاالمسار الأحادى المنتظم- كما تمضى فتقول- غريب على تجربة المرأة التى تقوم فى أساسها على التعدد والتقاطع والتعارض.فالمرأة تعى الحياة كجماع من التجارب المتعارضة التى تشكل فيما بينها رؤية متكاملة للحياة ووعيا خاصا بها، فهى تلعب أدوارا عدة تتزامن حينا أو تتلاحق كالأمواج المتلاطمة. وهذه الأدوار لايمكن انتظامها فى خط واحد متصاعد ذلك أن كلامنها يرتبط ببنية مستقلة قائمة بذاتها تنهض على مجموعة من الفرضيات والمفاهيم والعلاقات والقيم المختلفة، كما أن كلا منها يحتل نفس الأهمية فى وعى المرأة. فإذا كان المحرك أو الدافع الرئيسى فى حياة الرجل هو المستقبل العملى- أى السعى نحوالقوة والمال والجاه، وهو سعى ينتظم كل تجاربه ويتصدر قمة سلم القيم لديه، بل ويشكل حجر الزاوية فى مفهوم الرجولة، فإن المرأة تجد نفسها موزعة بين محركات عدة يدفعها كل منها الى تجربة مختلفة تحيا جنبا الى جنب مع آخريات، ذلك أن كل المحركات والقوى الدافعة فى حالتها لها نفس الطاقة وتتساوى فى كفاءة الدفع والتحريض.

ورغم أن **فتحية العسال** - مثل العديد من الكاتبات- تتبنى فى **سجن النساء** شكلا دراميا يشى دلاليا بهذه الرؤية للطبيعة التعددية المتعارضة المتقاطعة لتجربة المرأة إلا أنها احتفظت ببعض عناصر البناء الدرامى التقليدى، فوضعت شخصية **ليلى** وفق النموذج الكلاسيكى المتكامل الذى تنطلق فيه الشخصية من موقف متأزم يفجر صراعا خارجيا وداخليا معا يفضى الى أحداث تتطور لتمضى بالشخصية فى تصاعد الى نقطة التحول والاكتشاف. وينتظم هذا النموذج الكلاسيكى للشخصية الدرامية شخصية سلوى أيضا ولكن بدرجة أقل حدة، ذلك أن التكشف فى حالة سلوى لايفضى الى تحول كامل فى الشخصية ولكن الى تعديل جزئى فى المسار.

وإذا كانت شخصية سلوى- الزوجة الناجحة والمناضلة السياسية- تقف فى البداية



على طرف النقيض من صديقتها ليلى الزوجة الفاشلة التى غاب وعيها أوزيف فاغتربت عن نفسها ، فإن سلوى سرعان ما تتحول الى مرآة كاشفة وقوة مساعدة تدفع صديقتها نحو الوعى الحقيقى. لكن سلوى لاتلبث أن تجد بدورها مرآة كاشفة فى شخصية الفتاة الجامعية الثائرة **منى** التى تعرى التناقض الأخلاقى والفكرى العميق الذى تقع فيه سلوى فى علاقتها مع ابنتها.

ويشكل هذا المثلث الدرامى- **سلوى/ليلى/ منى**- من خلال علاقات التماثل والتعارض وحدة بنائية تتصدر النص وتستدعى بدورها وحدات بنائية أخرى- أيضا عبر آليات التماثل والتعارض وهى الآليات الرئيسية المتحكمة فى انتاج النص.

فهذا المثلث «المثقف» لايلبث أن يستدعى نقيضة الواضح (**الهام**) من خلال **ليلى**- أضعف أضلاعه وأقربهم من هذا النقيض- وحين يتجسد هذا النقيض داخل السجن تطرحه الكاتبة بذكاء فى صورة ثالوث يتكون من الهام- الزوجة الخائنة والمرأة الجشعة وتاجرة السموم البيضاء- وعلى يمينها ويسارها مساعدتين تزكدان ملامحها فكلتاهما تتجران معها فى المخدرات واحداهما زوجةخائنة هجرت أسرتها جريا وراء بريق المال والأخرى امرأة جشعة لاترى فى الدنيا سوى المادة. وهكذا نجد أن كل شخصية فى هذا المثلث النقيض تمثل مرآة **عاكسة** لزميلتيها - لامرآة كاشفة مثل شخصيات المثلث الأول.

وإلى جانب هذا المثلث النقيض يستدعى مثلث **سلوى/ ليلى/ منى** مثلثا آخر- رجوليا هذه المرة- يتشكل من **كمال**، زوج سلوى، و**سليم** ، زوج ليلى، وحبيب الطالبة منى- وينهض هذا المثلث على علاقة التماثل بين كمال والحبيب فكلاهما صورة للرجل المثالى الغائب ، المنقذ فى نضجه وشبابه، وهى صورة تنتمى الى عالم مثالى لانراه ، يقبع خلف أسوار السجن، أى خارج عالم المسرحية الذى يكشف النص حقيقته كسجن كبير يحتوى الواقع برمته-وفى مقابل هذا الرجل المثالى الغائب يتجسد نقيضه حضورا فى شخصة سليم التى تتسلط على السجن الصغير وسجن الواقع الكبير فى آن واحد وتلعب دورا هاما فى دفع عجلة الأحداث كما تجسد جماع كل القوى الغاشمة المناوئة لحركة التقدم نحو الوعى الحقيقى.

ولاتلبث شخصية **سليم** أن تفرز مثلثا ذكوريا آخر عن طريق التماثل (مع بعض الاختلاف) مع الرجلين الوحيدين. الآخرين اللذين نراهما تجسدا على خشبة المسرح وهما المعلم «**لاوندى**»، تاجر المخدرات الذى يفر تاركا زوجته «**خوخة**» تحمل عبء جرمه، ومدير **السجن** الذى لايعدو أن يكون استعارة مجسدة لسليم ولدوره ، الحقيقى فى المسرحية كصاحب السجن الكبير.

ورغم أهمية هذه المثلثات الدرامية التى ذكرتها ، وتصدرها الواضح فى النص إلا أنها لاتتشكل ولاتنشط دلاليا الا من خلال علاقاتها مع كورس السجينات فى المكان- أى السجن- فرغم **صيغة المونولوجات المنفردة التى تسم حديث السجينات إلا أن هذه المونولوجات تكون فى مجموعها أنشودة كورالية تسعى إلى الاجابة عن السؤال المحورى الذى** يفجرها وهو: من الذى دفع بهؤلاء النسوة الى سجن النساء؟ وإذ تحكى

كل منهن قصتها لتبرر وضعها تلتحم القصص بعضها بالبعض وتتحول من إجابات فردية على السؤال (تشرح الظروف الشخصية والملابسات الخاصة) الى إجابة جماعية تمتد من الخاص الى العام، وتتفجر استعارة الواقع كسجن كبير، وتحيل خشبة المسرح الى صورة مصغرة مجسدة له.

وما إن تتبلور هذه الاجابة في وعينا ووعي الشخصيات المثقفة مثلث سلوى/ ليلى/ منى حتى تتحول بدورها الى سؤال كبير آخر موجه اليها والينا والى دور الطبقة المتوسطة المتعلمة عموما فى مسيرة التاريخ، فنجد الطالبة منى تصبح فى سلوى المناضلة: «إزاى بتكتبوا كل اللى بتكتبوه ولسه عندنا صرصار وسنبه ولراحظ؟ وبقية السجينات بالطبع. أى لماذا فشل نضال المثقفين من أبناء الطبقة المتوسطة فى تحقيق العدالة الاجتماعية والقضاء على الجهل والقهر النفسى والجنسى والفقر والتخلف؟ وأمام هذا السؤال الشجاع لاتملك سلوى إلا أن تدرك آفة التناقض بين القول وبين الفعل،بين النظرية وبين الممارسة،وهو التناقض الذى عانت منه دائما الطبقة المتوسطة. كذلك تدرك سلوى أنها رغم تحررها النسبى لم تتحرر بعد تماما من إسار التقاليد والأفكار البالية التى أفرزتها البرجوازية. وتكمل ليلى إجابة السؤال حين تكشف عن تسلط صورة الأب على وعيها، وبالتبعية على وعى المرأة عموما فى المجتمعات الأبوية الرأسمالية. لقد أدى هذا التسلط بها الى البحث عن حماية الأب بعد موته فى ظل رجل قروى ثرى لم يلبث أن حولها الى دمية وظل باهت له. تفصح مناجاة ليلى لابيها الغائب (الذى يلقى جمال عبد الناصر بظلاله على صورته) عن تمزقها بين الحنين والرفض وعن محاولة مستميتة للاحتفاظ بمبادئه مع لفظ سيطرته النفسية عليها كتابع، لكن رفضها للزوج ونزعها للباروكة الصفراء يشى ببداية مشوار الخلاص لكن يظل السؤال: هل خلعت مع الباروكة عباءة الأب أيضا؟ والحق أن هذه المنطقة تمثل أخطر خلقات النص إذ كادت أن تدفع به الى هوة التبسيط الساذج والحلول المجانية ، فقد خرج حديث ليلى الى الأب عن الحدود الفكرية للعرض وحمل دفقة شعورية علا فيها صوت الكاتبة على صوت الشخصية- وقد زاد من خطورة هذا المزلق بروز مثلث دلالى آخر وحد صورة الأب المثالى الغائب (والد ليلى) بصورة الزوج المثالى الغائب (كمال) بصورة الحبيب المثالى الغائب(حبيب منى) - ولما كان هذا المثلث يتناقض جذريا مع مثلث سليم /لاوندى/ مدير السجن الذى يحضر بيننا وينتمى صراحة الى عصر الانفتاح فقد أوشك النص أن يتحول عن مسار المساءلة الناضجة لواقع الأنظمة الأبوية الرأسمالية كلها الى مجرد حنين رومانسى ضحل الى عهد عبد الناصر وإدانة غوغائية سهلة لعهد السادات. لكن الكاتبة انفلتت بذكاء من هذا المأزق- على اغرائه- بفضل شجاعتها فى مواجهة النفس وانتقاد العقائد والنظريات الموروثة وهى شجاعة جسدتها فى شخصية منى التى تمثل وعيا مخالفا يتجاوز ميراث الماضى سواء كان هذا الماضى ملكيا أو ناصريا أو ساداتيا.

وعلى الرغم من ذلك تظل منى أيضا مشروعا ينتظر الاختبار والتحقيق. حقا إنها تظل فى تناقض كامل مع السجينات رغم تعاطفها معهن ، كما أنها لاترتبط مثل الشخصيات الأخرى بكورس السجينات عبر آلية التنويع على اللحن الواحد- وهى الآلية التى ترحد المتعلمين من أبناء الطبقة المتوسطة بالطبقات المطحونة فى المسرحية- لكنها مع ذلك لاتنجو من السجن إذ تعود اليه فى النهاية بعد وهم لحظى بالإفراج، أضف إلى ذلك أن شبح سلوى يلقى بظلال مقلقة عليها .فإذا كانت منى صورة من سلوى فى شبابها، ألا يمكن أن تقع منى بمرور الأيام فى نفس تناقضات سلوى وانقساماتها. وقد أفضى اختيار المخرج عادل هاشم والمؤلفة لمجموعة شابة من خريجات المعهد العالى للفنون المسرحية (كلهن فى سن منى) للقيام بدور السجينات الى تعميق الاحساس- على المستوى البصرى- بالأخطار التى تتهدد هذه الشخصية. فإذا كان الواقع كله سجنا كبيرا- وفق المفارقة المحورية فى المسرحية- وإذا كانت كل السجينات من الشباب، إذن فقد ضاع المستقبل أيضا وأصبح سجين الواقع الراهن المقيم.

إن مسرحية سجن النساء نصا وعرضا لاتجنح الى التفاؤل السهل بل تظل فى النهاية تسائلنا عن إمكانية النجاة وتعترف ضمنا وصراحة بأن السجن الحقيقى هو سجن معنوى عتيد يتمثل فى الأفكار البالية والمفاهيم الخاطئة والتصورات المضللة التى تقل كاهلنا، وهو سجن يتطلب هدم أسواره كفاحا مريرا دائبا يعصف بالوعى الزائف ليشرق الوعى الحقيقى.

وفى تناوله للعرض التزم المخرج عادل هاشم كعادته بالنص مع بعض التغييرات الطفيفة التى وافقت عليها المؤلفة وهى تغيرات حكيمة فى معظم الأحوال خاصة فى مشهد النهاية ومشهد هروب تاجر المخدرات المعلم لاوندى. لقد كان خروج ليلى الى الصالة فى النهاية لتتحد بالمتفرجين فى النص المكتوب يمثل خروجا متفائلا سهلا من المأزق الحضارى الذى يطرحه النص ونفيا لتساؤلاته الناضجة. كما أن استحضار المعلم لاوندى جسديا على خشبة المسرح أوجد علاقة دلالية هامة بينه وبين تاجر المخدرات المقنع سليم (الزوج الحاضر) ونفى إمكانية قيام علاقة دلالية بينه وبين الزوج المثالى الغائب كمال أو بينه وبين ذلك المثالى الغائب الآخر حبيب منى.

واستعان المخرج بمصمم الديكور صلاح حافظ الذى اختار أسلوبا يمزج الواقعية بالتعبيرية فجاء الديكور معبرا تماما عن حالة الحصار التى تعانيها الشخصيات، بل وموحيا أيضا من خلال بعض المرتبفات- مثل الأعمدة العالية والأذرع الضارعة والنسور- بأن حالة الحصار هذه تمتد فى الماضى ربما إلى عصر الفراعنة.

ووظف المخرج الإضاءة فى تحقيق الانتقال السريع والسلس من الحاضر الى الماضى فى مشاهد «الفلاش باك» التى ساهمت فى إبراز جدليات الزمان والمكان المبنية فى النص وفى إبراز المفارقة المحورية التى تقول بأن عالم النص لايعدو أن يكون سجنا كبيرا، مهما تنوعت الأمكنة، وأن زمن النص هو زمن الحصار الدائم، مهما تنوعت الأزمنة.

وقد جاء طاقم ممثلات وممثلى العرض متجانسا متعاونا فكانت ماجدة الخطيب (سلوى) فى أحسن حالاتها وأكدت موهبتها التى افتقدناها منذ زمن، وأبدعت سوسن بدر فى واحد من أجمل وأفضل أدوارها على المسرح (دور ليلى) ونجح عادل هاشم فى تجسيد قبح وبشاعة ولزوجة شخصية سليم ووجدت أحلام الجريتلى أخيرا دورا يبرز موهبتها الكبيرة هو دور خوخة. أما مجموعة الشابات فكانت رائعة حقا، ملأت المسرح حيوية وتوهجا وأيضا ألما. فكان شبابهن إضافة دلالية للعرض وكان حماسهن وتنافسهن فى الابداع مصدر بهجة حقيقية. تحية من القلب لهن جميعا ودعوة أن ينفلتن من حصار سجن النساء.



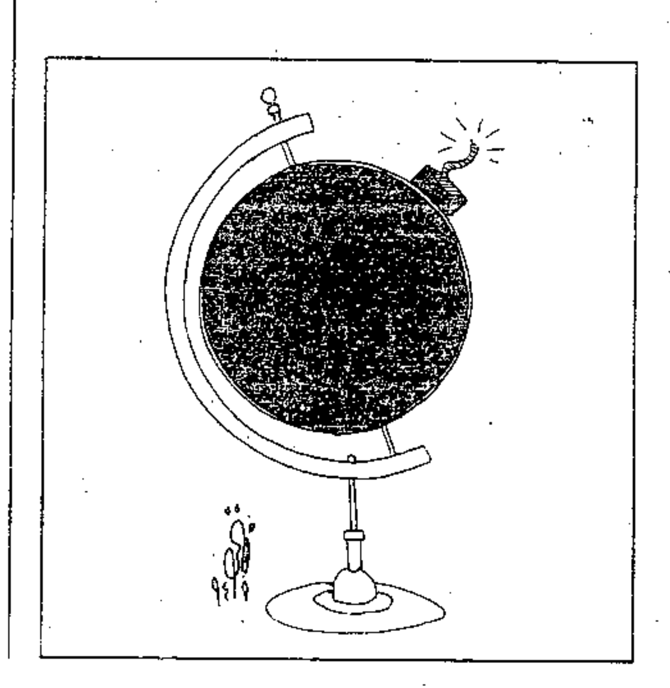
الجهل و الفتنة على المنابر

التوقيت أعياد الأخوة المسيحيين والمكان أحد الجوامع المواجهة لأحد الكنائس.. والمتكلم خطيب الجامع فى وقت صلاة الجمعة. والموضوع بدلا من أن يكون تهنئة للأخوة المسيحيين بعيدهم المجيد، يكون طعنا فيهم محرما القاء السلام. فالسلام على حد قول الداعية فقط قصر على المسلمين. وعدم مشاركتهم فى الطعام فطعامهم نجس وحرام على كل مسلم!

وفى خطبة أخرى.. يدعى الجاهل أن الله قد خلق الأرض أولا وسطها ممتدة الى مالانهاية ثم خلق السماء بعد ذلك سقفا لها.. ضاربا عرض الحائط بما أنجزه العلم منذ قرون عدة مترجما حقيقة أن الارض جرم ضئيل ضمن المنظومة الكونية السابحة في الفضاء اللانهائى بالصور والارصاد الفلكية من أقمار صناعية حسمت هذا الموضوع فى قرننا العشرين. ووسط استنكار حشد المصلين وكثير منهم على درجة من العلم تنفى مايقول.. وقليل منهم لم يتوفر له ذلك فيزيدهم جهلا على جهل.. وتكون النتيجة تشكك المتعلمين وضلال الجاهلين. وفقدان مصداقية الدين..

ولما كانت قضية أن الارض خلقت أولا وعلى هذه الصورة الساذجة التى يشرحها الداعية أو أن السماء قد خلقت ثانيا فهى قضية لاتهم أحدا ولاتضيف الى الانسانية قيمة أو مغزى ويحتقرها العلم والعلماء بعد اكتشاف الكثير من قوانين الكون.. فان الاخطر من ذلك داعية الفتنة الطائفية الذى يؤلب فتيى الأمة ويحرم عليهم التعاطف والتوددوالمحبة. رغم أنهم مصريون يعيشون نفس الواقع ويواجهون نفس المصير- والمفترض أن هناك وزارة للأوقاف يتبعها ادارة للدعاة ومن واجبها محاربة الجهل الواقف على منابر الجوامع ليتحقق فعلا الشعار المصرى الوطنى الديمقراطى الذى ارتبط بنضالنا وثوراتنا الوطنية منذ بدايات القرن العشرين وهو «الدين لله والوطن للجميع»

باسم القاضي



الى كل من يهمه الاشتراكية

أغمضت عينى وتخيلت نفسى قد تجاوزت حاجز الزمن حتى وصلت لعام ٢١٠٠، وساقتنى قدماى الى مكتبة رثة وأخذت أجول بعينى بين رفوف الكتب وكانت المفاجأة وقوع عينى على كتاب يحمل عنوان تاريخ الحركة اليسارية المصرية فى نهاية القرن العشرين وأخذت أتقلب بين صفحات الكتاب ووضح لى أنه كان هناك عدة كيانات تتكون منها الحركة. وهى حزب التجمع والناصرى والشيوعى المصرى، والشيوعى الديمقراطى وبعض الكيانات الماركسية التزمية ولم أكد أنتهى من قراءة الكتاب حتى أنتابتنى موجة هستيرية من الضحك المأساوى على الفرص التى أضاعتها هذه التيارات لخلاص الوطن فى نهاية القرن العشرين. وكان مصدر تعجبى هو هذا المقدار الهائل من الميكيافيلية التى تحكم هذه الكيانات اليسارية. الكل يريد أن يكون الزعيم وكل منهم لايعجبه الآخر قال أحد الناصريين فى رأيه عن التجمعيين أنهم أكذوبة. وقال التجمعى عن الناصرى انهم هتيفة.. والشيوعى المصرى يرفض الاثنين لأنهما يتلاعبان بقضية الصراع الطبقى، والشيوعى الديمقراطى يرفضهم جميعا لأنهم يتعاملون مع النظام الناصرى. ولم أكد أكمل الكتاب حتى فأجانى رجل ملتح وسألنى: انت بتقرا ايه؟شيوعية؟.. ولم أحس بنفسى الا وأنا مصاب بطلقات نارية ومتجه رأسا الى القبر!!

ملحوظة: ثبت القول أن النظام الحاكم من الآن حتى عام ٢١٠٠ هو نظام أصولى دينى ثيوقراطى!

أشرف صادق - الشرقية

صح.. صح

أود أن أعبر لكم عن اعجابى بالخط الذى تتبناه

مطبوعتكم «اليسار» مما يعكس انحياز الحزب الذى تنتمون اليه الى الأغلبية الساحقة من أبناء شعبنا الكادح وليس مصادفة ذلك الشعار الموفق الذى يتصدر رأس مجلتكم «صوت المستضعفين فى الارض» وإنما هو تعبير صادق عن انحيازكم وتصديكم النبيل لقضايا التغيير وإقامة المجتمع العادل الخالى من الاستغلال..

ويشجعنى هذا على أن أكشف لكم عن رغبتى الحارة فى المشاركة بجهدى الصحفى على صفحات مجلتكم الجادة.. وقد ركزت جهدى فى الفترة الماضية على متابعة مايحدث من تحولات فى بلدان أوروبا الشرقية بعد صحوتها من السكرة الرأسمالية الموهومة والتى روج لها الغرب بعد تفكك المنظومة الاشتراكية.. تابعت عن قرب وبشكل ميدانى مايجرى فى بولندا والمجر وبلدان أخرى فى الجوار الى النمسا التى أقيم وأدرس فيها الصحافة والعلوم السياسية... كما أتابع مايجرى فى المنظمات الدولية التى تتخذ من النمسا مقرا لها وعلى رأس هذه المنظمات منظمة الطاقة الذرية والأوبك وغيرها..

مرة أخرى يسعدنى ويشرفنى أن أضم صوتى لصوتكم وجهدى لجهدكم خدمة لقضايا الوطن وهموم شعبنا العظيم..

مهندس- وجيه أيوب
النمسا

** مرحبا بك صديقا لأسرة تحرير اليسار ومرحبا باسهاماتك فيها، وخاصة بالتقارير الاخبارية والموضوعات التى تقدم صورة واقعية لما يحدث من تطورات سياسية واقتصادية واجتماعية سواء فى النمسا مقر دراستك.. أو فى البلدان «الاشتراكية سابقا» التى تتابع تطوراتها.

المحرر

نهر اليسار المتجدد

أقلقتنى إشارتكم ،فى افتتاحية العدد الأخير، للضائقة المالية التى تواجهها مجلة اليسار العزيزة فأمسكت بالقلم لأؤكد لكم بأننى، كواحد من قراء اليسار «لم أغضب لأن لون ورقها لم يعد ناصع البياض، بل إننى لن أغضب إذا ما أصبح لونه أصفر (من حيث اللون طبعا وليس المضمون) . فالمهم فعلا، كما ذكرتم، هو الموقف ومستوى المادة وتكاملها والالتزام بالعهد الذى قطعتموه عند إصدارها المهم أن تبقى راية للمستضعفين فى الأرض.

إن «اليسار» من الاهمية بمكان بحيث يجب أن تستمر فى الصدور مهما بلغت الصعوبات، مناشدا ،من هذا المنطلق، الأصدقاء القراء الذين لم يفقدوا إيمانهم بانتصار الاشتراكية وبانتهاء «الحقبة الشرق أوسطية» ، ولو بعد حين،فى مصر وفى كافة البلدان العربية، مناشدا أياهم مساعدتها، بمختلف الرسائل ، على الاستمرار فى الصدور.

ومن ناحيتى، ورغم «ظفرى» ارسل لكم بالبريد المسجل مبلغ عشرين دولارا، مساهمة متواضعة. وسأبذل جهدى فى جمع بعض التبرعات من أصدقائى قراء المجلة فى محافظة «اربد»

الكاتب - أحمد جرادات
أربد- الاردن

** شكرا للصديق أحمد من أربد الشقيقة على متابعته «لليسار» وحرصه على استمرارها وتفكيره فى تقديم مساهمات عملية ، يراها متواضعة، ونراها عظيمة القيمة فى زمن يسهل فيه على الكثيرين الاكتفاء بأطنان الكلمات الضخمة فتسمع ضجيجا ولاترى طحينا

المحرر



رسالتك وصلت.. وشكرا..

**الصديق د. سمير تسوس- فالينسيا- أسبانيا- وصلتنا رسالتك التى تستفسر فيها عن طريقة الاشتراك فى المجلة لك ولمجموعة من أصدقائك.. والطريقة هى إرسال حوالة بريدية بقيمة الاشتراك على عنوان المجلة باسم رئيس تحريرها كالتالى:

جمهورية مصر العربية- القاهرة

ميدان طلعت حرب- ١ شارع كريم الدولة- مجلة اليسار رئيس التحرير/ حسين عبد الرازق

وسوف نرسل لكم النسخ المطلوبة على العنوان الذى ترسلونه إلينا.

قيمة الاشتراك السنوى ٥٠ دولارا أمريكيا.

مشاغبات

أيها المثقفون: يحموكم فى كنكه

شهدت المؤتمر الذى عقده الأدباء والفنانون المصريون، لكى يتداولوا فيما يفعلونه، بعد أن طالت خناجر الارهابيين عنق «نجيب محفوظ» فانتحوا- بذلك مرسم تصفية المبدعين من أهل الفن . ومع أن المؤتمر قد عقد بدعوة من ست نقابات، تضم بين صفوفها ما يزيد على خمسة عشر ألف مثقف وكاتب وفنان، فإن الذين حضروا منهم لم يتجاوزوا عدة مئات، والذين تكلموا منهم لم يصلوا إلى عشرة أفراد، والذي توصلوا اليه- بعد ذلك- لم يزد عن الصفر، الآ بصفرين!

ولم يكن هناك خلاف بين الذين حضروا والذين تكلموا على استنكار الجريمة، أو تباين فى الاحساس بالخطر، أو نقص فى إدراك المبررات«العملية» التى دفعت الارهابيين لاختيار «نجيب محفوظ» هدفا لهم، والانتقال من توجيه رصاصاتهم الى كبار المسئولين من رجال السياسة والأمن، الى توجيهها الى صدور الأدباء والفنانين، باعتبارهم هدفا يسهل اصطياده- سواء لضيقهم من اجراءات الحماية، أو لعدم وجودها أصلا- فضلا عن أن الضربات الموجهة الى هذاالفريق من ذوى الشهر المدوية، سوف تحدث فرقعه إعلامية محلية وعربية ودولية تؤثر على صورة الاستقرار، وتوحى بأن الارهابيين- بعد الضربات الموجعة التى وجهت اليهم- ما يزالون أقوياء.. والأهم من ذلك كله تقديرهم بأن تلك الضربات سوف تدفع.. الأدباء والفنانين الى الانسحاب من المشاركة فى الحملة ضد الارهاب، خوفا من اقتراب حد السكين من اعناقهم، فيتخلصون بذلك من أعداء ذوى تأثير جماهيرى طاغ وقادر على محاصرة جانب كبير من نفوذ عناصر التطرف والعنف.

وعلى الرغم من إدراك جميع الذين حضروا المؤتمر لذلك كله، واتفاقهم عليه، فقد عجزوا عن الاتفاق على الدور الذى يستطيعون القيام به، دفعا لحد السكين بعيدا عن اعناقهم، واعناق الوطن.. ومن سوء الحظ أن الفنانين من نجوم السينما والمسرح والغناء قد التزموا الصمت، وتركوا الحديث للمفكرين والأدباء، باعتبار أن التفكير هو وظيفتهم، والكلام هو بضاعتهم،فحولوا الاجتماع الى مسخرة فكرية وسياسية من أعلى طراز!

أصر معظم المتحدثين على الخلط بين ماهو سياسى وحزبى، وماهو ثقافى ونقابى، وبين مهام المستقبل البعيدة وواجبات الحاضر الملحة، وتوهموا أن الحاضرين- من أهل الفن- هم المسئولون وحدهم عن تصفية الارهاب، وعجزوا عن تحديد هدف عملى متواضع يستطيعون انجازه، وعن الاتفاق على حد أدنى يستطيعون الالتقاء حوله، وعن تحديد القوى المدعوة للمشاركة فى تحقيق هذا الهدف، واندفعوا يتهمون النظام العالمى الجديد بقيادة أمريكا وعميلتها اسرائيل، بأنه المسئول عن زرع ظاهرة التطرف والارهاب فى المنطقة العربية، ويتهمون الحكومة بالتواطؤ مع الارهابيين، ويندون بموقف الاعلام- وخاصة التليفزيون- بدعوى أنه يهيئ المناخ لتفريخ التطرف والارهاب، ويعلنون أنه لايمكن القضاء على الارهاب، الآ بعد القضاء أولا على هؤلاء جميعا، أو على الأقل تغييرهم، ويرفضون بإباء وشمم أن يشترك معهم فى مقاومة الارهاب كل من لايتصدى للنظام العالمى الجديد، ولا يرفض السلام مع اسرائيل، ولايدين الحكومة ولا يلعن التليفزيون..

وبصرف النظر عن مدى الصواب والخطأ فى تلك التحليلات العبقرية، وعن درجة التحامل على تلك المؤسسات، فقد انزعت الحاضرين- وخاصة من العاملين فى مجال السينما والاذاعة والتليفزيون- الذين جاءوا يبحثون عن دور يبعدحد السكين عن رقابهم، فوجدوا أنفسهم مدعوين الى المشاركة فى حرب كونية ضد النظام العالمى الجديد واسرائيل والحكومة، بل والتليفزيون الذى يعتمدون عليه فى أكل عيشهم، والذى لايستطيعون من دون الظهور على شاشته أن يقوموا بعمل مؤثر ضد الإرهاب، ولابد أن خطر الارهابيين والمتطرفين على حياتهم ومصالحهم بدا لهم- آنذاك- هينا بالقياس لخطر هؤلاء المفكرين!

والحقيقة أن «نجيب محفوظ» نفسه، كان - على الرغم من حالته الصحية- أصفى ذهنا، وأحكم عقلا، وأكثر وعيا بالضرورة، وادراكا بما يتوجب على المثقفين أن يقوموا به، لذلك كان محددا وواضحا فى رسالته الموجزة التى وجهها الى المؤتمر، وطلب فيها من المثقفين إن «يتركوا جميع خلافاتهم جانبا وأن يجتمعوا حول مبدأ واحد هو الحرية، لأن الثقافة لاتكون إلا بالحرية»، لكن الرسالة- فيما يبدو- أخطأت العنوان فوصلت الى اجتماع للارهابيين.. لا المثقفين!

وهكذا انتهى الاجتماع، وغادر الجميع المكان دون أن يتفقوا على شئ يفعلونه ضد الارهاب، وفى طليعتهم هؤلاء المفكرون، الذين عادوا الى بيوتهم، ليستعيد كل منهم ماقاله، معجبا بنفسه، ثم يشد السيفون، ويجلس أمام التليفزيون فى انتظار أن يصل حد السكين الى عنقه!

ويا أيها المثقفون: يحموكم فى كنكه!

صلاح عيسى